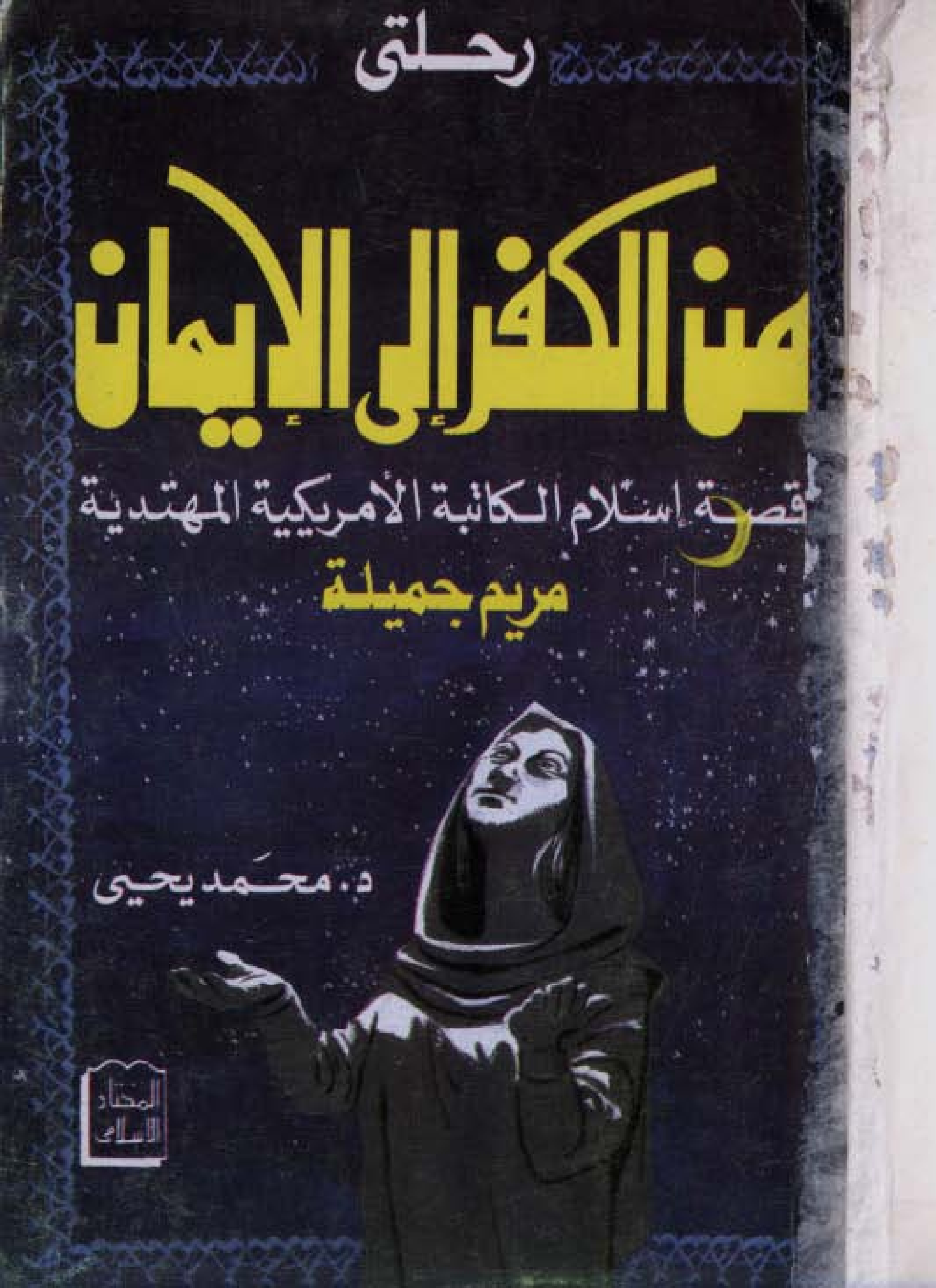

رحلتي
من الكفر إلى الإيمان
قصة إسلام الكاتبة الأمريكية المهتدية
مريم جميلة
د. محمد يحيى
المختار الإسلامي

د. محمد يحيى

رحلتي

من الكفر إلى الإيمان

قصة إسلام الكاتبة الأمريكية المهتدية

مريم جميلة



للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

نراً

١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

فى منتصف السبعينيات قدم لى أحد الأصدقاء كتاباً صادراً فى باكستان بالإنجليزية عنوانه «الإسلام فى مواجهة أهل الكتاب .. الماضى والحاضر». حمل الكتاب تاريخ عام ١٩٦٨ أى بعد عام واحد من النكسة أو الهزيمة التى لحقت بجيوش عدد من حكام العرب على يد بعض «أهل الكتاب». وكان اسم المؤلفة اللافت للنظر لغرابته على الأذن المصرية هو مريم جميلة.

ولما لاحظ الصديق استغرابى وجهلى بالمؤلفة وبالكتاب بادر إلى التوضيح. مريم جميلة هى سيدة أمريكية من أصل يهودى اعتنقت الإسلام وتزوجت من باكستانى وسافرت لتقيم معه فى بلده وقد كتبت هذا الكتاب عن تحولها من الكفر إلى الإيمان بالإسلام وعن مقارنة الإسلام بأديان أهل الكتاب مبينة أوجه الحق فى دينها الجديد ونواحى الانحراف والضلال فى المعتقدات الأخرى.

أخذت الكتاب وشغلتنى عنه مشاغل شخصية وأحداث السبعينيات الملتهبة بضرب الإسلام وصمود دعاته وشبابه. وفى أواسط عام ١٩٨٤ ذكرنى صديق بالكتاب خلال لقاء بيننا سائلا عن رأيى فيه. أخبرته أننى قرأته قراءة عابرة ووعدته بالعودة إليه قارئا متأنياً. وقبل أن أبدأ هذه القراءة أخذت أتساءل وقد بهتت فى ذاكرتى إنطباعات القراءة الأولى السريعة الخاطفة: ما الذى يجذب امرأة أمريكية يهودية مثقفة إلى الإسلام؟

ووجدت أفكارى تحوم حول الكلمات الأربع الأولى فى سؤالى . لماذا تقبل امرأة على دين يقول عنه قومها فى الغرب من دارسين مستشرقين إلى صحفيين فى وسائل الإعلام : إنه يحط من شأن المرأة ويحقرها ويجردها من إنسانيتها حسب مفهومهم للإنسانية ؟ وبلغ من قوة وتغلغل هذا التصور الغربى أن صدقه كثير من المسلمين وصاروا بين معتذر عن موقف الإسلام من المرأة وبين داع إلى رتق هذا الفتق فى ثوب الإسلام بنقل المفاهيم الأوروبية الحديثة عن المرأة تحت بند الاجتهاد والإصلاح . وإذا كان بعض من نشئوا فى كنف الإسلام ويقال لهم مثقفون قد صدقوا ما قاله الغرب عن ظلم دينهم للمرأة ورددوه والقرآن والسنة والفقه والتاريخ الإسلامى بين أيديهم وعلماء الدين بالقرب منهم فكيف يمكن لسيدة ولدت وعاشت فى مصدر التهمة أن تقبل على دين لا يعدها إلا بالتحقير والظلم وهضم الحقوق ؟

وهذه السيدة أمريكية أى بنت مجتمع مفتوح متعدد الثقافات متنوع الاتجاهات يشبع حاجات الفرد المادية والفكرية وإن ظمئ بعدها الفرد لحاجات الروح فعنده هناك المذاهب المسيحية المتنوعة وعقائد وأديان شرقية كالبوذية والهندوكية تروج بين القوم تارة بدافع الهرب من مجتمع مغرق فى المادية وتارة أخرى بدافع حب الطرافة والغرابة والاستعلاء على البيئة باتباع مذاهب غريبة عنها . وإذا لم يكن للفرد حاجة روحية حسب ذلك التصور الغربى

الضيق والمبهم عن ذلك الشئ الغامض الذى لايكاد يؤمن به أحد ويسمى الروح فهناك مذاهب الفلسفة الأوروبية الكبرى والعلوم المختلفة من طبيعية وإنسانية والفنون والآداب . فلماذا تكفر إنسانة أمريكية بكل هذه العطايا والفرص والإمكانات التى يقدمها مجتمعها لبنيه وتهجره بالروح والعقل إلى الإسلام ثم بالجسد إلى بلد إسلامى بعيد ومتخلف بمقاييس قومها ؟ وما الذى ينقصها فى مجتمع يقال عنه انه أعطى المرأة كل شئ من حرية الجنس إلى صعود الجو والفضاء إلى مناصب الحكم والقضاء والإدارة ؟

ثم نحن نتحدث عن امرأة يهودية (أو كانت كذلك) مع ما نعرفه عن تمسك اليهود وترابطهم الذى لا يدع مجالاً لردة أو مروق وهو الترابط الذى تحدثنا عنه الكاتبة باستفاضة فى كتابها . واليهودية فى أمريكا ليست ديناً ضعيفاً مضطهداً يهرب منه الأتباع إلى النصرانية أو دين آخر يلتمسون فيه العزة أو حتى مجرد النجاة كما حدث لليهود فى أوروبا خلال فترات من تاريخها الوسيط والحديث . والمؤلفة من نيويورك حيث يتركز خمسة ملايين يهودى أو يزيد أى أكثر من يهود فلسطين المحتلة . ونيويورك مدينة اليهود وعاصمة ملكهم المالى والإعلامى بلا منازع فكيف تغترب هذه السيدة وسط هذا الحشد البشرى المترابط المنظم المنتصر والمسيطر بالاقتصاد والفكر على القارة الأمريكية الشمالية ومن خلالها على ما يزيد عن نصف العالم إن لم يكن كله ؟ واليهودية دين كتابى فيه

عقيدة وفيه شريعة ينغلق أتباعه على تصوراتهم شعب الله المختار الموعود بالفردوس على الأرض وهو ما تحقق بعضه لهم فى أمريكا بالذات فلماذا ترفض الكاتبة هذا الدين وتنبذه إلى الإسلام الذى يكرهه بنو دينها السابق أشد الكراهية ويصفونه بأنه نسخة مشوهة من دينهم نقلها بدوى إلى قومه ؟ لماذا تترك الأصل الواضح إلى الصورة المشوشة ؟ بل لماذا تفقد الإيمان بالأصل ثم تؤمن بالصورة المنقولة عنه كما يقول أحبار دينها عن الإسلام ؟

والسيدة الأمريكية اليهودية هى كما يتضح من كتابها مثقفة فكيف أقبلت على دين أصبح عند الغربيين رمزاً للجهل والتخلف . إن المسلمين الناشئين على الثقافة الغربية قد كفروا بدينهم ناعتين إياه بالعداء للعقل ومعلنين أنهم لن يؤمنوا به إلا إذا تعدل وتبدل وتغير وأصبح كفلسفات ومذاهب أوروبا التى اعتنقوها بلا فهم فى غالب الأحيان . فكيف تأتى الآن مثقفة غربية لتقبل على الإسلام بشروطه هو لا بشروط ثقافتها . وربما لم يعد فى الأمر غرابة الآن بعد إسلام رجاء جارودى فى أوائل الثمانينيات وإسلام غيره من مفكرى الغرب . لكن السؤال يبقى قائماً : إن الكثيرين من أبناء المسلمين كفروا بدينهم محتجين بأنهم قرءوا فى مذاهب غربية فكيف يسلم مثقفون غربيون هم من المتعمقين فى فلسفات حضارتهم إن لم يكونوا من أعمدتها كما كان جارودى المتبحر فى مذاهب ثقافته كلها وليس فى الماركسية وحدها ؟ لعل الإجابة كامنة فى صلب السؤال : فالمفتونون

بشذرات متناثرة من فلسفات الغرب قرءوها مبتورة من سياقها ولخبث طويتهم وكفر طبيعتهم سارعوا إلى المروق عن الإسلام متسقين مع جبلتهم ومتعللين ظاهرياً بالثقافة والفكر بينما أدرك المتعمقون فى هذه الفلسفات محدوديتها وتضاربها وقلة زادها وضعف هدايتها لكنهم إستناروا ببعض مناهجها فوجدوا الحق فى الإسلام . لكنها ليست إجابة شافية فما زالت الفلسفة ومجمل الثقافة هناك مصطبغة بالطابع اللاديني المتشكك فى الأديان ـ كل الأديان ـ واصماً إياها بالخرافة . فكيف يسهل على امرأة رضعت هذه الثقافة الغربية أن تتحول إلى الإسلام لا بل تكتب مدافعة عنه وموضحة تهافت عقائد الغرب الدينية ؟

دارت هذه الأسئلة ونحوها فى ذهنى ثم تبددت وتجلت أمام ناظرى تافهة محدودة عندما قرأت الكتاب متدبراً ما فيه . ليس هذا كتاب عن تجربة شخصية أدت بصاحبتها إلى الإيمان بالإسلام . بل هو دراسة مقارنة للأديان التى اصطلح على تسميتها بالكتابية . ولسنا نتعامل هنا مع سيدة أقبلت على دين لأنه منحها حقوقاً أو مكانة لم تجدها فى حضارتها . ولو كان الأمر كذلك لما احترمنا امرأة تتعامل مع الأديان والعقائد بمنطق الرشوة والمزايدة لا بمنطق الحق والصدق . إن من يقبل على دين فقط لأنه منحه حقاً يبدو له أفضل مما منحه له دين آخر سيتركه غداً إلى عقيدة تدعى منح البشر كل ما يطمحون إليه أو يليق بهم من حقوق . والمذاهب الوضعية لا تعدم وسائل المزايدة والرشوة الفكرية

وإيهام الأتباع المستهدفين بأنها أكملت لهم إنسانيتهم حسب تعريفها لهذه الإنسانية .

ومؤلفتنا لم تقبل على الإسلام هاربة من مجتمع لم تستطع التكيف معه كما يقول خصوم الإسلام هذه الأيام كاذبين عن شبابه والمتمسكين به . فهى تحلل مجتمعها خلال حديثها عن المسيحية واليهودية وتصف بعض أوجه القوة والضعف فيه وتقدم نظرتها هذه للمسلمين ، أهلها الجدد ، كى يسترشدوا بها فى تعاملهم مع من تصفهم الكاتبة بأعداء الدين . ليست مريم جميلة إذن عنصراً سحقته الحضارة الغربية كما سحقت آلافاً أو ملايينَ من أبنائها فبحثوا عن الملاذ فى الجنس الحيوانى أو المخدرات أو الأديان الشرقية . إنها صاحبة اختيار واع وعقل يقظ يجسده مؤلفها بما يحتويه من تحليلات متعمقة ونظرات ثاقبة .

ومريم جميلة لم تترك دينها سعياً وراء زوج أو هرباً من مشاكل أسرية وما أشبه بل لأنها تبينت ضلاله وضلال البديل الآخر الذى تطرحه الحضارة الغربية وهو النصرانية . ولما أيقنت أن الإسلام هو الدين الحق لجأت إليه تاركة دينًا يعلو نجم أتباعه إلى دين يكاد يستأصل المؤمنون به فى بلادهم . فهى ليست باحثة عن القوة أو الأمن المادى بل هى تدور مع الحق حيث وجدته ولو أدى بها إلى هجرة الأهل والوطن . ولأن الإسلام هو الحق فلم ينفع ترابط اليهود ولم تجد منعتهم كعوامل إبقاء لمريم داخل حظيرتهم .

والكاتبة لم تسلم لأنها وجدت فى هذا الدين ثقافة وفلسفة وفنوناً تنافس ما تعرضه حضارتها . فالمسألة كما أسلفنا هى مسألة الحق والصدق وليست مسألة المزايدة والرشوة . وهى لا تكاد تذكر الفنون والثقافة الإسلامية فى كتابها المنصب على فحص أديان أهل الكتاب وبيان عدواتهم للإسلام . وهى لا تعادى ثقافة قومها لأنها لا تحسنها أو لا تعرفها . إنما تعاديها لأنها تعرفها وتخبرها حق المعرفة . وعندما استنارت هذه المعرفة بنور الإسلام تبدى لها انحلال هذه الثقافة وخطرها وزيفها فشرعت تكشف للمسلمين فى كتابها بعض جوانب التهافت والضرر فى ثقافة وحضارة الغرب . وهى تستخدم كتابات من نفس هذه الثقافة لإيضاح ضلالها وعداوتها للإسلام .

وعدت أراجع نفسى فى تساؤلاتها الأولى . هل فقدنا الثقة فى ربنا وديننا إلى حد أصبحنا فيه لا نتصور أن يؤمن بالإسلام إلا طالب منفعة ولا يؤمن به أحد لأنه الحق ؟ تؤمن المرأة فنقول انها آمنت لأن الإسلام يمنحها حقوقاً لا تجدها فى بيئتها الغربية . ويؤمن الرجل فنقول إنه هرب من حضارة المادة إلى حضارة الروح ويؤمن الغربى عموماً فنقول إنه أعجب بعمارة المساجد القديمة أو ببساطة القيم الإسلامية . وننسى أن الإسلام مضروب فى بلاده ولا يحصل أحد على حقوقه الإسلامية ولا تقوم لهذا الدين الآن حضارة روحية أو مادية ولا تمارس قيمه فى واقع حياة أبنائه . وقل بيننا من يعتقد بأنه يمكن الإيمان بالإسلام فقط لمجرد

التصديق أنه وحى إلهى إلى الرسول سيدنا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام . نعم بالإسلام حقوق للمرأة تحفظ إنسانيتها وبه ثقافة وفنون خاصة به وفيه قيم رائعة . ولكن كل هذا ينبع ويستمد الحياة من صدق هذا الدين وكونه رسالة الله الواحد الأحد إلى البشرية نقلها جبريل الأمين إلى النبى الكريم وحفظت فى القرآن والسنة وخدمها الفقهاء والعلماء المؤمنون المخلصون فظلت منارة تهدى البشر وتدعوهم إلى النور والهداية التى يريدها الله لعباده وتوضح لهم معنى حياتهم ومنشأهم ومآلهم كما حدده خالق البشر. القضية فى الإسلام ليست قضية حقوق تعطى لهذا أو ذاك وليست قضية فنون معمار أو زخرف تسر الناظرين أو قيماً يسمونها بالروحية تنافس قيم الغرب التى أطلقوا عليها المادية فى سوق جذب الأتباع . إنها قضية الحق والوحى الإلهى والمصدر الربانى . هى ببساطة قضية الدين الحق فى مواجهة الباطل والضلال من عقائد ومذاهب وثقافات وحضارات . فليس هذا الدين كغيره من الأديان أو الفلسفات مجرد صناعة بشرية تطرح على الناس وتتنافس على قلوبهم وعقولهم وأرواحهم . ليس بضاعة فكرية تضارب غيرها فتغلبهم تارة ويغلبونها أخرى لتعود فى صورة وتغليف أفضل فتغلبهم وهكذا دواليك . إنه يختلف عن غيره فى النوع وليس فى الدرجة فقط .

وهنا تكمن الأهمية الكبرى لكتاب «الإسلام فى مواجهة أهل الكتاب» . فهو كما قلت لا يعرض لتجربة المؤلفة الشخصية التى

دفعتها إلى الإسلام إلا فى قسم صغير لا يتعدى بضعًا وعشرين صفحة من صفحاته الثلاثمائة . ويركز فى قسمين رئيسيين على عقائد اليهود والنصارى ومواقفهم من الإسلام ليطرح قضية الكاتبة الأساسية وهى ان الإسلام دين الحق الذى يتعرض لمكائد أهل الباطل . وكأن مريم جميلة تترك لنا رسالة جلية تقول فيها ان الإسلام هو (أو يجب أن يكون) محور الاهتمام ومناط البحث عند المؤمنين به وعند من يدخل فيه . فلا يجب أن ننشغل بقضايا جزئية أو فرعية عند النظر فى دوافع الإيمان لمن دخلوا الإسلام ولا يحسن أن نفرح بمن دخله باحثاً عن حقوق أو فنون أو روحانية أو ماض مجيد أو فلسفة ظن أنه واجدها فيه . ينبغى أن نطرح القضية من جذرها الذى لا بديل عنه ألا وهو الإيمان بصدق الإسلام ومصدره الإلهى وضرورة الانقياد المحب الخاشع (أو الإسلام) لهذا الدين سواء منح حقوقاً أو فرض واجبات سواء ارتحنا لتعاليمه أو ثقلت علينا فروضه ومتطلباته سواء أطالعنا برؤية جذابة للحياة أو صدمنا بالحقائق التى لا تعجبنا كالتكليف والحساب والموت .

ولا أريد أن أقول هلموا ندعو غير المسلمين إلى ديننا مرددين فقط أنه دين الحق وأن عليهم ترك باطلهم إليه ، فليست هذه دعوة . بل لا بد من طرح الحجج والأدلة وتوضيح العقيدة والشريعة ومفاهيم القرآن وقيم السنة ولا يغنى أن نبين الفوائد العائدة على الفرد والجماعة من حقوق وراحة وخير مادى ومعنوى . ويتحتم أن نشير إلى الحضارة الكبرى التى أثمرها تطبيق

الإسلام على واقع الشعوب التى آمنت به . فالدعوة الإسلامية لا يمكن أن تنحصر فى مجرد القول بأن الإسلام حق وغيره باطل . فلا بد من التدليل والتحليل وتوكيد المقولة والفعل . وهذا هو فى الواقع ما تفعله مريم جميلة فى كتابها . إنها تقول أننى آمنت بالإسلام لأنه الحق ولم أدخله لأنه يعطينى حقاً كامرأة افتقدته فى بيئتى الغربية أو يمنحنى الملاذ من حضارة لم أتكيف معها أو ارتحت إليه بعد هروبى من دين كفرت به . ولكنها وهى تطرح القضية من جذورها وأساسها لا تكتفى بالقول بأن الإسلام هو الدين الحق بل تدلل على ذلك وتشرحه وتخصص جل كتابها لتفنيد انحرافات أهل الكتاب وبيان تآمرهم فى الماضى والحاضر على الدين الذى أيقنوا أنه الحق ولكنهم جحدوه .

وكتاب مريم جميلة يعتبر وثيقة فريدة فى تاريخ كتابات الغربيين المعتنقين للإسلام . فهو لا يقدم سرداً مفصلاً لتحول المؤلفة من الكفر إلى الإيمان . ولا ينصب على الإسلام نفسه يشرحه ويحلله سواء بموضوعية أو ليجعله يتمشى مع رؤية خاصة للكاتبة كما نجد فى أعمال جارودى مثلاً . لكن هذا الكتاب يقدم لنا هدية فكرية إن جاز التعبير. فالمؤلفة لا تكتفى بأن تدخل الإسلام بل تقدم لإخوانها فى الدين ما فرضه الله عليها لهؤلاء الإخوة ألا وهى النصيحة . تدخل مريم جميلة الإسلام فى وقت حرج . فالدعوة الإسلامية تضرب فى بلادها وحوادث قمع الإخوان فى مصر والانقلاب الصليبى فى نيجيريا ثم عدوان

إسرائيل الكاسح ماتزال ماثلة أمام ذهنها عند الكتابة . وهنا نلمس صدق الإيمان . فبدلاً من أن تكتب عن تجربتها الشخصية أو تتناول عموميات مألوفة عن عظمة الإسلام نجدها تختار موضوع أهل الكتاب والإسلام لتعالجه . وهى بهذا الاختيار تقول أشياء كثيرة . إنها تعبر عن حماسها وغيرتها على الدين الذى اختارته بأن تبين تهافت عقائد أعدائه وشدة تآمرهم عليه . وتؤكد على مفاصلتها لقومها السابقين يهوداً أو أمريكان وهو من مقتضيات الإيمان الداعى إلى مفارقة الكافرين . وتنبه المسلمين إلى ضرورة الحذر والتعرف الفكرى على الأعداء من موقع الإيمان بالإسلام دونما انبهار وذوبان فى فكر هؤلاء المخالفين الحاقدين . وهى تحذر من موقع العارفة بمكامن الخطر وتدابير المتربصين وأفكارهم فقد كانت بينهم . هكذا يجوز لنا القول أن مريم جميلة تأتى إلى زمرة المؤمنين وفى يدها هدية قيمة نافعة بدلاً من الحديث عن تجربتها
المؤمنين وفى يدها هدية قيمة نافعة بدلاً من الحديث عن تجربتها
الشخصية المحدودة أو الإشارة إلى النواحى التى شدتها إلى الإسلام .

* * *

وقد ارتحت لمدخل الكاتبة هذا وشدنى إلى متابعة أفكارها باهتمام . وكنت كلما أوغلت فى قراءة الكتاب أشعر بالرغبة فى أن يشاركنى غيرى هذه الخبرة المفيدة المثيرة للتدبر. لأنها كما قلت تجربة لا تندرج فى ما ألفناه من كتابات وتعليقات الداخلين فى

الإسلام من الغربيين وتفتح لنا مجالاً نجهله عن عقائد أهل الكتاب ومواقفهم تجاه الإسلام . ومع تزايد الرغبة فى أن أشارك غيرى فيما أدركته من قراءة الكتاب كانت حيرتى فى شكل المشاركة هذه هل تكون عن طريق ترجمة النص بأكمله وهو أمر مجهِد فضلاً عن تعذر الاتصال بالكاتبة لاستئذانها فى هذا الأمر . أم تكون فى شكل عرض للكتاب يلم إلماماً عابراً بموضوعه ومدخله . لكن هذا العرض لا يفى الكتاب حقه ويتحتم لضيق المساحة أن تسقط فيه تفاصيل تغنى الكتاب وتهم القارئ . واستقر رأيى على أن أفضل شكل لتعريف من لم يقرأ الكتاب برحلة مؤلفته من الكفر إلى الإيمان وهديتها الفكرية للمسلمين هو أن أعرض لمؤلفها عرضاً مطولاً متأنياً لا يثير الملل ولا يضيع قيمة العمل . وحرصت على أن لا يكون هذا العرض مجرداً بل ضمنته تعليقات متناثرة فى المواضع التى رأيت أنها تستحق التعليق لا لأنتقد الكاتبة أو أتطفل عليها برأى لا تستطيع أن ترد عليه أو لا يكون معبراً عنها بل لأجرى حواراً مع كاتبها : حوار ينبثق من النص ولا يتجاوزه ، يكمله ولا يعارضه ويخرج هذا العمل المطروح للقارىء العربى عن أن يكون مجرد شكل مهجن لا هو بالترجمة ولا هو بالعرض المألوف للكتب فى الصحف والدوريات .

وأرى لمحاولتى هذه هدفاً أبعد من تعريف القارئ برحلة سيدة أمريكية من الكفر إلى الإيمان أو اطلاعه على جوانب خافية من

عقائد أهل الكتاب وعلاقتهم بالإسلام والمسلمين . ففى وقت تضرب فيه الحركات الإسلامية فى كل بلاد الإسلام على يد الأعداء فى الداخل والخارج ويلعب أهل الكتاب أخطر الأدوار ضد ديننا ويأخذون مواقع الصدارة فى ركب الأعداء ومسيرات الغزو . وتكفى الإشارة إلى شراذم المعنكرين فى فلسطين السليبة وطوفان حركة التنصير فى أطراف العالم الإسلامى وقلبه وتآمر الأقليات وتطلعها إلى ضياع الإسلام . ومن المأمول أن تكون لما سطرته مريم جميلة فائدة فى التذكير والإيقاظ والحفز على المقاومة والفعل الإيجابى . هكذا أرادت الكاتبة وهكذا أبغى . والله أسأل أن يحقق القصد وأن يقبل السعى قربة إلى مرضاته سبحانه وتعالى . ولا أقول إننى بهذا الجهد المتواضع أخدم الإسلام فبعد دماء الشهداء وعذاب الأسرى وكفاح العلماء من المسلمين فى كل مكان لا يبقى مكان لمستزيد ولا طريق غير طريق الجهاد . كل ما أرجوه أن أوقد شمعة على طريق الجهاد الإسلامى هذا وأدعو الله أن ينصر المجاهدين ويحفظهم فهو غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

د . محمد يحيى

مريم جميلة والإسلام

تصدر مريم جميلة كتابها بهذه الكلمات : أوجه هذا الكتاب لمن يريدون مكافحة خطر الصهيونية والنشاط المسيحى التبشيرى فى البلدان المسلمة . وهى تحدد بهذا التصدير طبيعة مؤلفها وتربطه بواقع المسلمين وتجعل منه دليل عمل قبل أن يكون وعاء معرفة ومعلومات . وتضعنا فى قلب موضوعها بإحدى عشرة صفحة ترجمت فيها معظم الآيات القرآنية الواردة فى أهل الكتاب وعقائدهم ومعها بعض الأحاديث النبوية فى هذا الشأن لتؤكد ما تقوله فى مقدمتها القصيرة للكتاب من أنها تنطلق من مفاهيم الإسلام وتتخذها منهاجاً ومعياراً لها . فما هو إذن موضوع الكتاب بالتحديد ؟ إنه ، حسب قول المؤلفة ، دراسة وتحليل لليهودية والمسيحية والتطورات التى طرأت على هذين الدينين فى الغرب لاسيما تحت تأثير الفكر المادى الحديث . ثم هو أيضا البحث فى تأثير هذا الغرب الدينى الفلسفي على المسلمين فى شتى نواحى الحياة . والرؤية الكامنة وراء اختيار هذا الموضوع أو الهدف من معالجته هدف عملى وليس نظريا . فالإسلام أقوى منافس ومواجه للثقافة الغربية والصدام بينه وبين أديانها ومذاهبها واقع . وطلائع الهجوم هى عشرات المعاهد ومراكز الأبحاث المخصصة لفهم الإسلام بغرض واحد فقط هو

تحطيمه . ولا يقتصر أثر هذه المراكز على الغرب بل إنها تمتد إلى عالم الإسلام لتصوغ طبقات المثقفين بأفكارها المحرفة عن دينهم وتقتل الأمل فى أى نهضة إسلامية . والهجوم الإسلامى المضاد يجب أن يتخذ شكل الوعى الفكرى بالعدو .

هكذا تطرح مريم جميلة قضية الكفر والإيمان طرحاً موضوعياً جهادياً منذ البداية . لا مجال هنا للحديث عن تجربة فردية فلا وقت لذلك . ولا معنى للحديث عن عمل ثقافى فكرى مجرد فالأمر يتعلق بحرب معلنة شعواء تتخذ من الفكر والمعهد والجامعة ساحة وسلاحًا . الخدمة الجليلة والوحيدة التى يمكن للمثقف المسلم أن يقدمها هى أن يعلن عن ولائه أو يحدد موقفه بصراحة ثم يدخل المعركة لا بسلاح الدعاية الساذجة للإسلام وإنما بدراسة العدو والتعريف به وبمخططاته . هكذا تعلم مريم جميلة المثقفين المسلمين وهكذا تكشف عن خيانة من انضموا إلى صف أعداء المسلمين صراحة أو اختاروا السبيل الأخطر ، سبيل النفاق والمداراة فراحوا يهدمون الدين ويميعون فكره ويدسون فيه أفكار الغرب تحت شعارات براقة كالاستنارة والعصرية والاجتهاد والتجديد .

لكن مريم داخلة إلى الإسلام حديثاً (فى عام ١٩٦١) وهى تريد أن تقدم أوراق اعتمادها ، تجربتها الذاتية . وتختار أن تخصص لذلك صفحات قليلة تقدم بها الكتاب ونكاد نحس فيها بنغمة الاعتذار عن

إقحام ذاتها بعد أن نبهت إلى أهمية موضوعها وجسامة الأخطار الحاقة بالمسلمين . فكيف أسلمت مريم جميلة ؟

كان مدخلها إلى الإسلام هو نفسه مدخل السابقين من أبناء هذه الأمة : القرآن . وطريقها إلى القرآن كان غريباً يرى فيه الفرد يد المصادفة الطريفة ويلمح فيه المؤمن فعل القدر والهداية الإلهية . لم تعرف الكاتبة القرآن عن طريق مركز إسلامى أو داعية مجاهد . وإنما وصلت إليه عن طريق حبها للموسيقي . إذ نشأت فى طفولتها على حب الموسيقي الغربية الكلاسيكية وكانت من المتفوقات فى مادة الموسيقي خلال دراستها . وبصدفة محضة كما تقول استمعت ذات يوم إلى موسيقي عربية فى المذياع فشدتها وخلبت لبها وصرفتها عن موسيقي الغرب . وبعد إلحاح اصطحبها والدها إلى محل فى نيويورك ، حيث نشأت ، لشراء بعض الأسطوانات العربية . وبصدفة أخرى كان بين هذه الأسطوانات تسجيل لأم كلثوم تتلو فيه آيات من سورة مريم . وتقول مريم إن حلاوة الصوت العربى تغلغلت فى داخلها وهيأتها فيما بعد للانجذاب إلى القرآن . وهى لم تسلم فى تلك الأيام المبكرة من حياتها وإنما أدركت أن هناك عالماً آخر غير عالمها الغربى وأن بهذا العالم موسيقي ذات وقع مختلف وفيه نص مقدس يسرى إلى الكيان إذا تلى مجرداً . وتحكى الكاتبة أنها بعد إسلامها ما فتئت تستمع إلى تلاوات القرآن وأن أقوى ما أثر فيها كان تلاوة استمعت إليها فى مسجد

بنيويورك من طفل قادم من زنزبار صوته وتجويده أفضل من كثير من المقرئين المشهورين . وهنا تساءلت عن مصير طفل زنزبار هذا بعد أن ذبح الصليبى جوليوس نيريرى قومه ومحى الإسلام من هذه الجزيرة التى أشرقت الهداية منها على جنوب شرق أفريقيا . ولمعت بذهنى أفكار عن إغلاق الكتاتيب وإبعاد حلاوة القرآن عن الأذهان والأطفال بخاصة وهجر كتاب الله واحتقار فنون تلاوته وتجويده وربطها بالموت والمقابر وكيف يكون ذلك وقراءة القرآن تُحيِى نفوساً بالإيمان كما نرى مع مريم جميلة .

ونمضى مع خيط آخر من خيوط رحلة الكاتبة إلى الإيمان . ونلمح المصادفة أو القدر أو الهداية مرة أخرى . فهى تهتم منذ سن العاشرة بقراءة كل ما تستطيع الحصول عليه عن العرب . وتتكون لديها قناعة راسخة وهى بعد فى سن المراهقة أن الإسلام هو سر عظمة العرب وليس العكس . وعندما تشتاق إلى الإطلاع على هذا الدين الذى غير العرب أيما تغيير يصيبها مرض مفاجئ فى صيف عام ١٩٥٣ يقعدها عن الذهاب للجامعة عام بأسره . وخلال فترة المرض تطلب من والدتها أن تحضر لها ترجمة لمعانى القرآن من مكتبة عامة . وتبدأ قصتها مع الترجمات . فأول ما يقع فى يديها ترجمة جورج سال المبشر الانجليزى الذى عاش فى القرن الثامن عشر . وتجد نفسها تنفر من هذا العمل بلغته الركيكة ومحاولات المبشر الطعن فى مفسرى القرآن كالبيضاوى

والزمخشرى عبر هوامش مطولة ومملة . كانت صدمة على الفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً أن تجد القرآن هكذا فى ترجمة سيئة معادية . وكادت تنفر من القرآن ذاته لولا ان عثرت ذات يوم كما تحكى على طبعة رخيصة من ترجمة مارماديوك بكتال الإنجليزى الذى اعتنق الإسلام .

استراحت مريم جميلة لترجمة بكتال وانبهرت ببلاغة اللغة الإنجليزية فيها وسلاستها وجزالتها . وزاد تمسكها بها عندما قارنتها بترجمات أخرى رأت أنها تنشغل عن الاقتراب من حلاوة القرآن وحسن نقل معانيه وتتجه إلى الاعتذار والتبرير والسعى غير المقنع لمواءمة مفاهيم القرآن مع بعض الأفكار الفلسفية والعلمية الجزئية المتغيرة . ومن هذه الترجمات التى لم ترتح إليها ترجمة يوسف على ومحمد على اللاهورى وعبدالمجيد الدريابادى . ويتبين من حديث مريم عن الترجمات أنها كانت تدخل إلى الدين بحماس ويقظة بل وغيرة . فهى تريد من ينقل حلاوة ودقة اللفظ والمعنى القرآنى وترفض من يفقد الثقة فى دينه إلى حد يلجأ فيه بذلة إلى تطويع معانى كتاب الله لأفكار قطاع من البشر وهم الغربيون تقرباً منهم وظناً أن هذا سيحوز رضاهم وتقبلهم . ولكن تثبت تجربة مريم وشعورها أن المدخل الصحيح هو العزة بالإيمان وصدق الاخبار عن القرآن والدين وليس التلاعب فيهما بحجة أن ذلك سيجذب الغربيين إلى الإسلام . فالصدق هو السبيل الوحيد للدعوة إلى دين الحق .

وتؤكد مريم أن التفسير الذى أقنعها بمعانى القرآن لم يأت من تعليقات المترجمين وإنما من كتاب اسمه **مشكاة المصابيح** لعالم هندى من كلكتا هو مولانا الحاج فضل الرحمن . والكتاب يدور حول السنة والأحاديث النبوية . وتكلمنا مريم كمسلمة صحيحة الدين فتقول : كيف يمكن الدخول إلى القرآن إلا من خلال السنة وتفسير الرسول وتوضيحه للقرآن . وترى أن من يكفر بالسنة لا بد أنه سيكفر بالقرآن .

وماذا بعد قراءة القرآن والأحاديث النبوية ؟ تذكر مريم صراحة أن الذى أقنعها نهائياً بصدق الإسلام وصحته هو إجابته الشاملة والواضحة على مشاكل كانت تؤرقها طيلة مراهقتها وشبابها . وأول هذه المعضلات تتصل بالموت والخوف منه . كانت لا تجد إجابة عند والديها عندما تسألها عن المصير بعد الموت . إذ كانا يعجبان من سؤالها ويقولان لها : إن الحياة أمامها طويلة . لكنهما فى الواقع كانا لا يؤمنان بالآخرة وبالبعث والحساب والجنة والنار . ولم تسعفها التوراة والتلمود برأى فالجزاء فيهما دنيوى محض ، أما الإنجيل فكانت صورة الآخرة فيه مبهمة غير مفصلة . ولم يكن هناك غير القرآن يجيب على هذا السؤال فيريح العقل المعذب الحائر بتصور عن المنشأ والهدف ومعنى الحياة والمآل والثواب والعقاب والمغفرة . وقد أحسنت مريم حينما ذكرت أن معضلة الموت كانت تحيرها . فالموت هو اللغز الذى حير فلاسفة حضاراتها وهو ليس بالمشكلة المقتصرة على فتاة فى سن المراهقة تعانى من

هواجس ناجمة عن المرحلة الحرجة فى نموها الجسدى الشعورى . لقد أعطت الحضارة الأوروبية ظهرها للموت أو للدين فيما سمى بعصر النهضة مختارة طريق الحياة الدنيوية بأعرض وأوسع معانيها وأقامت النظم والفلسفات والدول والثقافات وعمرت واستعمرت وظنت أنها بالعلم المادى الطبيعى والفكر البشرى الوضعى قد سيطرت على مجرى الحياة إلى خلود وحصرت الموت فى نطاق مصيبة فردية مصيرها إلى زوال مع تقدم العلوم الطبية أو الجنائية . لكن الموت عاد لينتقم فى شكل هزات عنيفة زلزلت هذه الحضارة منذ القرن الماضى وحتى الآن مذكرة بوجود الفناء والضياع وحافزة على البحث الجدى فى القضايا الكبرى المتعلقة بأهداف وطبيعة ومصير الوجود البشرى . وبعد فشل الأديان الروحية الكهنوتية حاول الغرب أن يرد على الموت بالفلسفات الشمولية الكبرى التى نظم بها المجتمعات وأشبع الحاجات المادية والنفسية وحقق الرخاء الظاهرى . لكن الموت كان بالمرصاد فى شكل القلق البشرى والتململ الجماعى ووساوس وهواجس البحث عن اليقين الكلى والشوق إلى معنى يعلو على مجرد العيش الحياتى .

وإذا كان القرآن قد حل مشكلة مريم أو بالأصح معضلة الغرب المستحدثة من خلالها فإنه أيضًا قد حل لها أو أجاب على مشكلة أخرى كانت تواجهها . ونقصد مشكلة الجدية والرغبة فى أن يكون للحياة معنى وأهداف يحققها الإنسان . فاجأها والدها ذات مرة فى حديث

معها وهى الفتاة الداخلة إلى أعتاب الحياة بقوله : إنه لا توجد قيم مطلقة وأن ما يهم هو أن يعيش الإنسان حياته متمتعا بقرب الأهل والأصدقاء ورفاهة العيش فى المجتمع الغربى . وصدمها مجتمعها بتفاهته وانغماس أقرانها فى اللهو والرقص والاختلاط والتواعد بين الرجال والنساء وانشغال الفتيات بالتبرج والعرى . لم تجد الهدف الأسمى الذى يؤدى الإنسان واجبه نحوه ويحاسب نفسه على أساسه وينتظر الجزاء على معياره . وهنا جاء الإسلام مرة أخرى ليعين ويستجيب لأعمق الرغبات معطياً الهدف والمعنى والجدية ومنقذاً من تفاهة وصغر الحياة الأمريكية .

وبعد أن نندمج فى متابعة خيوط رحلة الإيمان تتركنا مريم جميلة فجأة . ولا ندرى هل هو الحياء من الدخول فى التفاصيل الشخصية أم الرغبة فى ترك المجال لصلب كتابها المتحدث عن أهل الكتاب والإسلام . ولعلها اكتفت بهذه الإشارات التى جمعت فيها قصتها مع الإسلام : حلاوة القرآن واليقين الذى ولده الإسلام فى صدرها بإجابته عن المشاكل والمعضلات الوجودية التى لم تجد لها حلاً فى دينها وحضارتها . وهى لا تحدثنا عن حالها بعد الدخول فى الإسلام وهجرتها إلى الباكستان مع زوجها وإنما تنسحب فى هدوء رافعة الستار عن بحثها الفكرى فى عقائد أهل الكتاب ومواقفهم من الإسلام بادئة باليهودية دينها الذى لم تجد فيه المعنى والهدف والرد الشافى على ما حيرها . لكننا

نخطئ إذا طمعنا منها فى أكثر من القرآن وحل مشاكل الوجود الإنسانى كبواعث للإيمان بالإسلام . نخطئ إذا رغبنا منها فى دوافع جزئية مفصلة لأننا كما قلت فى المقدمة يجب أن نثق فى معجزة القرآن صوتاً مجوداً يأسر النفس ويلفتها إلى الله ومعنى متعالياً يخاطب قضية الإنسان نفسه قبل أن يتوجه إلى جزئيات الحياة وما يندرج تحت الوجود البشرى من نظم وشرائع وسياسة واقتصاد وعلاقات ومعاملات . فإذا وصل القرآن إلى أعماق النفس وأحدث رجع الإيمان والموافقة والتسليم وشغل اللب والجنان بخطاب الرحمن وإذا حل معضلة الوجود والمعنى والمصير فأراح فقد انفتح الباب أمام الإيمان ويدخل بعدها المسلم إلى جنة دينه ليقطف ثمار الشرع والعبادات ويستظل بما أقامه دينه من أنظمة وقواعد وقيم وما أرساه من مفاهيم وأفكار متذوقاً حلاوتها بعد أن ذاق حلاوة اليقين متخذاً من حكمتها وملاءمتها وتفوقها على ما وضع البشر أداة لتوكيد الإيمان وترسيخ اليقين والإسلام . فالدين كل لا يتجزأ يكمل بعضه بعضاً ويسانده ويعضده .

نحترم إذن صمت الكاتبة ولا نتطفل عليها ونتركها حيث اختارت أن تسكت معتبرين بما وجدناه فى رحلتها إلى الإيمان من عبرة هى التحدى والدعوة بالقرآن والبدء بموقف الإسلام من قضايا الحياة الكبرى الناجمة عن أساسيات الوجود البشرى فى هذا العالم . ونفتح معاً خيوط هديتها الفكرية ناظرين فيما جلبته لنا .

الإسلام فى مواجهة اليهودية والصهيونية

تبدأ مريم جميلة بحثها فى اليهودية ببديهية وسؤال . تقول إن خطر الصهيونية ماثل اليوم فى كل ذهن مسلم لا سيما بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ولكن كم من المسلمين بل ومن علمائهم يعرف اليهودية ويعلم ما بينها وبين الصهيونية من علاقة فضلاً عن إدراكه لطبيعة الصهيونية كحركة داخل اليهودية نادت بالتحديث متأثرة بمبادئ القومية والعلمانية فى أوروبا بالقرن التاسع عشر. تدعونا الكاتبة إذن إلى العلم بالأعداء وتدخل إلى ذلك من باب استعراض العلاقات التاريخية بين اليهود والمسلمين .

والحاضر القريب يمهل للعودة إلى الماضى. إذ تصل إلى الكاتبة رسالة من عمتها فى نيويورك ترفق بها قصاصة تتضمن خبراً نشر فى جريدة نيويورك بوست فى السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٦٧ . ويقص الخبر أن مسلماً اشترك فى مؤتمر للمعبد اليهودى المتحد بأمريكا وصعد إلى منصة الحفل بجانب حاخام وخاطب الجمع اليهودى بقوله: إنه لا داعى للعزلة بين المسلمين واليهود بعد الآن فعندما يلتقي الطرفان يشعرون أنهم بشر. وهناك قدر مشترك من التفاهم لقضايا كل من

الجانبين وقيمها الدينية وآمالها بالإضافة إلى الفوارق بينهما . وأعرب المتحدث عن رأيه بأن اتهام المسلمين بالعداء لليهود اتهام خاطئ . وورد الحاخام بكلمة مشابهة دعا فيها إلى الوفاق بين العرب واليهود . والمسلم المذكور هو شخص يدعى محمد عبدالرؤوف ظل فترة طويلة مديراً للمركز الإسلامى بنيويورك ثم بواشنطن بعدها . وبقدر ما كان شعور عمة مريم جميلة بالفرح والأمل من هذا الخبر فإن مريم نفسها شعرت بالصدمة والإحساس بالخيانة . وهى تتساءل كيف يحدث هذا والدماء التى سالت فى عدوان ١٩٦٧ لم تجف بعد ولم تزل آثار النابالم من أجساد الضحايا وبيت المقدس أسير والأراضى الشاسعة محتلة ؟ .

وبعد أكثر من خمسة عشر عاماً على هذا الإحساس بالصدمة نتساءل بدورنا : ماذا كان شعور الكاتبة عندما علمت برحلة السادات إلى القدس وما تبعها من معاهدات وتنازلات وخيانات ؟ بل ماذا سيكون شعورها عندما تعلم أن عبدالرؤوف المعين من حكومة مصر للمركز الإسلامى بأمريكا قد بارك رحلة السادات كما دعا إلى المودة مع أعداء الدين بعد أشهر قليلة من عدوانهم الوحشى وأنه هو نفسه الذى شارك أحباء السادات من اليهود والنصارى فى الصلاة على روحه داخل كنيسة بعد إعدامه ؟ حقاً لقد تغيرت المقاييس فى عشر سنوات ولكنها مؤامرة مستمرة كما تقول مريم جميلة فى كتابها .

ويدفع موقف المدعو عبدالرؤوف محب اليهود بالكاتبة إلى

استعراض لجوانب من العلاقات التاريخية بين المسلمين واليهود لترى ما إذا كان يمكن حقاً للوفاق أن يقع بين الطرفين لاسيما فى ظل أوامر الإسلام ومفاهيمه .

تقول مريم جميلة أن الله فضل بنى اسرائيل أو اليهود الأول على كثير من الأمم الموجودة فى عهدهم لأنهم التزموا بالتوحيد .وقد أنعم عليهم بإرسال التوراة ومزامير داود والجم الغفير من الأنبياء . لكن الخصلة التى أردتهم كانت الكبرياء العنصرى والتعصب القومى التى تجلت فى تحريف كتبهم المقدسة وقتل أنبيائهم اتباعاً لهواهم كما اتضحت فى رفضهم التصديق بالرسول عليه الصلاة والسلام لأنه عربى أمى . ولهذا لعنوا وتوعدهم الله بالعذاب وأنبأ عنهم فى القرآن أنهم أشد الناس عداوة للمسلمين مع المشركين . ولأن المسلمين قد خالفوا أمر الله فى عدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء فقد أنزل الله بهم العقاب تلو الآخر إلى العصر الحديث فهذا الأمر بالغ الأهمية على ضوء العداء العنصرى اليهودى للإسلام والمسلمين .

وتمر بنا المؤلفة على لمحات من هذا العداء . رفض الإسلام مع تيقن أحبارهم من صدق الدعوة المحمدية . نقض العهود مع الرسول عليه الصلاة والسلام . تشبيب الشعراء اليهود بالنساء والمسلمات فى صدر الإسلام وتفضيلهم لوثنية العرب على دين الإسلام إقدام يهودية خيبر على دس السم فى الشاه التى قدمت للنبى . طرد عمر بن الخطاب لليهود

بأكملهم من شبه الجزيرة العربية إلى سوريا بعد تبين وتكرر خيانتهم . نفاق عبدالله بن سبأ ودوره فى إشعال الفتنة الكبرى التى سقط فيها عثمان بن عفان رضى الله عنه ثم استعر أوارها حتى خسر الإسلام فيها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وتقف مريم جميلة عند نواح من التآمر لا تسلط عليها الأضواء عادة . فتقول أن العديد من الباحثين يرجعون الحركات المنحرفة فى الإسلام كالمعتزلة مثلاً الذين انغمسوا فى مجادلات عقيمة إلى تأثير أعداد من اليهود المتبحرين فى العلم ممن تظاهروا باعتناق الإسلام ليخربوا الإيمان بواسطة البدع والزندقة. وهى تعود إلى مؤرخ باكستانى لتقتبس منه طرفاً من تاريخ التآمر اليهودى على الإسلام . وتكر الحوادث التى قلما سمعنا عنها فى ظروف الإظلام المحيطة بالأمة . ففى عام ٧٢٠ ميلادية نظم يهودى سورى يدعى سيرين حملة للاستيلاء على القدس لكنه هزم . وبعد ذلك بثلاثين سنة قام عباديا أبو عيسى ابن إسحاق بتمرد يهودى فى أصفهان انتهى بالفشل وقد عضد اليهود المغول ضد المسلمين إبان غزوة هؤلاء للعالم الإسلامى لكنهم لقوا جزاء سنمار عندما استأصل المغول الطائفة اليهودية فى دمار بغداد عام ١٢٥٨ . وإذا انتقلنا إلى المغرب الإسلامى فسنجد التسامح من جانب المسلمين يقابل بالتنكر والجحود . وتبرز مثلاً حادثة صمويل ابن كاتب الشكاوى اليهودى فى الأندلس الذى رفعته العدالة الإسلامية إلى

منصب الأمير وكبير الوزراء فى دولة إسلامية فى عام ١٠٥٥ . وقابل ذلك بالاستهزاء بالقرآن والطعن فى عقائده .

وتستمر قصة التآمر مع الدولة العثمانية رغم أنها هى التى استقبلت الكثيرين من اليهود المضطهدين فى أوروبا . وكان من بين هؤلاء مهاجر أسبانى يدعى شباطاى ادعى فى عام ١٦٤٨ أنه المسيح المنتظر عند اليهود . وقد انتشر صيته فى أنحاء أوروبا واحتفل به أتباعه كنبى عند وصوله إلى مدينة أزمير عام ١٦٦٥ . وعند التحقيق فى أمره أنكر ادعاءه واعتنق الإسلام . وعندئذ تحول أتباعه بولائهم إلى شقيقه يعقوب باعتباره المسيح المنتظر بل والمجسد للإله فى شخصه . ولكنه سار على نهج أخيه فعندما استجوب فى دعواه تنكر لما قاله وأسلم . وألف مع أتباعه مذهباً جديداً مزيجاً من اليهودية والإسلام أطلق عليه اسم الدونمة يزور أتباعه المساجد والمعابد اليهودية . وقد تحالف هذا المذهب اليهودى مع البنائين الأحرار أو الماسونيين ليسيطرا معاً على حركة تركيا الفتاة التى أسقطت السلطان عبدالحميد الثانى عام ١٩٠٨ مما أدى إلى بدء سلسلة الأحداث التى انتهت بإلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ على يد كمال أتاتورك الذى أعجب به السادات صديق اليهود .

وتصل الكاتبة فى سلسلة المواجهات إلى أكبر مؤامرة يهودية فى العصر الحديث ضد المسلمين وهى قيام الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل . ومن ملاحظاتها الذكية أن الحركة الصهيونية يمكن اعتبارها

صلحاً بين اليهودية والمسيحية الغربية على حساب المسلمين فى قلب بلادهم . فتاريخ أوروبا مع اليهودية ملئ بالاضطهاد وعزلهم داخل الجيتو أو الحى اليهودى المغلق داخل المدن هناك حيث تسود ظروف صحية واجتماعية سيئة . وحرم اليهود من تملك الأراضى ووسائل إكتساب الرزق باستثناء التجارة على نطاق محدودوالتعامل بالربا . وعلى الرغم من انفتاح اليهود على المجتمعات الغربية واندماجهم فيها فى فترات التاريخ الحديث نتيجة للمناخ السائد من ضعف التمسك بالدين وعلو نجم الحركات القومية . إلا أن استمرار الاضطهاد فى بلدان شرق أوروبا وروسيا خلال السنوات الأخيرة من القرن الماضى بالإضافة إلى فضيحة دريفوس المشهورة فى فرنسا خلال تلك الفترة والتى تحيز فيها القضاء ضد ضابط يهودى اتهم بالخيانة قد دفع باليهود مرة أخرى إلى تبنى شعار الحركة الصهيونية المطالب بدولة يهودية فى فلسطين .

وهنا دخلت القوى الغربية وبالذات الاتجاهات الاستعمارية فى حلف مع الحركة الصهيونية وبدأت سلسلة الأحداث المعروفة من وعد بلفور عام ١٩١٧ الذى كان نقطة التحول فى العلاقات اليهودية المسيحية إلى دخول الحكومة الأمريكية برئاسة ترومان عقب الحرب العالمية الثانية فى جانب الصهاينة كأبرز مؤيد ومعين . وتوجت هذه التحالفات بعدوان ١٩٥٦ ثم عدوان ١٩٦٧ وبوثيقة الفاتيكان المشهورة الصادرة فى أواخر عام ١٩٦٤ والتى أعلن فيها البابا بولس

نقض أهم أسس المذهب المسيحى بالإعراب عن تبرئة اليهود من أى مسئولية فى الأحداث التى أدت إلى صلب المسيح المزعوم .

وترجع المؤلفة إلى كاتب باكستانى درس التآمر اليهودى على الإسلام وتقتبس منه رأيه بأن اليهود تحالفوا دائماً مع أعداء المسلمين وأنهم كانوا المسئولين دوماً بصورة مباشرة أو غير مباشرة علنية أو خفية عن كل مصيبة حلت بالعالم الإسلامى . ويبدو أن اليهود فى إنتظار بابا إسلامى جديد يبرئهم من دماء المسلمين كما حاول السادات أن يفعل ولا تنسى مريم جميلة أن تتحلى بالموضوعية فى عرضها للعلاقات عبر التاريخ بين المسلمين واليهود . فالفرصة لا تقتصر على فعل إيجابى هو التآمر يقابله فعل سلبى من الغفلة والمعاناة عند المسلمين . فهى تذكر أن الصراع أو المواجهة ليست مع كل شئ تطلق عليه كلمة اليهودى . فهناك اليهود الأول الذين كانوا مسلمين حقاً قبل تحريف ديانتهم وضربوا المثل فى الشهادة فى وجه وثنية اليونان والرومان . وتعرض لنا تصدى بعض الحاخامات لوثنية الألعاب الأوليمبية اليونانية التى كانت تقام لتمجيد آلهتهم ويتبارى فيها الرياضيون وقد تجردوا تماماً من ملابسهم وكذلك مقاومتهم لوحشية الألعاب الرومانية حيث كانت تذبح الألوف من الحيوانات والمئات من البشر بعد تعذيب وتشويه أليم خلال هذه المصارعات المشهورة .

وكان خط التسامح الإسلامى يقابل دوماً خط التآمر اليهودى الذى

نجت منه قلة أسلموا فى الماضى مثل ابن سلام والمخيرق وكانا من أحبار المدينة أو فى الحاضر مثل كميل باشا الصدر الأعظم فى الدولة العثمانية خلال حكم السلطان عبدالحميد والكاتب النمساوى المعروف محمد أسد وكان اسمه قبل إسلامه ليوبولد فايس . وتأتى فى قمة التسامح والإنسانية الإسلامية دفاع الرسول صلى الله عليه وسلم عن السيدة صفية رضى الله عنها عندما عيرتها السيدة حفصة زوج الرسول وبنت عمر بن الخطاب بأصلها اليهودى . فقد هدأ النبى من روع السيدة صفية وطمأنها بأنها بنت نبى وعمها نبى وهى الآن زوجة نبى فلا فخر لحفصة عليها . وتقول الكاتبة انها لم تتعرض أبداً خلال جولاتها فى العالم الإسلامى وإقامتها مع زوجها فى باكستان إلى أى طعن أو تمييز بسبب كونها من أصل يهودى .

وفى ظل التسامح الإسلامى عاش اليهود داخل الحضارة الإسلامية أحراراً وانطلقت ملكاتهم الفكرية تبدع فى إطار عقائدهم . وتبرز كثمار لهذا التسامح تلك الكوكبة المشهورة من دارسى اليهود الذين لمعوا تحت الحكم الإسلامى وإن كان ردهم على ذلك انعدام الولاء للمجتمع الذى برزوا فيه . فهناك سعاديا بن يوسف جاعون الذى عاش فى العراق فى القرن التاسع الميلادى وفسر التوراة وقيل عنه أنه لولاه لضاعت إلى الأبد . وهناك المجموعة التى عاشت فى الأندلس المسلمة خلال القرن الحادى عشر وشملت الشاعر الفيلسوف سولومون إبن

جبريول وموسى بن عزرا الشاعر ومفسر الإنجيل ابراهام بن عزرا والناسك باهيا بن باكودا ثم أعظم شعراء اليهود فى الأندلس يهودا هاليفي . وحالة هذا الأخير مثيرة للاهتمام فعلاً . فعلى الرغم من الحرية الواسعة التى تمتع بها فى نشر أشعاره وكتاباته الدينية التى دارت حول تفوق اليهودية على كل من الإسلام والمسيحية إلا أنه لم يشعر بالامتنان أو الولاء للمجتمع الإسلامى أبداً ووصف نفسه فى شعره بأنه « يرسف فى أغلال عربية » . وكان دائم البكاء على مصير صهيون الضائعة وسافر للاستقرار بفلسطين . ومازالت أشعار هذه المجموعة من الكتاب تكون جزءاً أساسياً من كتب الصلاة اليهودية الأرثوذكسية ويرددها اليهود المتدينون فى المعابد كل يوم .

وأشهر شخصية يهودية نبغت تحت حضارة الإسلام هو موسى بن ميمون الذى ولد فى الأندلس ثم اضطر هو وعائلته إلى الهجرة إلى المغرب بعد سقوط هذه البلاد فى أيدى النصارى. ودرس ابن ميمون فى جامعة القرويين فى فاس وقد تظاهر بالإسلام لمدة تسع سنوات نتيجة وجوده فى وسط متدين ومتحمس من قبائل البربر . وبعد أن هاجر إلى مصر عاد إلى اليهودية مؤكدا أنه لم يعتنق الإسلام أصلا إلا مضطراً . وقد أقر القاضى القاهرى هذا الادعاء ورفض الحكم بأنه مرتد لأنه لم يسلم عن اختيار . وكتب ميمون كتابه الشهير دلالة الحائرين بالعربية دفاعاً عن الدين اليهودى وكان الطبيب الشخصى لصلاح الدين

الأيوبى . وتأثر فى كتاباته الطبية بأعمال ابن سينا والرازى وأكمل هذه الكتابات ابن أخته الذى دخل فى الإسلام . أما ابنه ويدعى ابراهام فقد تزعم الطائفة اليهودية فى القاهرة وحاول أن يجعل الشعائر اليهودية أقرب إلى العبادات الإسلامية فأدخل السجود على الصلاة فى معبده بدلاً من الجلوس على أرائك وأصر على أن تؤدى الصلوات اليهودية بنوع من الدقة والنظام اللذين تتسم بهما الصلاة فى الإسلام .

ويعقب باحث يهودى على ظواهر النبوغ اليهودى فى وسط الحضارة الإسلامية فيحاول كما توضح مريم جميلة أن ينفى آثار التسامح الإسلامى بل يرجع السبب إلى أن الإسلام ليس بغريب على اليهودية فهو نسخة موسعة منها مثلما العربية مشتقة من العبرية ! ولذلك فلم يشعر اليهود بغربة وسط هذه الحضارة مثلما شعروا فى وسط الحضارة الغربية مثلاً . وترى الكاتبة أن هذا الباحث اليهودى نفسه واسمه سولومون دافيد جويتين من كلية الدراسات الشرقية التابعة للجامعة العبرية بالقدس يعتبر دليلاً على كراهية اليهود للإسلام. وهى تنقل عنه آراء خطيرة كتبها عام ١٩٥٥ فى كتاب عنوانه «اليهود والعرب صلاتهم عبر العصور» .

وفى الحقيقة تكشف آراء الكاتب اليهودى عن مجريات الأحداث فى مصر بالذات . فهو يقول : «ومن الخطورة بمكان ذلك الهدف المعلن للإخوان المسلمين التى تفاخر بولاء أغلبية الشعب المصرى لها وهو

إعادة الإسلام ليكون قانوناً للدولة فإذا كتب للإخوان المسلمين ومن يشابهونهم فى البلدان الأخرى أن ينجحوا فى مسعاهم فإن ذلك سيعنى أن مصر وتلك البلدان ستنتكس إلى حالة دول العصور الوسطى ويعود المسيحيون واليهود المحليون إلى وضع مواطنين من الدرجة الثانية . وقد أدرك قادة الثورة العسكرية هذا الأمر جيداً وحاربوا الإخوان » .

ويمضى بعد ذلك إلى التحذير من تطبيق الشريعة . وربما نفهم هذا الكلام جيداً الآن بعد مضى حوالى ثلاثين سنة لنجد نفس المنطق الذى تحارب به الشريعة الآن مطروحاً منذ فترة . ونفهم أيضاً لماذا ضربت الإخوان ولماذا تضرب الحركات الإسلامية حتى وقتنا هذا . فالجريمة ليست جريمة تطرف أو إرهاب أو محاولة لاغتيال عبدالناصر أو اغتيال فعلى للسادات . إنما هو إجهاض مسبق ومحرض عليه من الخارج بل ومن أعداء البلاد . وربما يكون من المسلى أن نرى أحد الكتاب الإسرائيليين يمتدح قادة الثورة المباركة لأنهم ضربوا الإخوان وعلينا أن نسترجع فى هذا السياق اتصالات عبدالناصر مع اليهود فى أوائل وأواخر عهده ثم مع الأمريكان وهى اتصالات أكملها السادات وسار بها إلى النهاية المنطقية والمتوقعة والمتسقة مع ما بشر به الكاتب الإسرائيلى : ضرب للإسلام يتوافق مع صلح مع الصهاينة .

وكما بدأت مريم جميلة من الحاضر بخيانة مصرى يخطب ود الأعداء بعد أشهر من تدمير جيش بلاده على أيديهم تختم مسحها

لمواجهات اليهود ضد الإسلام بالعودة إلى الحاضر لتدين خيانة فئة بأكملها وتكشف عن تواطؤ بين من ضربوا الإسلام وبين من حرضوا عليه حتى ولو غطت الدعايات الرنانة على هذا الموقف . وما بين الخيانتين يتضح تاريخ مؤلم مازال بحاجة إلى درس وبحث إذ لا تكفي تلك اللمحات العابرة التى أوردتها الكاتبة عن طريق دارسين هنا وهناك . علينا أن نعيد النظر فى العهود الحديثة من منظور هذا التآمر اليهودى الصهيونى . وينبغى أن ننظر فى خلفيات الأحداث ونعيد تفسيرها من خلال الإسلام وهجمات المتكالبين عليه . إن تاريخنا الحديث كتبه متغربون على اختلاف مواقعهم من يسار ويمين حسب المفاهيم الأوروبية لهذه المصطلحات . وقد فسروا هذا التاريخ وكيفوا وقائعه وصوروه حسب رؤيتهم ولخدمة أغراضهم . فدعاة التغريب والعلمنة هم الأبطال المجددون التقدميون العاملون على النهضة ونشر الاستنارة وبث العلم . أما دعاة الإسلام فهم الرجعيون أعداء المسيرة المعرقلون مجئ الظلام ومثيرى الثورات المضادة وهم الشياطين الموصومون بكل الألفاظ التى أصبحت ألفاظ سب وشتم عند العلمانيين بعد أن فقدت كل معنى ومضمون لها حتى داخل فلسفاتهم ونعنى بها ألفاظ الجمود والتخلف والتزمت والتعصب والتطرف ومعاداة العقل إلى آخره .

إن التاريخ الحديث للبلاد الإسلامية وبالذات العربية ومصر على

وجه الخصوص تاريخ مصنوع ليس فقط فيمـا يتعلق بالتفسير والتصور وإنما حتى فى ذكر الأحداث وإبراز بعضها أو إخفاء البعض الآخر . والمهمة المطروحة على كل مسلم مؤمن يسعى للجهاد فى سبيل دينه هى أن ينقد هذا التاريخ ويمحصه ويكشف الأيديولوجيات المتسترة خلفه والمتظاهرة بالموضوعية والمتخفية وراء باب من الدرس يظنه الناس قمة فى ذكر الحقائق واستجلائها . ولا بد من تأريخ صادق وإسلامى يواجه التأريخ العلمانى المتغرب الذى فرض علينا كحق لا يأتيه الباطل وهو الباطل بعينه . ويكفي مريم جميلة أن عملت فى حدود جهدها المتواضع على ذكر لمحات تلفت بها الأنظار ويبقي دور المتخصصين المتمكنين كما يبقى أيضاً دور شباب الإسلام المتحمس والمثقف .

عقائد وكتب اليهودية

على الرغم من كثرة ما قيل عن عداء اليهود للإسلام والمسلمين إلا أن الكثير من عقائد ومفاهيم اليهود مازال خافياً علينا أو على الغالبية منا . وفى فترة تلت حرب يونيو عام ١٩٦٧ راجت الكتابة فى الديانة اليهودية بغرض التعرف على الأعداء الذين هزمونا . وكان لهذه الكتابات طرائق شتى . فمنها من أغرق فى البحث والتعمق إلى حد ينفر القارئ العادى ويجهد المتابع فلا يخرج منها بشئ . ومنها ما صيغ بلغة صحفية خفيفة متلونة تركز على الطريف وتقف عند النادر والغريب بحيث ضاع الهدف وهو التعريف بمعتقدات اليهود . وراح البعض يكتب عن نواح معينة فى اليهودية بقصد إبراز السئ الخطير بينما إهتم البعض بنواح أخرى تظهر الطيب المقبول المؤدى إلى التقارب مع اليهود ودولتهم على المدى الطويل وهو ما تحقق فى عهد السادات . وفى الغالب الأعم كان الكتاب وهم أصحاب أهواء سياسية معروفة يمرون على اليهودية بدون تعليق مستقرين على الصهيونية . فالأولى عندهم عقيدة دينية لا شأن لهم بها أما الثانية فهى مذهب دنيوى هو أصل البلاء والخطر لارتباطه بقيام اسرائيل وعدوانيتها وعلاقتها بالغرب . وتغلب هذا الإتجاه وساد الكتابة عن اليهود لما فيه من مضامين خبيثة توحى بتبرئة اليهود وإدانة قطاع منهم أو فئة أو حزب هو الصهاينة وذلك مذهب أعجب حكام العهد لأنه يوفر عليهم معاداة اليهود كلهم

ولأنه وهو الأهم يعجب أسيادهم فى الشرق والغرب الذين أفهموهم أن الدولة اليهودية واقع لا مناص من قبوله وأن عليهم تحضير شعوبهم لذلك بالفصل بين الدولة اليهودية التى لا غبار عليها وبين قطاع من سكانها هم الصهاينة الذين يمارسون العدوان .

وعندما تكتب مريم جميلة عن اليهودية مبتدئة بالعقائد والكتب المقدمة عندهم يلاحظ المرء أنها تجمع فى كتابتها بين المذاهب سالفة الذكر . فهى تتعمق دون أن تتحذلق وتذكر الطريف الغريب دون الهبوط إلى مستوى التفاهة والثرثرة الصحفية وتتحلى بالموضوعية فلا تضرب صفحًا عما هو أصيل وأقره الإسلام فى اليهودية كالتوحيد مثلاً وهو ما نجا من التحريف إلى حد ما كما لا تسكتْ عن الإنحرافات والضلالات ومقياسها فى ما تقبل أو ترفض هو الإسلام .

أسُّ العقيدة اليهودية هو الشما أو السماع وهى عبارة تشبه الشهادة فى الإسلام : اسمعى يا إسرائيل إن الرب إلهنا إله واحد . ولهذه العبارة تكملة مطولة تحث على حب الإله بكل الإخلاص والعزم وحفظ عبارة الشما وتلقينها للأبناء وتكرارها فى الحل والترحال والرقود والقيام . وأس الأخلاق فى اليهودية هى الوصايا العشر المشهورة والمذكورة فى سفر الخروج وهى : لاتتخذ آلهة غيرى ، لا تدنس اسم الرب ، حافظ على يوم السبت وقدسه ، كرم أباك وأمك لتعيش طويلاً فى الأرض التى يعطيك إياها الرب ، لاتقتل ، لاتزنِ ، لاتسرق ، لاتشهد على

جارك ، لاتشته بيت جارك ولا زوجته ولا خدمه ولا ثوره ولا حماره أو أى شئ يملكه . أما الوصية الأولى فتقول : أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . ويزيد البعض وصية أخرى هى : أحب جارك كما تحب نفسك .

وقد لخص الفيلسوف موسى بن ميمون عقائد اليهودية فى ثلاثة عشر مبدأ يرددها اليهودى المؤمن فى المعبد كل يوم وفيها الإيمان بالخالق صانع كل شئ ووحدانيته المتفردة المنزهة عن التجسد أو التغير أو الشبه . وأن هذا الإله هو الأول والآخر الجدير بالصلاة إليه وحده . وتحث هذه العقائد الثلاث عشرة على التصديق بكلام الأنبياء ونبوءة موسى وعلو قدره على من سبقه أو أتى بعده من الأنبياء وبصحة التوراة الموجودة لديهم وأنها هى التى أتى بها موسى بدون تغيير . وتتضمن العقائد كذلك الإيمان باطلاع الإله على أفعال وأفكار البشر وأنه يكافأ من يحفظ وصاياه ويعاقب من يخرقها وأنه يبعث الموتى . وأهم هذه العقائد الإيمان بقدوم المسيح وانتظاره .

تشير الكاتبة إلى الوحدانية فى اليهودية القريبة من مفهوم الإسلام لكنها تبين أن هذه الوحدانية قد أفسدتها منذ البداية وفى عقيدة السماع نفسها نغمات القومية والعنصرية المنغلقة على قوم أو أمة أو بنى إسرائيل وحدهم . فالرب عندهم هو ربهم وحدهم وهو لا يهتم إلا باليهود شعبه المختار . بل ان ميثاق هذا الرب لم ينعقد إلا معهم . ولا ينشر اليهود

دياناتهم بين الآخرين كما لا يرحبون بالداخلين فيها . وعلى مر تاريخهم الطويل لم تدخل أمم فى اليهودية إلا مرتين إحداهما فى اليمن قبل بعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم بقرون والأخرى عندما اعتنقت قبائل الخزر اليهودية فى القرن الثامن الميلادى هرباً من اضطهاد النصارى . وهذه القبائل عاشت فى جنوب روسيا وهى من أصل تترى وشكلت مملكة صغيرة سرعان ما انهارت . وتقول مريم جميلة أن اسم الديانة نفسه مشتق من احد أسباط بنى اسرائيل الإثنى عشر وهو سبط يهوذا فكأنها ديانة مغرقة فى الطابع القومى حتى من اسمها .

ويتجلى الطابع القومى العنصرى فى رفض المجتمع اليهودى للأفراد الداخلين فى اليهودية والتشكك فى دوافعهم . وتقص مريم جميلة أمثلة من معارفها فى نيويورك فتحدثنا عن الفتاة الألمانية التى تزوجت من يهودى واعتنقت دينه ومع ذلك ظلت أسرته تقاطعها وعن المسيحية الأمريكية التى دخلت اليهودية عند زواجها من شاب يهودى لتفاجئ بأن من سلطة الحاخام عدم قبول هذا الاعتناق للدين . وهى تقارن ذلك السلوك مع ترحيب المسلمين بها رغم معرفتهم بأصلها اليهودى . وتظهر العنصرية أيضاً فى المفهوم القائل بأن أى شخص ولد لأبوين يهوديين هو يهودى على الدوام وإلى النهاية حتى لو ألحد ونبذ عقائد وشعائر الديانة . ولهذا يحب اليهود فرويد وماركس ويعتبرونهما من قومهم .

وتذكر مريم أنها استمعت إلى حاخام فى نيويورك يقول عقب إقامة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ان الولاء للشعب اليهودى أهم بكثير فى اليهودية من الإيمان بالإله . وكان ذلك إجابة على سؤال وجهه له زعيم صهيونى خلال مقابلة إذاعية حول أيهما أكثر أهمية الإيمان بالتوراة والالتزام بشريعتها أم الولاء للشعب اليهودى . وهى تعلق على هذا التصور من حاخام بارز بأنه يعكس مدى ضيق النظرة والانغلاق المميت الذى أدى إليه الطابع القوى العنصرى لليهودية . وهذه النظرة تزرى بمفهومهم عن وحدانية الإله وتلغى دوره كخالق وحاكم للكون والبشر .

وهى تنتقل بنا بعد ذلك إلى نقطة مألوفة من عقائدهم تتعلق بموقفهم من الأنبياء . ونفاجئ بأن آدم ونوحًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان وأيوب (عليهم السلام) ليسوا من الأنبياء عندهم . بينما يوقرون ومعهم النصارى شخصيات غير مذكورة فى القرآن على أنهم من الأنبياء ذوى القدر كأشعيا وعاموس وجيرميا وحوزيا وناتان ودانيال . ويبرز فى هذا المجال كراهيتهم لإسماعيل ووصفه برجل الصحراء المتوحش الذى يحارب الكل ويحاربه الكل . وهو ابن الأمة هاجر المنبوذ والمحروم من ميراث أبيه وهو ليس الذبيح بل إسحاق هو الذى حاز هذا الفخر على الرغم من أن التوراة تنص على أن ابن إبراهيم الوحيد (أى إسماعيل المولود قبل إسحاق) هو الذى

فدى بالكبش . ومن هنا تنبع عداوة اليهود التى لا تلين للعرب وهى عداوة ينقلها بولس فى الإنجيل بإدانته لإسماعيل كابن للجارية . وتقارن مريم بين هذا الموقف وتكريم القرآن لإسماعيل عليه السلام كنبى شارك أباه فى بناء الكعبة .

ويتخذ موقف اليهود من الأنبياء شكل التشويه كما اتخذ شكل الاضطهاد مع يوحنا مثلاً . فنجد عندهم أن نوحًا (وهو ليس معدودًا من الأنبياء) قد ثمل بالخمر ذات يوم واستلقى فى خيمته عارياً فدخل عليه ابنه حام . وعندما شاهد الابن عرى ابيه حلت عليه لعنة الله وتحول جلده إلى السواد وحكم على ذريته بالعبودية . ونقرأ فى سفر الملوك فى التوراة أن داود أعجب بامرأة جميلة شاهدها تستحم فقتل زوجها كى يستحوذ عليها . وكانت ثمرة هذا اللقاء سليمان الذى أولع بالنسوة الوثنيات وانتهى به المآل إلى عبادة الأصنام .

ومع الحديث عن عقائد اليهود ومواقفهم يتطرق الذكر إلى كتبهم التى يعتقدون فى قدسيتها . فهناك الكتب الخمسة أوالخوميش المتضمنة للشريعة الموسوية وبجانبها توجد التعاليم التى يعتقدون أن النبى موسى تلقاها شفاهة من الرب على جبل موسى . وكلا التشريعين المكتوب والشفهى يكملان بعضهما . وكان الكهنة والأحبار يتولون حفظ هذه النصوص ولكن بعد تدمير الهيكل للمرة الثانية عام ٧ بعد الميلاد على يد الرومان وتشتت اليهود من فلسطين رأى الأحبار كتابة التعاليم

الشفهية فدونوها مقننة فى كتاب عرف باسم المشناه الذى شرح بتفصيل وإسهاب فى كتاب آخرهوالجماراه . والكتابان معاً هما ما يطلق عليه التلمود . وقد كتب الأصل المعتمد عندهم للتلمود فى العراق على يد الأحبار فى الفترة بين القرنين الثالث والخامس الميلادى . وبجانب التلمود نشأ تفسير دارج للتوراة أسمى بالمدراشى . وكانت القدسية فى أول الأمر مقتصرة على الكتب الخمسة أو الخوميش ثم أسبغت على التلمود باعتبار أنه كتب بوحى إلهى .

وكتبهم موضوعة بالعبرية ويحرصون أشد الحرص على تعليمها لأبنائهم رغم كبر حجمها فالتلمود وحده يقع فى أربعين مجلداً . ودراسة التوراة (ومعها التلمود) أهم واجبات اليهودى . وتدل على ذلك أقوال حكمائهم : قال الحاخام أليعازر بن عزاريا : إنه حيثما لا توجد التوراة لا يوجد سلوك طيب ، وحيث ينعدم الخلق تنعدم التوراة . ويقول الحاخام شمعون : إنه إذا جلس ثلاثة إلى المائدة ولم يتحدثوا عن التوراة فكأنهم يأكلون من قرابين الأوثان النجسة فبدون حضور الإله يتنجس المطعم . أما إذا أكلوا على المائدة وتحدثوا فى التوراة فكأنهم أكلوا من مائدة الإله . ويقول الحاخام إليعازر أنه يجب الإشتياق لدراسة التوراة لمعرفة الرد على غير المؤمنين. وربما نعى على ضوء هذه الأقوال هجر القرآن وتحويل الأنظار عنه كمجرد كلام مكرر لا طائل من ورائه . وربما تدفعنا غيرة غيرنا على ما ألفوه إلى أن نغار على كلام الله الحق الموجود بحفظه بين

أيدينا نصراً صحيحاً جاهد فيه خير أبناء هذه الأمة .

ومع غيرة اليهود على كتبهم المؤلفة يتهجمون على الإسلام ويقولون انه ليس إلا نسخة محرفة من اليهودية ممتزجة بأفكار الوثنية العربية وتعاليم بعض الفئات المسيحية المنشقة. وتقول مريم جميلة: إن هذا التصور يعرض على الطلبة فى جامعات أمريكا على يد يهود يؤلفون المناهج المتعلقة بالإسلام هناك. وكل ما يدلل به اليهود على دعواهم أن القرآن والسنة يحتويان على أفكار أو قصص أو تصورات وردت فى اليهودية . وتتعجب كاتبتنا من هذا التدليل وتقول: أنه لا يشير إلى أن الإسلام وهو اللاحق قد إستعار من اليهودية السابقة عليه بل إن كليهما فى الأصل وحى إلهى. ولأن اليهودية حرفت فقد أرسل الله الإسلام الحق وحفظه من التحريف . واليهود أنفسهم يعترفون من خلال جدل الأحبار الدارسين بعدم التأكد من تواريخ أسفار التوراة وشخصية كاتبها بل وصحتها هى نفسها . ولا يعتبر معظم اليهود المعاصرين التوراة على أنها وحى إلهى . وهى تدرس فى مدارس إسرائيل الحكومية على أنها نص تاريخى أدبى . وتتساءل مريم جميلة عن المصدر الذى نقل الرسول التوراة عنه وتعلمها منه وأحبار المدينة الذين يشير اليهود إليهم قد حاربوه وقاطعوه كما أن التوراة نفسها لم تكن مترجمة إلى العربية .

والمعروف أن الكتب الخمسة الأولى لم توضع فى شكلها النهائى إلا بعد ثمانية قرون من وفاة موسى . وقد جمع الحكيم عزرا العديد من

الأحبار والكهان والكتبة أمثاله وفيهم المؤرخون والفقهاء ومعلمو الأخلاق العارفون بالكتابات اليهودية المقدسة والتراث والشعائر والطقوس الدينية . واجتمعوا كلهم على جمع وتحقيق كتب موسى الخمسة . ونتيجة لتباعد العهد عن مصدر الوعى (ثمانية قرون) ونتيجة أيضاً لقيام الكتبة بوضع النصوص حسب اعترافهم فقد كان لا بد من وقوع التحريف. ومما ينم عن الأصل البشرى لأسفار التوراة أن كاتبيها وضعوها وأشاروا إلى الإله فيها بضمير الغائب بدلاً من ضمير الحاضر كما نجد فى القرآن عندما يتحدث الله .

وتتضح عقائد اليهود ومفاهيمهم من خلال كتبهم هذه . ولعل غياب مفهوم محدد عن الآخرة والحساب الاخروى هو أبرز ما يلفت نظر الكاتبة ويشدنا معها لوجود هذه العقيدة فى مركز الصدارة بين عقائد الإسلام . وتستعرض مريم جميلة بعض صلوات اليهود الهامة والتوراة والتلمود فلا تجد إلا إشارات مبهمة عن يوم الحساب أو تصور الحياة الآخرة . وهى تشير على سبيل المثل إلى أن الأنبياء فى التوراة يتوعدون بنى إسرائيل بالعقاب الإلهى على خطاياهم فى صورة الهزائم وتدمير ممتلكاتهم واضطهادهم ونفيهم على يد أعدائهم . ولا يوجد أى ذكر لعقاب أخروى بعد حساب فى يوم القيامة أو للذهاب إلى الجحيم . وتتكرر فى كتبهم عبارة تقول : إن لكل إسرائيلى نصيب فى العالم الآخر . وهذا يعنى أن اليهودى سينجو فى الآخرة لمجرد كونه مولود فى

اليهودية بصرف النظر عما يعتقده أو يفعله .

وتهتم الكتب المقدسة اليهودية بالعودة إلى فلسطين اهتماماً يغطى على طرح تصور للآخرة . كما أن الصلاة الدائمة لليهودى هى عن رفاهية قومه فى هذه الدنيا . وفى صلاة المريض أو دعائه من أجل الشفاء تتردد كلمات كاشفة : يا إلهى انقذ حياتى فى الموت لا ذكر لك ومن يفكر فيك فى القبر. وتذكرنا مريم جميلة بوصف القرآن لحرص اليهود على الحياة ورغبتهم فيها وغفلتهم عن الآخرة مقارنين بالمسلمين الذى يطلبون فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويسألون الوقاية من عذاب النار .

ويتبلور هذا الاتجاه اليهودى فى خوف مرضى من الموت يتناقض مع تقبل المسلم كأمر الله وكقدر لا مفر منه . وينظر اليهود إلى الموت باعتباره أفظع الشرور التى يمكن أن تحيق بالإنسان . ويفلسف كاتب يهودى هذا الاتجاه فيقول إن اليهودى يعتبر الحياة أفضل نعم الإله للإنسان وهو يجعل التعلق بهذه المنحة أوجب واجباته . ويرى اليهود أن أسوأ حياه هى أفضل من أحسن موت . وهم يتجنبون ذكر كلمات الموت فى لغتهم اليومية . ويظهر هذا التعلق بالحياة فى بعض المظاهر التى كان اليهود فى الماضى يلجئون إليها لإنقاذ المريض المشرف على الموت بتغيير اسمه والتضرع أمام قبور أسلافه والبكاء والنواح أمام تابوت العهد فى المعبد حتى «يستصرخونه» من بين أيدى الموت .

وترى مريم جميلة فى غياب مفهوم الآخرة وخوف الموت والتعلق

الزائد والمرضى بالحياة حتى فى لحظات مرض الموت بتراً للبعد الروحى فى اليهودية ودلالة على التحريف عن الأصل الإلهى لها . ومع الدخول فى هذه العقائد التفصيلية تنتقل بنا إلى بحث فى شعائر وأخلاقيات هذه الديانة تواصل فيه المقارنة مع الإسلام ولا تخلو كتابتها فيه من عبر يستخلصها المسلم .

عبادات وأخلاق فى اليهودية

الصلاة فى الإسلام هى عماد الدين ومن أقامها فقد أقام الدين . فهل فى اليهودية صلاة وكيف تكون ؟ تذكر الكاتبة أن الصلاة معروفة عند اليهود وأنها كانت فى الماضى البعيد وإلى القرن الثانى الميلادى تشبه صلاة المسلمين من حيث اشتمالها على السجود وعلى الوضوء قبلها كما عرفوا الاغتسال بعد الجماع وقضاء الحاجة ليلاً والدورة الشهرية عند النساء . وذكرت التوراة أن النبى دانيال كان يولى وجهه شطر معبد القدس كلما صلى مما يعنى وجود فكره القبلة . وتوجد طائفة صغيرة منقرضة من اليهود هم السامريون يصلون ثلاث مرات فى اليوم بوضوء ويركعون ويسجدون ويضمنون أدعيتهم بعض العبارات الإسلامية مثل لا إله إلا الله لا شريك له ويبدءون كتبهم بالبسملة الإسلامية . غير أن هذه الطائفة مرفوضة من سائر اليهود لأنها ترفض التلمود وسائر كتب التوراة ما عدا شريعة موسى .

وتفسر مريم جميلة أسباب اسقاط هذه الأركان القديمة للصلاة اليهودية وتحولها إلى أدعية مطولة ترتل فى وضع الجلوس على المقاعدأو الأرائك إلى رغبتهم فى مخالفة المسلمين والتميز عنهم . وقد تغيرت الصلاة عندهم إلى ما يقرب من صلاة النصارى إلا أنه ما زال فيها ما يشبه الصلاة فى الإسلام من حيث الجماعة وتفضيلها على الانفراد وعدم ضرورة توجه النساء إلى المعابد لانشغالهن بالواجبات المنزلية والفصل بينهن

وبين الرجال فى المعابد الأرثوذكسية . وقد ألغيت الكهانة عند اليهود بعد تدمير الهيكل وترك أمر عودتها إلى الرب . والحاخام أقرب إلى عالم الدين المسلم منه إلى الكاهن المسيحى من حيث أنه متفقه فى الدراسات الدينية . ويمكن الصلاة فى حالة غياب الحاخام طالما وجد ذكر بالغ يمكنه قيادة الصلوات . وأقل نصاب تصح به الجماعة عند الصلاة هو أحد عشر شخصًا . وتذكر الكاتبة أن أحد أقربائها كان يصلى هو وسبعة من أصدقائه على روح والده خلال إقامته لمعسكر صيفي فلما عاد مْن الإجازة وأخبر الحاخام بما فعل متوقعًا الثناء فوجئ بأن صلاته فى أقل من العدد المفروض لا تجوز لاسيما وأنه لم يكن قد وصل إلى سن البلوغ بعد . وكان من جراء ذلك أن هجر المعبد إلى الأبد . ولا توجد موسيقي بالمعابد الأرثوذكسية إذ منعت بعد تدمير الهيكل .

وتقتبس مريم جميلة فقرات مطولة من الصلوات اليهودية المتكرره وتتوقف عند هذه الفقرات التى يلحون عليها : ائت بنا إلى صهيون إلى القدس حماك بالسرور الخالد. ارْضَ ياإلهنا عن شعبك إسرائيل وعن صلواتهم وأعد العباده إلى أقدس حمى لك وتقبل قرابين إسرائيل وصلاتها بالحب والكرم . فلتنظر أعيننا عودتك بالرحمة إلى صهيون . مبارك أنت يا الهنا يا من تعيد حضورك الإلهى فى صهيون . يا الهنا واله آبائنا استجب لتوسلنا وأعد بناء هيكلك كما كان فى السابق وأقم حماك على موقعه . وامنحنا أن نراه وقد أعيد تشييده وقد أبهجتنا عودته .

أعد الكهنة إلى خدماتهم والأحبار إلى أغانيهم وموسيقاهم وبنو إسرائيل إلى وطنهم .

هذا هو جوهر الصلاة فى اليهودية . وربما نسميها صلاة سياسية أو صلاة ذات هدف . لكنها أيا نسميها صلاة موجهة ضد المسلمين . فهم يطلبون ثانى الحرمين ومسرى الرسول ونقطة معراجه . وهنا يتبلور الصراع بين صلاة اليهود وقرآن المسلمين وتتحدد خطوط المواجهة والولاء بين مقدسات مطلوبة ودفاع إسلامى عنها . إنه الصراع بين قدس الأقداس عندهم وقبة الصخرة ولا مجال هنا لحلول وسط إلا إذا تنازل أحد الطرفين وهو ماكاد يحدث أو حدث بالنسبة لطرف وصف ظلمًا بأنه يمثل المسلمين . الصلاة إذن هى عماد الدين عندهم أيضًا . ونحن فى الصلاة هنا أو هناك نجد أنفسنا فى قلب الدنيا حتى وإن خرجنا عنها . أما فى الإسلام فهى بؤرة تجمع قمة السمو الروحى مع قمة العمل الدنيوى فالصلاة يحميها درع الإسلام كلها ولا خطر عليها طالما وجد المجتمع الإسلامى والخطر كل الخطر عليها وتنحل عروتها إذا فقد هذا المجتمع وضاع المسجد وسقط الناس أسرى لحكم أو قيم أو تصورات غير المسلمين . إنها دعوة للجهاد من خلال صلاة اليهود . وهذه الصلاة تعرفنا أن صلاتهم تعنى ضياع القدس وسقوط الخلافة ونشر اللادينية وزوال حكم الإسلام ثم ضياع الصلاة بين المسلمين . إنها صلاة ضد الصلاة . صلاة التحريف القومى العنصرى ضد صلاة

الإنسانية المهتدية بنور الحق . هل عرفنا الآن لماذا كتب الجهاد؟ وهل عرفنا أن العلمانيين الذين يقولون لنا الدين صلاة فحسب يكذبون وينفضحون عند أدنى تحليل فكيف الصلاة والمساجد محتلة ومأسورة ؟ وكيف الصلاة والصلاة المضادة تدبر أمرًا ؟ وأين تقام الصلاة ومن يقيمها والتعليم الدينى ممنوع ؟ ومن يصليها والدعوة الدينية مطاردة فى نظام اللادينيين ؟ بل من يهتم بها وهم يأسرون أبناء الإسلام فى أسر وقبضة مذاهبهم بقهر المادة والدعاية وقمع السلطات فلا يدعون حرية لطالب فهم أو دين ؟ يا لها من كذبة تخرج من أفواه دعاة قصر الدين على الصلاة هؤلاء .

ونأتى إلى الصيام عند اليهود وهو عندهم للتكفير وإبداء الندم على الذنوب يومًا واحدًا عرفناه هو يوم حرب رمضان التى انتصرنا فيها فأسميناها أسماء وثنية (أكتوبر وتشرين) لكيلا يغضب أعداء الدين ولأن العلمانيين أنكروا المدد الإلهى ولكيلا نحيى روح الجهاد الإسلامى . أما هم فكادوا ينهزمون فيها ومع ذلك احتفظوا باسم يوم صومهم : يوم الغفران أو يوم كيبور . وهناك يوم آخر يصومونه عندهم هو التاسع من شهر آب اليهودى ذكرى تدمير الهيكل للمرة الثانية على يد الرومان عام ٧٠ ميلادى . وهدف صيامه الذكرى والحزن والتضرع لإعادة الهيكل وهذا الغرض الأخير يذكرنا بالصلاة السياسية ويعيدنا إلى التدبير ضد المسجد الأقصى .

وتقارن الكاتبة بين هدف الصيام يومًا واحدًا من مغرب الشمس إلى غروب شمس اليوم التالى بهدف التطهر من الذنوب بصيام رمضان شهرًا كاملاً لتقوية الإرادة ومقاومة الوساوس والشهوات والارتقاء بالنفس من الحيوانية إلى تحقيق درجة استحقاق خلافة الله على الأرض ،، وتتساءل لماذا ينحصر طلب المغفرة يومًا واحدًا فى العام وفى الإسلام تطلب فى كل وقت من كل يوم وفى الخمس صلوات . وكيف يكفى يوم واحد للتطهر ؟

والزكاة موجودة فى اليهودية بلفظ يقارب اللفظ العربى وتوجبها شريعة موسى بنسبة عشر غلة المحاصيل بل وتأمر بترك أطراف الحقول غيرمجنية للفقراء. ويقول التلمود : أن مساعدة الفقراء ليست تكرمًا بل واجب تدعو إليه دواعى العدالة والتقوى . فكل ما يملكه الإنسان بما فيه جسده معار إليه من الخالق وتصرف المخلوق فيه لمصلحة الفقراء هو لتأكيد التوزيع العادل لنعم الإله . وتنتهز مريم جميلة فرصة التعرض لموضوع الصدقات وأعمال الخير والزكاة فتصفع اليهودية وقبل أن يهتز المسلمون طربًا تؤدبهم بصفعة أقوى يشعر بها القارئ ولو بعد طول الآوان .

للصدقات أهمية فى شرع اليهودية تبرزها قصة الحاخام أكيبا مع حاكم فلسطين الرومانى تينيوس روفوس . فقد سأل الحاكم الحاخام : إذا كان إلهكم يحب الفقراء فلماذا لا يرزقهم ؟ ورد الحاخام : كى

يكونوا سبباً فى خلاصنا من عذاب جهنم . اى بعد تصدقنا عليهم ومساعدتهم . وهنا تأتى الصفعة . إذ تقارن الكاتبة ذلك الموقف برد اليهود عندما أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بنى قينقاع يحثهم على الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وهنا رد أحدهم وهو فنحاص بن عازورا متهكماً على « أبوبكر » رضى الله وساخراً : إن ربكم إذن فقير حتى يطلب قرضاً منا . حقاً كم تحولت التعاليم وتبدلت إلى النقيض مما هو مكتوب عندهم . ولا عجب فهو مقام التعصب ضد النبى وضد الدين الحق تمسكاً بدين حرفوه على هواهم .

لكننا لَسْنَا فى مجال تسجيل النقاط فى مباراة رياضية . فماذا يفيد السرور الأبله عند اكتشاف عداوة اليهود للإسلام أو تلاعبهم فى تعاليم دينهم مدفوعين بالحقد عليه ؟ ما هو واقعهم وواقعنا ؟ ولا بد أن نعترف أن المجتمع اليهودى يرعى أفراده العاجزين بينما فشلنا نحن المسلمين فى ذلك على الرغم من أوامر ديننا فى هذا الصدد . إن من دواعى الفخر للمجتمعات اليهودية حيثما وجدت توفر شبكات متكاملة من ملاجئ الأيتام والمسنين الذين لا عائل لهم وورش للمعوقين جسدياً وذهنياً لتأهليهم للحياة العادية والعمل . أما المسلمون فلا يوجد عندهم شىء من هذا القبيل . وتتجلى نزعة الإنفاق فى سبيل المجتمع والدين فى التبرعات الهائلة التى تتدفق على إسرائيل من يهود أمريكا لا سيما كلما قاموا بعدوان جديد . وتتساءل الكاتبة من واقع وطنها الجديد باكستان : كم دولاراً ستجمع

من باكستان أو حتى من دول البترول العربية إذا ارتفعت دعوة للجهاد فى فلسطين . وتترك لقارئها الإجابة حياءً أو تأنيباً .

وهى تستدرك بعد هذه الصفعة منبهة إلى أن دوافع الإنفاق عند اليهود هى إما رغبة فى المساعدة الانسانية أو التظاهر والتفاخر الدنيوى بينما هى فى الإسلام مندرجة تحت مرضاة الله وطلب عفوه والنجاة فى الآخرة بجانب دوافع العدالة والتراحم فى مجالات التكافل والرعاية الإجتماعية وهو يفوق ما يفعله اليهود كثيراً فإن الصفعة تتحول إلى ضربة موجعة تفضى إلى الحسرة واليأس والخوف القاتل من عقاب الله إلا إذا انتهت إلى تغيير السلوك وإصلاح الأوضاع فى مجال الإنفاق والمساعدة الاجتماعية .

لكننا يجب أن نوضح ما تتناوله الكاتبة على سبيل المعذرة للمسلمين . إن اليهود والنصارى ينشطون فى المجالات ولا تضرب حركاتهم كل بضعة أعوام بتهمة التعصب ولا تصادر ممتلكاتهم أو معابدهم وكنائسهم ولا تقيد حريات كهنتهم وأحبارهم ولا تشوه أفكار ديانتهم أو تحجب عن الناس ولا يخضعون لسلطان الحكومات بل يوجهونها هم أو يؤثرون فيها فى دول الغرب وما يسمى بالعالم الثالث . أما أحوال المسلمين فهى كما نعرف على النقيض من ذلك فى كل بلادهم . وأخطر ما فى الأمر وهو ما نود تنبيه القارئ له أن أموال وممتلكات المسلمين قد نزعت منهم فى أوطانهم وحيث هم أغلبية وذلك

سواء فى عهود الاستعمار أو حتى عهود الحكومات العميلة التى خلفته فى عهد ما وصف كذبا بالاستقلال . إن المسلمين ليس لديهم كنيسة أو وكالة يهودية تتولى شئونهم ولكن كانت لديهم دولة الخلافة أو دويلات مستقلة لكنها واضحة الوظيفة وهى حماية الأغلبيات الإسلامية ورعاية الشريعة والتعليم الدينى وأمور الشعب . ومهما كان فشل هذه الدول وتخاذ لها وهو ما يحدثنا عنه التاريخ إلا أن ارتباطها بجماهير المسلمين وتعبيرها عنهم واتخاذ الدين أساسًا لشرعيتها كان بمثابة المنطلق الذى يمكن أن يبدأ الإصلاح منه . كانت هذه الدول هى بمثابة عنصر التجميع والوعى والتعبير عن المسلمين الذين لا توجد عندهم كما قلت تنظيمات كهنوتية . ولكن عندما سقطت هذه الدول إما تحت وطأه الاستعمار أو لانهيارها الداخلى حلت محلها حكومات علمانية لا دينية تقوم على أساس قومى أو وطنى أو حتى عقائدى غربى ولا تتحمل أية مسئوليات تجاه الإسلام والمسلمين وهم الغالبية الساحقة من السكان فى بلادهم . بل تزعم أنها تخدم الجميع بما فيهم الأقليات بمساواة لكنها فى الحقيقة ولتخلفها لا تخدم أحدًا سوى الطبقات المحدودة المؤلفه لها وهى طبقات العلمانيين ومعهم أبناء الأقليات وكلهم يعادون الجماهير المسلمة ويسعون لإذلالها وتطويعها حتى تكفر بالإسلام . وأهم وسائل الإذلال هى : التجويع والتجهيل الدينى . ولهذا يكثر الفقراء والمشردون والضائعون والمرضى ولا يهتم بهم أحد . فالمؤسسات الدينية هى مجرد

معاهد تعليم والأوقاف صودرت فى عهود الاشتراكية أو اللصوصية الانفتاحية ومؤسسات الرعاية الحكومية هى روتينية مفلسة تبعًا لإفلاس الميزانيات ولا تكاد تقدم خدمة تذكر وحتى إذا ساعدت فإن ذلك يكون لفئات معينة وفى إطار الفلسفات اللادينية وعلى سبيل الدعاية لها . أما غير المسلمون فلديهم مؤسساتهم الخاصة فى مجالات الرعاية الاجتماعية فوق ما يستفيدون منه خلال المؤسسات العامة التى تحابيهم فى كثير من بلاد الإسلام لقوتهم وترابطهم وقدرتهم على الشكوى ورفع الصوت .

هكذا يضيع المسلمون فى بلادهم ويتقدم غيرهم فى بلادهم أيضًا وليس السبب لذلك مجهولا بل هو معلوما وظاهرا فى الاستيلاء على ثروات المسلمين لحساب الحكومات العلمانية وقيام هذه الحكومات بإدارة هذه الثروات لأهدافها الخاصة التى تختلف عن أهداف المسلمين بل تناقضها فى غالب الأحيان . فلا تجدى إذن مصمصة الشفاه عند الحديث حول مشاكل الفقر والتفكك الاجتماعى فى بلدان الإسلام بل لا بد من النظر فى هياكل السلطة والثروة والسلاح ومن يقبض عليها ولصالح من تدار وهل إسلامية الهدف والطابع أم علمانية متغربة معادية للإسلام . إن مشكلة الفقر لن تحل بالصدقات التى يقدمها فقير لمن هو أفقر منه وإنما تحل بعودة ثروات المسلمين الطائلة إليهم وإدارتها وإنتاجها وتوزيعها من خلال دول أو دولة إسلامية تراعى الأغلبيات الإسلامية ولا تقام لصالح

الأقليات لصالح الأقليات العلمانية . وربما حان الوقت لهذا الحل الإسلامى قبل أن تتحول الأغلبيات إلى أقليات بفعل سياسات تحديد النسل والتفكك والتشرذم المفتعل والموجه .

وترتبط بمشكلة المال فى الدين قضية الربا . وهنا تذكرنا مريم جميلة بموقف متناقض لليهودية فى أخذ الفوائد الربوية . فالتلمود يحرم الفوائد الربوية فى موضع قائلاً: ان آخذها ينكر الإله ويستهزئ بالتوراه . لكن الشريعة الموسوية حرفت فى مواضع أخرى لتسمح لليهودى بالتعامل الربوى مع غيراليهودى : لاتقرض أخاك بالفائدة فى المال أو المطعم أو أى شىء مما تؤخذ عليه الفائدة . لكن يمكنك أن تقرض الأجنبى بالفائدة ولا تقرض أخاك بالفائدة كى يباركك الرب فى كل ما تضع يدك فيه . ومن هنا ينشأ الاستغلال اليهودى للغير ومن هنا كذلك تضخمت تلك الشبكة المالية الجهنمية التى حكموا بها أوروبا وأمريكا ثم شاركهم فيها النصارى لتقوم الرأسمالية العالمية أداة الاستعمار وإفقار الشعوب وإغراقها بالدين وربطها بأقساط الفوائد وإملاء سياستها صلحًا مع إسرائيل أو ضربًا للإسلام المكافح الذى يحرم الربا على الجميع ويضرب جذور الاستغلال . إن تعدد المقاييس دليل على التحريف .

وتختتم الكاتبة هذه التأملات فى العبادات بحديث عن الحج الذى لا يوجد فى اليهودية إلا على شكل زيارة لحائط المبكى ونواح ودعاء وذكرى عنده . أى حج سياسى يضاف إلى الصلاة والصيام من أجل

عودة القدس وبناء الهيكل . وهذا يعنى أن شعائر هذا الدين ترتبط بالقدس أيما ارتباط ممايعنى أن التخلى عنها أو حتى مشاركة المسلمين فيها ليست سوى وهم كبير وأن المسجد الأقصى الذى صلى فيه السادات تحت حراب اليهود مستهدف عندهم بالتخريب فى صلاتهم وصيامهم وحجهم . وإذا كان حجهم إلى ذكرى المعبد وقدس الأقداس فهم أكثر الناس طعنا فى الحج الإسلامى بتصويره على أنه من بقايا الوثنيه العربية . وتقول الكاتبة : إن الحج فى الإسلام خلو من أى مظهر وثنى وهو اجتماع عالمى للمسلمين تتجلى فيه أخوتهم وتضامنهم وهذا هو السبب الحقيقى الذى يثير حقد اليهود على هذه الشعيرة ومحاولة تشويهها . وهناك سبب آخر وهو أن تحويل القبلة إلى الكعبة وهى أحد مراكز توجه الحجيج كان بمثابة إعلان إلهى عن إنهاء دور بنى اسرائيل المرتبط بالقدس والمعبد المدمر وإعلاء أبدى لشأن الاسلام .

مفهوم الحرب عند اليهود

اشتهر اليهود فى الماضى القريب بالمهارة الحربية على حساب بعض
حكام العرب الذين أسسوا جيوشهم على مبدأ الولاء لأشخاصهم أ
احزابهم دون الولاء للدين والشعب المسلم والوطن المسلم والذين وظفو
هذه الجيوش فى القمع الداخلى والمغامرات الخارجية . وفى مقابل هذ
الشهرة كانت هناك سمعة جديدة للمسلمين كأسوأ مهزومين بل ممتنعين
أصلاً عن الدفاع عن أنفسهم . وأسقط مفهوم الجهاد فى الإسلام
وشوه ليصبح بلا معنى وطورد من يرفع شعاره أو يدعو إليه كخارج عن
الدين أو ثائر على السلاطين الذين كرسوا الخنوع والاستسلام للأعداء
فى داخل أوطان المسلمين وخارجها .

وفى ظل غياب الجهاد الإسلامى وتصاعد نزعة الحرب اليهودية
وصلنا إلى يونيو ١٩٦٧ ثم إلى إجهاض حرب رمضان ثم إلى الضرب
المستمر الذى تتعرض له الحركات الإسلامية فى كل مكان بتحريض من
اليهود والغربيين واستجابة من الحكام المفروضين على بلاد الإسلام .

وربما حفزنا هذا الوضع على تسليط الضوء لإنارة جانب من تصورات
اليهود عن الحرب وهو ما تساعدنا عليه مريم جميلة فى كتابها بإيجاز ينم عن
الكثير فعقيدة اليهود القدامى كانت شن الحرب والغارة على كل الأمم
المقيمة فى فلسطين وإبادتها أو استعبادها لتبقى لهم فلسطين أرض الميعاد
خالصة لا يشاركهم فيها أحد . وامتزجت دعوى الحرب ضد الكفار

الوثنيين بمشاعر التعصب القومى لتفرز أخلاقيات معينة فى الحرب تنم عن
دخول التحريف إلى الأصل الإلهى لليهودية .

فعندهم فى النصوص المقدسة أن الجيش إذا أتى إلى مدينة يدعو
أهلها للسلم فإن استجابوا فهم مسخرون للفاتح وخدمته وإن أبوا فتفتح
المدينة بحد السيف ويذبح الرجال وتقع النساء والأطفال والمواشى
غنيمة للجيش المنتصر اليهودى . ومكتوب أيضًا : لا تترك حيًا كل من
يتنفس بل دمرهم كلهم ، الحيثيين والعموريين كما أمرك الرب إلهك .
وربما كان لإعلان الحرب على القبائل الوثنية المشركة ما يبرره كما تقول
المؤلفة من خشية تأثيرها على اليهود الموحدين . لكن مالا يبرر هو أن
تكون هذه الحرب فى مفهوم اليهود لإبادة الشعوب الوثنية وليس
لدعوتها إلى الدين التوحيدى . وهنا تضع مريم جميلة يدها على تصور
فى غاية الخطورة بعث فى الصهيونية الحديثة . وهو تحويل الدين إلى
عقيدة قومية منغلقة محدودة على قوم بعينهم لا تتجاوزهم بالدعوة
(الإسلام) أو التبشير (المسيحية) إلى أقوام أخرين وتشبه اليهود هذه
الناحية بالهندوس فكلاهما عنصرى يغلق دينه على قومه ويتعصب على
من عداهم دون دعوتهم إلى الدين .

هكذا كانت اليهودية دينًا مغلقًا قبليًا لا يرحب بالقادمين الجدد .
والحرب التى يشنها أتباع هذا الدين على أعدائهم ليست حربًا لنشر
الدين وفتح أبواب الدعوة . فلم يكن يجدى الحيثى أو العمورى أن

يعتنق اليهودية وينبذ الأصنام ليؤمن بالإله الواحد . فهذا الإله كما
جعلوه هو إلههم الخاص . وهكذا إنتهى التحريف إلى الإله القبلى وإلى
حرب الإبادة وليس جهاد نشر الدين الحق . وتكرر الكاتبة الإشارة إلى
انغلاق اليهود على أنفسهم وعدم قيامهم بالدعوة إلى دينهم حتى فى
أوقات السلم . فهم لا يحاولون تحويل المسلمين أو النصارى بل يبيدونهم
كما حدث فى فلسطين . وهى هنا تفسر مذابح ديرياسين إلى صبرا
وشاتيلا . فالآخرون ليسوا بشرًا تنتشر الدعوة بينهم إلى الخير والحق بل
أهداف وأغراض تباد أو تُستعبد طالما كانت قادرة على الخدمة . ولعلها
كانت فى عام ١٩٦٨ وهى تكتب كتابها تتطلع إلى المستقبل وتفسر حركة
مائير كاهان الداعية صراحة إلى إبادة العرب أو نفيهم من كامل أرض
الميعاد حسب رؤيتهم لفلسطين . وربما حان الوقت لكى نرجع مذابحهم
وشراستهم فى الحرب إلى عقائدهم الدينية المحرفة كما نرجع الصهيونية
نفسها إلى هذه التصورات البربرية المنغلقة عن الدين .

وتلمح الكاتبة فارقًا دقيقًا بين الصهيونية والاستعمار فى مفهوم
الحرب . فالاستعمار الغربى لا يلجأ فى بلاد المسلمين إلى الإبادة على
نطاق واسع والنفي الجماعى أما الصهيونية فتمارس هذه الأشياء فى
فلسطين استنادًا إلى مفاهيم اليهود العنصرية عن الحرب . وربما كانت
المؤلفة متأثرة بحرب ١٩٦٧ ومشاهدها المؤلمة عندما كتبت هذا الرأى .
لأن الاستعمار مارس بالفعل الإبادة والنفي الجماعى . وربما نشير إلى

ممارسات الروس فى أفغانستان وهو ما وقع بعد نشر كتابها بأكثر من
عشر سنوات لكنها كان يمكن أن تشير إلى افعال الإيطاليين فى ليبيا
والفرنسيين فى الجزائر خلال حرب الاستقلال والروس فى مناطق آسيا
الإسلامية خلال القرنين الماضى والحالى وأبرز ما فيها تهجير عدة ملايين
من سكان شبه جزيرة القرم المسلمين على يد ستالين بعد الحرب الثانية
لتتحول هذه المنطقة ذات الطبيعة الخلابة إلى مصايف روسية شهيرة
تغنى كثير من الصحفيين المصريين بجمالها عندما زاروها على حساب
السوفيت دون أن يشيروا أو حتى يدركوا أنهم يسيرون على أرض
إسلامية لم ينقض ربع قرن على نفـى أهلها إلى سيبريا ليقضى البرد على
من لم يقتله الجوع والمعتقل .

وإذا كانت اليهودية الدينية القديمة قد أورثت الصهونية العلمانية
الحديثة ـ (أو بالأصح التى تقول عن نفسها علمانية لإيهام الناس بفصل
الأدوار بينها وبين اليهودية) مفهومًا عنصريًا للدين أدى إلى مفهوم
وحشى للحرب ، فإن يهود أوروبا على وجه الخصوص قد أوجدوا بين
فترة القديم والحديث مفهومًا خاصًا بهم عن الحرب والجهاد هو المفهوم
المعروف بتقديس اسم الرب . كان ذلك فى العصور الوسيطة حينما
انحصر اليهود فى أحيائهم المتعلقة بمدن أوروبا يعانون من اضطهاد
النصارى . ونشأ تقديس اسم الرب كتصور سلمى سلبى على العكس
تمامًا من مفاهيم اليهود القديمة والحديثة . فهو يدعو إلى الجهاد فى

سبيل قضية الدين بتحمل المعاناة والعذاب حتى النهاية ولو أدى ذلك إلى الانتحار بدلاً من التنازل عن الدين والقبول بما يفرضه الأعداء عليهم .

ونلمح فى هذا التصور الذى يصل إلى تقديس اسم الرب بالانتحار انحرافًا لا يقل عن المفهوم الآخرالوحشى للحرب وإبادة الاعداء . فالاستسلام للمعاناه مع القدرة على الثورة جبن أو خيانة والوصول إلى الموت انتحارًا بدلاً منه إستشهادًا أوقتلاً على يد الأعداء شذوذ فكرى أو أخلاقى . وقد كانت شراسة الصهيونية رد فعل لهذا المسلك . فبينما مارس اليهود الإنتحار الجماعى بدلاً من مواجهة جيوش الفوارق الزاحفة على بعض مدنهم ببولندا عام ١٦٤٨ نجدهم فى الحرب العالمية الثانية ينظمون دفاعًا عسكريًا قويًا عن أحيائهم . بمدينة وارسو عاصمة بولندا . كان ذلك فى ربيع عام ١٩٤٣ أى بعد حوالى ثلاثمائة عام من الانتحار الأول . وهكذا تغيرت المفاهيم من النقيض إلى النقيض . من استسلام سلبى يصل إلى حد الانتحار بدلاً من المقاومة إلى مقاومة شرسة فى وجه قوة عاتية وهى مقاومة وضعت النواة لجيش الدفاع الإسرائيلى الذى أصبح يستخدم نفس أساليب النازى ضد العرب المسلمين الذين تحولوا إلى ممارسة الانتحار الجماعى والدفاع السلبى على طريقة يهود العصور الوسطى فى تقديس اسم الرب . حقًا إنها شبكة مثيرة من المشابهات والمفارقات والتحولات .

ويبقى وسط كل ذلك الركام استقرار اليهودية الحديثة على مفهومها القديم فى الحرب وإغلاقها للدين على عنصرية قومية. لا ترى مانعًا فى إبادة الأعداء ، ويبقى أيضًا غياب مفهوم الجهاد الإسلامى عن الساحة كمواجهة لفكرة الحرب اليهودية بعد أن فشلت القوميات العلمانية والاشتراكيات المذهبية واليمين المتخاذل . ومن هنا لم يكن عجيبًا أن يقتل الشباب المسلم لأنه تحدث عن الفريضة الغائبة . ليس عجيبًا لكنه يثير الفكر والنظر عند من يسمع فتنفعه الذكرى .

من الشريعة اليهودية

تعود بنا الكاتبة من أجواء الحرب والإباده إلى موضوع ربما أثار فى نفس المسلم الأسى على ما نشاهده من تفريط فى اتباع أوامر شريعتهم السمحاء بينما يتمسك اليهود أو كانوا حتى وقت قريب بأدق التفاصيل فى شريعتهم الملأى بالقيود الثقيلة المجهده كالأغلال فى الأعناق .

ينظر اليهود إلى الدين ككل متكامل لا يقتصر على العبادة بل يتعدى إلى الطاعة الكاملة والإخلاص المطلق لكل تعاليم الرب الواردة فى الشريعة . والتمشى مع هذه الأوامر هو التعبير عن حب الإله وإعلان الانقياد له . ومن أبرز وأشهر تعاليم اليهودية تلك التشريعات المتصلة بأنواع الطعام المحلل ، أو الكوشيرا أى الطاهر والنجس أو ما يطلق عليه فى لغة البديش « تريف » (وهى لغة مزيج من العبرية والألمانية نشأت فى أوروبا الوسطى والشرقية على امتداد العصور الوسطى) .

وكان اليهود فى القرون الماضية يدققون كثيرًا فى مسألة المطعم من حيث الحل والحرمة حسب شريعتهم . وتقتبس مريم جميلة فقرات مطولة عن ممارسات يهود أوروبا حتى وقت قريب فى هذا الصدد وهى تعكس بدقة ما حرمت اليهودية وما حللته . والمحرمات قليلة فى مجال الأطعمة النباتية وهى تشمل الحبوب التى لم تدفع صدقة العشر عليها والحبوب المهجنة وثمار الشجرة التى لم تمر ثلاث سنوات على بدء إثمارها . أما فى الحيوان فالضوارى محرمة والزواحف والقوارض

والطيور الجارحة والقشريات من الأسماك وكل ما يأكل الجيفة . وتحرم البان وبيض هذه المخلوقات . ومن أشهر المحرمات الخنزير وما يشتق منه من منتجات . أما الأسماك والطيور التى لا تأكل الجيفة وذوات الأربع المجترة مشقوقة الظلف فهى محللة .

ولابد من ذبح الحيوانات المحللة بطريقة شرعية تنتج أقل الألم كما أن الصيد محرم عندهم . وينبغى أن تكون سكين الذبح حادة لا تمزق اللحم أو الجلد بل تقطع القصبة الهوائية والوريد بضربة سريعة لا تكاد تؤلم . ونلاحظ وجه الشبه إن لم يكن التطابق مع التزكية الإسلامية لا سيما وأن اليهودية تنص على تصفية الدم تمامًا من الذبيحة شرطًا لحلها . والميتة حرام وكذلك ما لم يذبح بالطريقة الشرعية . ويرى اليهود أن طريقة الذبح هذه إنسانية وتتميز تمامًا عن طرق الإجهاز على الحيوان المتبعة فى أوروبا ومنها مثلاً أن الفلاح كان يجلس على ظهر الخنزير ثم يأخذ فى طعنه بالسكين فى رأسه حتى يموت بعد العديد من الضربات المؤلمة .

ومن المحرمات التى ترهق الأسرة اليهودية فى الحفاظ عليها تحريم الخلط بين منتجات الألبان واللحوم استنادًا إلى ما ورد فى الشريعة الموسوية من تحريم سلق صغار الماعز فى لبن أمهاتها . ولابد أن تنقضى ست ساعات قبل أن يمكن للفرد أن يتناول اللحم بعد اللبن أو العكس . ويفرض هذا على ربة البيت مهارة خاصة فى تخزين وطهى

وتقديم هذين اللونين من الطعام بحيث لا يختلطان أو يتجاوران فى مكان وزمان واحد . ويستدعى الأمر تخصيص مجموعتين منفصلتين من الأوعية وأدوات الطهى وأطقم المائدة حتى فى أفقر البيوت .

والالتزام بالتحريم أمر مكلف ماليًا فربما يتبين بعد الذبح الشرعى للدجاجة أن كبدها به عيب مما يحرمها أو تعثر ربة البيت على نقطة دم داخل البيضة بعد كسرها فتضطر إلى استبعادها لأنها أصبحت نجسة .

وتمثل هذه المشاكل تيارًا مستمرًا من التساؤلات الموجهة للحاخامات بقصد الإفتاء فيها بما يحفظ التوازن بين التحريم وبين ضياع المال المكروه فى الشريعة الموسوية . ويتفنن هؤلاء فى البحث عن حيل فقهية تنقذ الأسرة من الخسارة المادية المترتبة على استبعاد ذبيحة بعد شرائها .

ويترسخ الإحساس بالحرام والحلال فى المطعم عند اليهود إلى حد أن ألفاظ الطهارة والنجاسة تعمم خارج نطاق المأكولات إلى المعنويات . فالأدب المكشوف الإباحى نجس والفرد الدنئ الخائن نجس . والمرأة بعد الاغتسال من الحيض طاهرة وكذلك الشخص الأمين . وتتردد كلمة «تريف» أو نجس فى شتائم اليهود فى أوروبا .

وتحاول مريم جميلة أن تفسر أوجه الشبه والاختلاف بين المحرمات والمحللات فى كل من اليهودية والإسلام. وهى تلاحظ تحريم الخنزير والضوارى والجيفة والدم فى الإسلام والتسمية على الحيوان عند الذبح بصورة مشابهة لما يحدث عند اليهود . لكن تحريم المزج بين اللبن واللحم

لا يوجد فى الشريعة الإسلامية . وتذهب الكاتبة إلى القول بأن أصل هذا التحريم كان مخالفة اليهود للمصريين القدماء الذين إعتادوا سلق صغار الماعز فى لبن أمهاتها . وعلى هذا فهى محاولة لفصلهم أو تمييزهم عن عادات وطقوس جيرانهم الوثنيين . وبما أن هذه العادة لم تكن متبعة فى شبه الجزيرة العربية أو حتى فى مصر نفسها عند البعثة النبوية فقد ارتفع تحريم خلط اللبن باللحم عمومًا .

ومن ناحية أخرى ترى مريم أن الطبيعة العالمية للإسلام كدين موجه لكل البشر كانت تقتضى نسخ الكثير من المحرمات فى اليهودية التى كانت دينا محليًا ومقصورًا على قبائل معينة . فمحرمات اليهودية عديدة ومعقدة ويصعب الالتزام بها فى بيئات مختلفة كما أن هذه المحرمات أو أكثرها فرض عليهم كعقاب على عصيانهم . ومن هنا فالإسلام كدين واقعى يلائم كل البشر وفى مراحل مختلفة من تطور حضاراتهم يتحرر من الكثرة الغالبة من هذه المحرمات وإلى هذا السبب يعود اختلاف الشريعتين فى هذا الشأن . ولا تنسى الكاتبة أن تشير إلى أثر التحريف على المحرمات والمحللات عند اليهود . فقد حللوا لأنفسهم ما حرمه الله عليهم ، ويتبدى هذا فى موقف أحبارهم من الخمر .

إذ يسجل التلمود خلاف الأحبار وتجادلهم فى حرمة أو حل الخمر . وكانوا جميعًا مدركين لآثار الخمر الضارة على الفرد والمجتمع . يقول أحد الحاخامات فى التلمود مثلاً : إذا دخلت الخمر خرج العقل

وإذا دخلت الخمر خرج السر . فلا شيء يجلب الأسى للإنسان كالخمر وهى تفضى بالرجال والنساء إلى الدنس. ويقوم حاخام آخر: لاتسكر فتخطئ. ويقول ثالث: إن الخمر تؤدى بالمرأة إلى الفحش وضياع الحشمة والحياء. ويذهب رابع إلى تصوير الرجل إذا ثمل فيشبهه بالقرد الذى يرقص ويرمى بالبذاءات ويجهل ما يفعل . ومع ذلك تجمع الآراء فى التلمود على أن شرب الخمر أمر طيب وإن كانت تستنكر السكر ! ويقول أحد الحاخامات فى التلمود نفسه : لا توجد متعة بدون خمر . إن من يحرم نفسه من الخمر يذنب فى حق روحه . ويرى اليهودى أن الخمر من نعم الله ويتمتم قبل شرب الكأس منها بعبارة : مبارك أنت أيها الرب إلهنا الذى أعطيتنا شرابًا من ثمرة الكرم . وترى الكاتبة بحق أن هذا التشجيع على شرب الخمر يذهب بحسنات اليهودية فى الاحتراز والتدقيق فى المطعم والتى لاحظناها فيما سبق .

وهى تقارن بين هذا التضارب فى شأن الخمر الناجم عن تدخل الهوى البشرى وبين موقف الإسلام الواضح منها والرافض لأى شكل من أشكال شربها قليلاً أو كثيرًا . وبينما يضع الإسلام العقاب الشديد فى الدنيا والآخرة على شرب الخمر نجد استهلاكها جزءًا أساسيًا من الحياة الدينية والاجتماعية اليهودية .

وتمضى بنا مريم جميلة فى رحلتها خلال تعاليم الشريعة اليهودية متبينة أوجه الشبه والخلاف مع شرعنا فترى تمسك اليهود بالختان

وإطلاق اللحى وتغطية الرأس بالطاقية التى شهدناها على رؤوس الكثير من قادتهم وتحريم الصور والتماثيل فى المعابد أو فى البيوت . وتذكر أن الكثير من المتدينين اليهود يعترضون إلى وقتنا هذا على التقاط صور فوتوغرافية لهم . ويحيى اليهود بعضهم بعضًا بعبارة شوليم عليخيم أو السلام عليكم . وربما نرى على ضوء حال المسلمين فى العصر الحديث أن اليهود سعداء الحظ لأنهم لم يسجنوا ويقتلوا بتهم التطرف جزاءً على إطلاق لحاهم واتباع شريعتهم ولكن يبدو أن قواعد لعبة العصر هى أن يخرج المسلمون من دينهم بالعلمانية بينما يبقى اليهود أحرارًا ليقيموا دولتهم ويتمسكوا بشرعهم حتى فى أدق تفاصيله . فاللادينية للمسلمين وحدهم .

ولليهود كالمسلمين دعوات أو عبارات تقال فى مناسبات معينة . فبجانب الصلوات الثلاث اليومية يسبح اليهودى المتدين بحمد الله عندما يستيقظ فى الصباح وقبل الوجبات وبعدها وعند رؤية عجائب الطبيعة وخلال العواصف أو كسوف الشمس وخسوف القمر والزلازل وظهور قوس قزح وسماع الأنباء الطيبة أو السيئة والخروج للسفر وإبرام الصفقات التجارية وعند المرض أو الموت . وهدف الدعوات وصل المؤمن بذكر الله دومًا فى كل ما يفعله وأن يحيل هذه الصلة إلى واقع معاش فى حياته اليومية .

وأشهر ما فى شرع اليهود هو الإسبات أى الالتزام بالراحة الكاملة

والعكوف على العبادة والامتناع التام عن أى عمل حتى ولو كان إضاءة
المصابيح أو إشعال الفرن طيلة يوم السبت . وفى الشريعة الموسوية عقوبة
الموت على من يخالف تحريم النشاط فى السبت فهو اليوم الذى استراح فيه
الرب بعد أن خلق العالم فى الأيام الستة السابقة . وتحلل مريم فكرة
الإسْبات هذه على ضوء الهداية الإسلامية . فترى فيها الكفر الصريح
بنسبة التعب والاجهاد للإله القوى المقتدر الذى خلق السموات والأرض
ولم يمسه لغوب . فالإله المتعب ليس بإله . كذلك فما لا يقره الإسلام أن
تعزل العبادة عن باقى أيام الأسبوع ليخصص لها يوم واحد . والعبادة فى
الإسلام متصلة وممتزجة بالحياة اليومية فى شكل الصلوات الخمس اليومية
ودوام الذكر وقيام الليل لمن شاء التنفل . والجمعة عند المسلمين ليس
كسبت اليهود فالصلاة الجامعة فيه لا تشغل إلا حيزًا زمنيًا محدودًا ولا حرج
على استئناف النشاطات العادية والتجارية سائر اليوم .

وللسبت أهمية عظمى عنداليهودى حيث تزداد قيمة الذهاب
للصلاة فى المعبد . ولهذه الأهمية تنشأ ظواهر ملفتة للنظر تقارنها الكاتبة
بتساوى المسلمين ووحدتهم فى الصلوات الجامعة بالمساجد . ففي معابد
أوروبا وإلى وقت قريب كان الأثرياء وكبار أفراد الطائفة يجلسون فى
الجانب الشرقى المميز من المعبد بجانب التابوت المقدس . أما الفقراء
والأميون وغير ذوى المكانة فيزدحمون فى مؤخرة المعبد تجاه الغرب .
وغالبًا ماكانت المقاعد المفضلة فى الجانب الشرقى تحجز وتشترى بمبالغ

نقدية كبيرة وعندما يشغر أحدهما فإنه يباع بالمزاد . ويدفع اليهود فى
أمريكا مبالغ سنوية كاشتراك يؤهلهم لحضور صلوات المعبد بانتظام ،
وفى العطلات الكبرى تحجز مقاعد المعبد لقاء أجر كبير .

ولا يثيرنا فى جولة الكاتبة داخل جوانب من الشريعة اليهودية
مقارنتها بين دينها القديم والجديد بقدر ما يلفت النظر تمسك القوم .
بمظاهر دينهم على تعقدها وتشعبها كإعلان عن الإيمان والتقوى واتباع
الأمر الذى يظنونه ذا مصدر إلهى . ونقارن ذلك بمن يدعو بين المسلمين
إلى إهدار الشريعة السمحاء ثابتة الأصل الإلهى خفيفة التكاليف بحجة
أنها مجرد شكليات ومظاهر وأن الإيمان فى القلب وليس فى الثوب أو
اللحية أو الحرام والحلال فى الطعام والشراب ونعجب من هؤلاء الجاهلين
الذى يتناسون أن الإنسان كل متكامل وأن ما فى القلب لابد ظاهر فى
أعمال الجسد بل فى ملامح الوجه . وكأنهم يريدونه دينًا سريًا لا يشعر به
أحد وذلك تعبيرًا عن نزعتهم العلمانية الكارهة للدين الراغبة فى إقصائه
ليس فقط عن تسيير شئون الحياة بالحكم والتوجيه بل أيضًا عن أجساد
المؤمنين به ولو طلب من أحدهم أن يمتنع عن الطعام والجنس لأن الشبع
والحب فى الذهن فقط لثار وهاج وأزبد لكن لا مانع لديه أن يبشر
بالروحانية المبهمة الغيبية إذا كانت تؤدى إلى ابعاد مظاهر الإسلام التى
تؤذيه عن الأعين .

التعليم الديني

يتبين من الفصل السابق أن الشريعة عند اليهود لها شأن من حيث مدى الانطباق وشدة الالتزام . وقد كان اهتمامهم بها والتفافهم حولها الباعث الرئيسى لنشأة نظام للتعليم الدينى بالتوراة والتلمود ودراسة الشرائع اليهودية ويشبه فى شموله وعمقه نظام التعليم الإسلامى الفريد الذى هدمت أركانه فى العصر الحديث على يد الاستعمار الغربى والعلمانيين الذين زرعهم فى مواقع النفوذ والتوجيه والفكر على امتداد الساحة الإسلامية .

وقبل أن أبدأ القراءة المتأنية فى كتاب مريم جميلة كانت مصر تمر بمرحلة وجهت فيها سهام الغدر والكراهية إلى حركة الوعى والنهضة الإسلامية من جهات شتى جمع بينها الاتجاه اللادينى التغريبى . وفوجئت وفوجئ معى الكثيرون بحملة جارفة ضد التعليم الإسلامى المتمثل فى المعاهد الأزهرية ومناهج التربية الدينية فى المدارس الحكومية . وشاركت فى الحملة أقلام تقنع نفسها بدعاوى التقدم وطلب المساواة تسعى كلها إلى الغاء التعليم الدينى الإسلامى بشتى مظاهره بما فيها بعض الكتاتيب التى تقام فى مساجد لتحفيظ الصبية القرآن . وكنت أتساءل على سبيل الجدل فحسب لأننى أعلم الباعث الحقيقى للحملة : هل تتحقق المساواة المزعومة بمنع المسلمين وهم أغلبية المصريين من تدريس دينهم لأبنائهم فى المدارس ؟ هل كل مشكلة غير المسلمين أنهم لا يريدون أن يتعلم المسلمون دينهم ؟ ومما يثير الاستغراب أن مطلب إلغاء التعليم الدينى الإسلامى لم يأت من غير المسلمين وإنما طرح على لسان من يحملون أسماء إسلامية وقد نصبوا أنفسهم حماة لغير المسلمين إما لدواعى استجلاب تأييدهم لمصالحهم وأحزابهم وإما لستر كراهيتهم الدفينة للدين الذى ولدوا فيه . ومضيت أتساءل : أين يذهب باب الدرس القرآنى والفقهى واللغوى والتاريخى الواسع الممتد كالمحيط اللا نهائى إذا ألغى التعليم الإسلامى ؟ هل ينحصر فى كلية أزهرية يعد طلابها على أصابع اليدين ويدرس لهم علماء طعنوا فى السن لا يلبثون أن يذهبوا إلى جوار ربهم ويضيع الإسلام ؟ ومن له القدرة على تحمل عبء التعليم الدينى ولا كنيسة للمسلمين والتعليم الحكومى علمانى والأوقات ضائعة ؟ ولماذا الإلحاح فى إطفاء النور المشع من الأزهر حتى فى عهد القمع والصمت ؟ هل لأنه خرج رجالاً حافظوا على القرآن والسنة ؟ ولماذا الإصرار على إغلاق التعليم الأزهرى فى الوقت الذى يهيمن فيه العلمانيون على منابر الفكر والثقافة والبحث والإعلام المدعومة بسخاء منقطع النظير بأموال الشعب المسلم الفقير ويوجهونها لخدمة أسيادهم فى الغرب ومع ذلك يضنون على المسلمين أغلبية الشعب المصرى أن يكون هناك نظام تعليمى لدينهم بأموال هذا الشعب ولا يتمتع بأى امتيازات حكومية كالتى يتمتع بها العلمانيون فى مراكز سيطرتهم ؟ وهل تصل كراهية الإسلام إلى حد استثارة أقباط مصر على المسلمين وفتح أبواب الفتن

والشقاق من أجل إلغاء التعليم الدينى الإسلامى فى بلد مسلم ؟

وقرأت كتاب مريم جميلة وهذه الأسئلة وغيرها تدور فى ذهنى وعندما وصلت إلى تناولها للتعليم الدينى عند اليهود وهو النظام الذى نشأ فى العصور الوسطى وبقى حتى الآن فى أوساط المتدينين وبالذات فى أمريكا وإسرائيل ـ شعرت بحسرة تأكل قلبى : هل يتفانى اليهود فى تعليم دينهم وننبذ نحن ديننا لعلمانية أوروبا ونتخلى عن قاعدته الواسعة تحت دعاوى باطلة ؟ ونسير معًا فى رحلة داخل النظام التعليمى اليهودى يتضح منها أى جريمة ترتكب فى حق الشعب المصرى المسلم .

اعتبر اليهود التعليم الدينى وبالذات للصبيان من أهم واجبات طوائفهم فى أوروبا . وساعدهم صغر حجم هذه الطوائف وتركزها على محو الأمية بالكامل تقريبًا بين الرجال . ولمكانة التعليم الدينى بين أوساط المجتمع الدينى كان الآباء يضحون بكل غال ونفيس فى سبيل تعليم أبنائهم وكانت الطائفة ككل تنفق بسخاء على الفقراء من طلاب الدين وتلبى احتياجاتهم .

ويبدأ التعليم الدينى بدخول الطفل إلى القيدار وهو نظير الكتاب الإسلامى . وتعطى له الحلوى فى أول درس يحضره لتشجيعه ولكن تبدأ بعد ذلك صعوبة الدراسة وتعقدها ويدخل الطفل فى هذه المرحلة إلى باب التوراة وهذا الكتاب أو المستوى الدراسى يسمى بالخدميش قيدار أى مرحلة تعليم الكتب الخمسة المقدسة التى ذكرناها فى فصل

سابق . ولا يبدأ الطفل بقراءة سفر التكوين لما يحويه من قصص طريفة بل بسفر الأحبار بتفاصيله الثقيلة عن الأضاحى . وتقرأ التوراة فى هذه المرحلة الأولية بشرح راشى الجر الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى . والكتب التى يطالعها الطفل هى الكتب القديمة والنسخ مصفرة الأوراق من التوراة ، ويجرى التعليم عن طريق حفظ معانى الكلمات العبرية الثقيلة مع ترك الفهم لمراحل تالية . ونقف هنا لنذكر الحجة التى تكررت فى الدعوة إلى إلغاء تدريس آيات من القرآن فى المراحل الابتدائية بمصر وهى حجة صعوبة الفهم . وكان من دعاه المشفقين على أطفال مصر المسلمين من صعوبة الألفاظ القرآنية الكاتب لويس عوض ! أوربما مدنطاق إشفاقه إلى الأطفال اليهودالذين يحفظون توراتهم بدون أى فهم لألفاظها العبرية الغريبة عن بيئاتهم الأوروبية بينما يعرف أطفال مصر العربية . حتى الآن على الأقل ! !

ويهتز أطفال الخوميش قيدار فى جلستهم وهم يرددون الألفاظ المحفوظة خلال القراءة . ويمكثون فى بيت المعلم أوالميلاميد (بالعبرية) من الصباح حتى حلول الليل حيث يسمع لأصواتهم أزيز وهمهمة تقطعها صرخة هنا وهناك حينما تترك عصا الميلاميد على طفل ساه أو مشتت الذهن . ويطوف الميلاميد على الأطفال وهم يدرسون ومعه مؤشر طويل . وفى هذه الغرف المظلمة سيئة التهوية ومع رعاية الميلاميد يتعلم الأطفال القراءة والترجمة (ترجمة معانى التوراة العبرية) .

وهكذا يدخلون إلى عالم كتابهم المقدس متعرفين على معانيه المباشره بل أيضا على بعض التفسيرات والمعانى الخفية .

وفى المرحلة الأعلى أو الجمورة قيدار تتسع المناهج ويحل المدرس محل الميلاميد وتكون وظيفته توجية كل طالب على حدة . وفى هذا المستوى يتركز الاهتمام الرئيسى على التلمود ويمتد مدى المنهج بامتداد اهتمامات التلمود الدينية والدنيوية ، القديمة والحديثة . وتجرى دراسة التلمود عن طريق مناقشات مطولة وتعليقات وتفسيرات تهتدى بكتابات التفسير والتعليق التى لا حصر لها . ويتعرف طفل التاسعة عمرًا على قضايا مثل شعائر العطلات فى معبد سليمان وأخلاق المعاملات بين الناس وأحكام الطلاق أو قواعد المعاشرة الزوجية خلال فترة الدورة الشهرية .

ومرحلة الجمورة تختلف عن مرحلة الخوميش الآلية الرتيبة المعتمدة على الذاكرة فهنا يبدأ الطفل فى ممارسة الفهم وإعمال الذهن والخيال وهو يدخل على المرحلة الحاسمة فى دراسته لحكمة دينه وقومه . وهو يقضى الساعات الطوال فى فهم ومعالجة المشاكل المعضلة . وتهتم به الأسرة وتتحلق حوله تستمع لما يبديه من فهم فقد أصبح على أبواب العلم الدينى .

وبعد مرحلة الجموره قيدار يذهب الطالب الناجح والمشهود له بالتفوق إلى المعهد الدينى أو اليشيفا . وهنا وبين المئات من أقرانه يخصص نهاره

والجزء الأكبر من ليله للدراسة ولا ينام أكثر من بضعة ساعات ويستيقظ فى الفجر . ويتركز برنامج الدراسة على تحليل مكثف وشامل للتلمود وتفسيراته . ويسمح لكل طالب بأن يتخصص فى الجانب الذى يروق له من اليهودية . فإذا اجتذبته النواحى الروحية درس الكابالاه وإذا استهوته الفلسفة تبحر فى كتب الفلاسفة كموسى ابن ميمون أما إذا أحب المسائل الفقهية فإنه يتعمق فى التلمود وشروحاته . وتسير الدراسة ما بين تفسير أو رجوع إلى النص التوراتى للتأكد كمرجع أخير والمناقشة بين الطلاب ومتابعة الجدل التعليمى أو المناظرات سواء الحية أو المدونة فى الكتب لتعلم كيفية طرح الحجج واستخراج الأدلة والتوصل إلى آراء جديدة فى معضلات القانون الدينى .

ولا تتوقف دراسة التوراة والتلمود فى المجتمع اليهودى عند حد معين أو شهادة تمنح ويحملها الدارس مكتفيًا بها بل يستمر الفرد المتدين فى مدارسة التوراة لأنه «لا نهاية لها» . وهى أعمق من علم المتبحرين ومتجددة العطاء حسب تصورهم . ومن المألوف أن يكرس اليهودى الكبير فى السن جل وقته للتدبر فى التوراة لا يشغله عنها إلا الذهاب إلى المعبد للصلاة أو تناول الطعام أو بعض المناقشات العلمية فيها . ويقال عن مثله فى دائرته : كان دائم الانكباب على التوراة والصلاة .

ويرجع الاهتمام الكبير لدى المجتمع اليهودى بالتعليم الدينى إلى أنه أول ثلاثة من الواجبات الدينية الكبرى عندهم. فأولها هو واجب دوام

مدارسة كلمات الرب لمعرفة أوامره والحقائق الموجودة فى الكتب المقدسة وثانيها واجب تكوين اسرة كى يزداد عدد المكرسين لخدمة الإله الحق . وثالثها هو الالتزام بتلك الكثرة من النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والتعبدية الهادفة ـ لتنفيذ التعاليم الإلهية المنظمة للعلاقة بين الإنسان والرب وبين الإنسان والإنسان وبين الإنسان ونفسه . وهذا العلم بالنصوص الدينية ضرورة فهو ليس مجرد علم بمواد شرعية بل بقانون للأخلاق ودستور كامل للسلوك اليومى يحدد ويناقش كل تفاصيل الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والأخلاقية ويجد طالب العلوم الدينية نفسه يدرس أنواع المحرمات الأولية كتحريم الخنزير أو المشروعة على سبيل سد الذرائع كتحريم التحدث مع امرأة لتجنب الوقوع فى الزنا ، ولا يبعد تفصيل كبير أو صغر عن اهتمام الدارسين سواء أكان الحث على مساعدة اليتيم أو على عدم التفكير فى الصفقات التجارية يوم السبت . وكل تفصيل يتيح فرصة لتنفيذ أمر من أوامر الإله .

وتتمحور الدراسة الدينية حول كل ثقافة اليهود وتوحد بينهم عبر الزمان والمكان فى امتداد لكم فكرى وتشريعى واحد من عهد موسى إلى قدوم المسيح المنتظر . ولا يوجد قديم أو جديد فى دراسة الشريعة بحيث يجب الجديد القديم . فكلاهما يدور فى إطار واحد هو فهم الشريعة وتفسير التوراة الواحدة والتلمود الواحد ونفس الشروحات .

ولا حاجة بنا بعد ذلك لنقل كلام مريم جميلة عن التشابه العجيب

بين نظام التعليم اليهودى والإسلامى فى الكتاتيب وجامعات الأزهر والقرويين وأمثالها لا حاجة إلى ذلك لان النظام الناشىء فى العصور الوسطى والحديثة متأثر بالنظام الإسلامى الذى عرفه اليهود فى العالم العربى . وتذكر الكاتبة بأن النمط المعتاد فى عالم الإسلام هو مدارسة القرآن حتى خارج الإطار الدراسى المعروف وتضرب المثل بوالد الشهيد حسن البنا الذى كان يعمل بإصلاح الساعات فى الليل ويعظ ويلقي الدروس كإمام لمسجد بالنهار وينكب بحب على الفقه الإسلامى ويشرح مسند الإمام أحمد بن حنبل .

ويؤدى البحث فى نظام التعليم اليهودى إلى تساؤل طبيعى حول مكانة المرأة ودورها فى مجال العلم الدينى . وهنا تفاجئنا الكاتبة برأى قاطع تستند فيه إلى كتابات بعض القوم . فالدرس الدينى فى اليهودية مقصور على الرجال وحدهم ولا سيما فى الدراسات المتقدمة . وحتى إذا وجدت نساء بلغن شأوا كبيرًا فى تحصيل العلم الدينى فإن المجتمع ينظر إليهن باستغراب كشواذ لأن العلم بالدين وقدح الذهن فيه نشاط خاص بالرجال وحدهم . ولايمنع ذلك بالطبع من أن توجد نسوة قبسن العلم عن طريق آبائهن أو اخوانهن أو أزواجهن الدارسين للتوراة والتلمود .

وللحاخامات اراء متشددة فى تعليم الدين للفتيات . إذا يقول أحدهم معبرًا عن رأى شاع وانتشر بينهم : إن من يعلم ابنته التوراة كمن يعلمها الفحش . ويرى الأحبار أن الأمر الوارد فى التوراة بتعليم

الأبناء ينطبق على الصبيان دون البنات وذلك حسب المعنى الحرفي لكلمة الأبناء فى اللغة العبرية . وقد ذهب أحد الحاخامات إلى القول بأنه يفضل أن تضيع كلمات التوراة عن أن تعلم لأمرأة . وعندما ذهبت سيدة إلى حبر تسأله عن العجل الذهبي وبخها قائلاً بأن لا علم للمرأة إلا فيما يتصل بالمغزل ويرى كاتب يهودى أن أسباب الخوف من تبحر النساء فى الدراسات الدينية المتعمقة تعود إلى الخشية من أن يؤثر ذلك على أدائها لواجباتها المنزلية . كذلك فقد لاحظ الأحبار القدماء أن اختلاط الرجال والنساء فى معاهد العلم باليونان وروما أدى إلى الانحلال الخلقي . ومن بواعث النهى عن تعليم النساء الدينى بتبحر ما شاهده اليهود فى الوسط المسيحى الأوروبي من غلبة نزعة الرهبنة والعزوف عن الزواج بين النساء اللواتى انجذبن إلى الدين . واليهود يكرهون هذه النزعات ويعدون الزواج تنفيذا للأوامر الدينية المقدسة . فالتلمود يدين من يدمرون الدنيا ويضع من بينهم المرأة المتدينة إلى حد نبذ الدنيا ورفض الزواج .

ومما لا شك فيه أن الأسباب التى يذكرها الكاتب اليهودى مبررًا فيها إبعاد المرأة عن ميدان التعليم الدينى هى أسباب فيها وجاهة لو كانت صادقة . ولكن يمكن دحضها واحدًا بعد الآخر. فيمكن للمرأة أن توفق بين التعليم الدينى وبين واجباتها المنزلية والزوجية ويمكن أيضًا أن يفصل بين الرجال والنساء فى معاهد الدراسة ويمكن الحيلولة دون تحول الدراسة الدينية إلى نوع من الرهبنة ورفض الحياة . وفى الحقيقة فقد

تجنب الإسلام شرعًا وتطبيقًا هذه المزالق .

ولا تدع مريم جميلة الفرصة تمر دون أن تضع موقف الإسلام من تعليم المرأة بجانب الموقف اليهودى مقارنة وموضحة . فطلب العلم فى الإسلام فرض على كل مسلم ومسلمة . وفى الحديث الشريف امتداح للأب الذى يعلم ويربى بناته وللسيد الذى يهذب جاريته ويعتقها ثم يتزوجها. والقدوة العليا للمرأة المتعلمة فى الإسلام هى السيدة عائشة رضى الله عنها التى كان لها فضل كبير فى نقل أحاديث الرسول وحفظها. وتذكر مريم الأعداد الكبيرة من النساء اللواتى حفظن القرآن والفقيهات والمحدثات المذكورات فى وفيات الأعيان لابن خلكان ، وتنتقل إلى العصر الحديث لتضرب أمثلة من مختلف البلدان الإسلامية . فهناك سيدة فى جامعة بغداد تدرس الحديث النبوى وفى أفريقيا الإسلامية تتلمذ السنوسى الكبير رائد الحركة الإسلامية التى حملت اسمه على يد عمته واسعة العلم والذكاء وتتحدث الكاتبة كذلك عن تجربتها الشخصية فى باكستان . فتذكر أن النساء فى عائلة زوجها وكلهن مُحَجَّبَات لا يختلطن بالرجال هن على درجة عالية من التعليم وقد تلقينه فى المنزل . أما هى نفسها فلم تتعرض لأى انتقاد بسبب اشتغالها بالعلم والكتابة . وكان النقد الموجه لما تكتبه منصبا على الفكر والرأى وليس على كونها امراة تتدخل فيما لا يعنيها .

وتشير مريم إلى حقيقة يذكرها كاتب يهودى من إسرائيل وهى أن

اليهوديات اللواتى برزن فى التاريخ واشتهرن لعلمهن كن من العالم الإسلامى بدون استثناء . لكنها مع الأسف لا تقدم لنا تفصيلات حول هؤلاء النساء كما قدمت لها التفصيلات فى مواضيع أخرى . وهى تختتم حديثها عن التعليم الدينى بالإعراب عن الأسف لانتشار الجهل بين المسلمين عموماً والنساء خصوصًا بأمور دينهم وثقافته على الرغم من دعوة الإسلام الملحة للعلم ولا تنسى أن تبرئ الإسلام نفسه من تهمة تكريس الجهل وأن تؤكد على مسئولية العوامل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة على تدهور المستوى التعليمى عند جموع المسلمين .

لمحة عن المرأة

قلت فى تقديمى لكتاب مريم جميلة أنها لا تطرح فكر الرشوة أو المزايدة كمبرر لدخولها للإسلام وأعنى بذلك أنها لا تبرر قبولها لديننا على أسس أنه يعطيها حقوقاً أو مكانة كامرأة أكثر مما أعطاها دينها أو حضارتها الغربية . وهى لا تنتهج النظرة العنصرية الضيقة التى ألفناها فى الكثير من الكتابات والقاضية بأن تكتب المرأة عن النساء فقط أو أن تتعصب لجنسها فى كل مناسبة كما يفترض أن ينحاز الرجل إلى نوعه . إنها كما علم الإسلام إنسانة مخلوقة عبدة لله كالرجل لا تصدر فى احكامها أو اهتماماتها عن منطلق نوعى بل عن المصدر الوحيد الذى ينبغى للمسلم أن يبدأ منه وهو الرؤية الإسلامية . ولذلك لا نجدها تخصص فصلاً للحديث عن المرأة فى اليهودية أو الإسلام . بل لا تطرق الموضوع إلا فى ملاحظات عابرة تجئ صدفة أو تبرز من سياق المسألة كتناولها لتعليم النساء فى الدينين .

وعندما تتناول المرأة فى حديثها تبتعد أيضاً عن المعالجة التقليدية التى أصبحت ديدن الكاتبين عن مكانة المرأة فى الأديان . فهى لا تسرد قائمة من الحقوق التى أعطاها الإسلام للمرأة مقابلة بأنواع من الظلم وقعت عليها فى الأديان الأخرى . ولو فعلت ذلك لما كانت موضع انتقاد فهى فعلاً تؤكد من خلال ملاحظات متناثرة فى كتابها على رفع الإسلام لمكانة المرأة فى مواجهة حط لهذه المكانة فى اليهودية

والنصرانية . غير أنها لا تختار هذا المدخل ربما لأنه مطروق ومفصل عند كتاب آخرين .

فما الذى نعرفه عن المرأة فى تصور وممارسات اليهودية من خلال فقرات قليلة خصصتها مريم جميلة لهذا الموضوع ؟ تقول بالاستناد إلى كتابات لباحثين يهود ان إجمالى النظرة اليهودية للمرأة هى أنها أدنى فى المكانة للرجل وخاضعة له . فاليهودى يشكر الإله صباح كل يوم على أنه لم يخلقه امرأة بينما تحمد المرأة الإله فى صلاة الصباح كل يوم لأنه خلقها حسب حكمته . وتتبلور النظرة اليهودية للمرأة فى قصة آدم وحواء كما وردت فى التوراة والإنجيل . فالمرأة أدنى من الرجل لأنها خلقت بعده ومن جسده كما أنها هى التى أغوت آدم بالأكل من الشجرة المحرمة ولذلك فالمرأة بطبعها خاطئة . ومن هنا نشأ مفهوم الخطيئة الأولى أو الأصلية وجعلت حواء متسببة فيها . ومن الواضح أن هذا التصور لقصة آدم وحواء غير موجود فى الإسلام .

وتقارن الكاتبة هذا المفهوم بفكرة القوامة وتفضيل الرجال على النساء درجة كما جاء فى القرآن . فتقول إن هذه الفكرة جاءت لأن الله قد خلق الرجال متفوقين على النساء ولأن الرجال ينفقون على النساء فى الحياة الأسرية.وهذا التفوق للرجال ليس مطلقابل نسبياحسب رأيها . فليس كل الرجال متفوقين على كل النساء فى النواحى الجسدية والذهنية . إن امرأة كعائشة أو خديجة تفوق الكثير من الرجال . ولكن لو وضعت أقوى وأذكى امرأة بجانب أقوى وأذكى رجل فإنه سيتفوق عليها . والأهم من كل ذلك أن مفهوم القوامة أو تفضيل الرجال درجة على النساء ليس مفهوماً عنصرياً وليس مطروحاً كسلاح فى وجه المرأة . فالمرأة ليست محتقرة أو متدنية المكانة فى الإسلام والنصوص كثيرة فى احترامها وحسن معاشرتها وتوكيد حقوقها المختلفة على الرجل .

وتطرق مريم موضوع تعدد الزوجات فى اليهودية فتقول إن هذا الكتاب لا يدين التعدد وكل الأنبياء الموقرين فيه يمارسون التعدد برضى الإله . ولكن تبلورت آراء مختلفة فى اليهودية تجاه تعدد الزوجات تحت التأثير المسيحى . وتلمح هذا التضارب فى التلمود . إذ يقول أحد الحاخامات انه يجب أن يسمح للرجل بأى عدد من الزوجات شاء بينما يعلن آخر أن عدد الزوجات يجب أن يتوقف عند أربع (وهو رأى الإسلام) . ويذهب آخر إلى القول بأنه ينبغى على الزوج إذا تزوج بأخرى أن يمنح الطلاق للزوجة الأولى إذا رغبت فى ذلك . وهى تقول ان قوانين الأسرة فى باكستان قد تبنت هذا الرأى الأخير فى عام ١٩٦١ . ونقف هنا لنلاحظ أن هذا الرأى لحاخام يهودى فى شريعة دينه قد عمل به أيضاً فى قانون الأحوال الشخصية الذى فرض عام ١٩٧٩ على الشعب المصرى المسلم فى ظروف شاذة من ناحية الدعاية المغرضة التى سبقت طرحه ومن حيث ظروف إقراره بقانون من رئيس الجمهورية مباشرة وصياغته على أيدى جهات خارجية وداخلية غير

مختصة ونسبته إلى ثلاثة مشايخ مصريين من موظفي الدولة ثم التمسك المرضى به بعد ثبوت آثاره الضارة على المجتمع المصرى فى كثرة المنازعات الأسرية والعزوف عن الزواج والرغبة فى إذلال الرجال . ومما يبعث على الدهشة أن يضيق الحال بالمسلمين فيضطروا إلى تعديل قوانينهم على رأى فردى لحبر يهودى ثم ينسبه بعضهم إلى المذهب المالكى ويكتشف كذبه بعد الرجوع إلى كتب المالكية ولكن بعد فوات الأوان . ومما يثير الاستغراب أيضاً أن يسير رأى الحاخام اليهودى من باكستان إبان وقوعها تحت حكومة علمانية إلى مصر والعراق والجزائر (فى عام ١٩٨٤) وليبيا . وإذا كان ولاة الأمور قد أعجبوا بالفقه اليهودى وفضلوه على القرآن والسنة وفقه الإسلام وممارسات الرسول والصحابة فلماذا لا يقيمون دولة إسلامية كما قامت لليهود دولة ؟

وقد حرم الأحبار فى أوروبا تعدد الزوجات تحريماً تاماً بينما مارس اليهود المقيمون فى المجتمعات الإسلامية التعدد حتى وقت قريب فى التاريخ الحديث . وتؤكد الكاتبة على تأثر اليهودية بالبيئة فى مواقفهم من هذه القضية مما يعكس إدخال الهوى فى تشريعاتهم أو عدم اتضاح هذه التشريعات .

وتقدم مريم جميلة بعد ذلك عرضاً للحياة الأسرية فى أحياء اليهود بأوروبا إلى ما قبل فترة الحرب العالمية الثانية . ونرى من ذلك العرض ترابط الحياة الزوجية وتماسك الأسرة . والمرأة هى ربة البيت ومدبرته

بلا منازع . تقوم بواجباتها الدينية وتضمن نقاء الطعام واتساقه مع قوانين الكوشير وهى تستشير الرجال فى الشئون والمسائل الدينية . والمرأة الصالحة نظيفة وصبورة ومتفانية فى العمل ومطيعة للرب ولزوجها ومخلصة فى خدمة الأبناء . ولها رأيها فى شئون الأسرة حيثما لا يكون للتوراة رأى . وهى إن اشتغلت بالعمل خارج المنزل فى محل أو كشك فى السوق فإن ذلك لا يكون إلا لمساعدة الزوج وبعد القيام بالواجبات المنزلية على أكمل وجه . والمرأة المتزوجة تحظى باحترام وسط المجتمع اليهودى لأن العزوبية مكروهة فيه وهى لا تحظى بهذا الاحترام لعلمها أو لاعتبارات شخصية فيها وإنما لكونها زوجة وأم .

ورغم أن البيت هو مملكة المرأة فى ذلك المجتمع اليهودى الذى غيرت منه أحداث القرن الحالى إلا أنها كانت تخرج منه إلى السوق للشراء أو للعمل ولكنها لا تختلط بالرجال . وقيود منع الاختلاط كانت قوية ومطبقة بحزم لاسيما فى المناسبات الاجتماعية كالأفراح . وكانت دواعى منع الفتنة من ارتداء الملابس المحتشمة الطويلة مرعية . ويحرص المجتمع على الزواج المبكر رعاية لأبنائه وتحصيناً لهم كما يحرم الحديث فى الأمور الجنسية ولو بين الزوج وزوجته احتراماً للحياء ويدعو الرجال بالذات إلى غض البصر وعدم التعرض للنساء بالنظرة أو الحديث أو اللمس .

ومع هذا الإلحاح على منع الاختلاط بين الجنسين وتجنب آثاره

الضاره كانت اليهودية تضع آداباً للمعاشرة الزوجية بين الرجل والمرأة تذكرنا بتلك الآداب التى وضعها الإسلام . وتحرم المعاشرة خلال فترة الدورة الشهرية ولمدة سبعة أيام بعدها بما يعنى أن الفترة المسموح بها لذلك لا تتعدى نصف الشهر. وهدف المعاشرة هو الإنجاب وليس المتعة

وتدل هذه الصورة المثالية المنقولة عن مراجع يهودية على أن الواقع الحياتى لهم فى أوروبا كان على الرغم مما قيل عن اضطهادهم على يد النصارى محكوماً بتقاليدهم وهو يدل كذلك على أن إرساء تقاليد أسرية وسد ذرائع الفتنة بالاحتشام والزواج المبكر والفصل بين الجنسين هى أمور أصيلة فى الدين عندهم لأننا نجد الإسلام يؤكدها فى شريعته . وهذه الأمور هى التى حفظت مجتمعاتهم حتى الفترة الحديثة .

وتقول الكاتبة : ان حروب هذا القرن وثوراته الكبرى فى أوروبا ما بين شيوعية ونازية واقتصادية قد هدمت هذا المجتمع القائم على امتداد القرون الماضية هناك وتحولت الأسر اليهودية إلى تقبل العادات والقيم العلمانية الغربية واعتناقها . وهنا نجد أنفسنا أمام أهم أجزاء كتاب مريم جميلة لأنها تتناول أهم فصول التاريخ اليهودى الحديث فى الغرب . فمن خلال علاقاتهم بذلك المجتمع الغربى وتطوراته نشأت الحركة الصهيونية التى نعانى منها وأفرخت المذاهب العلمانية التى يضرب الإسلام بها .

اليهود فى أوروبا الحديثة

رسمت لنا مريم جميلة عبر الفصول السابقة صورتين متمايزتين لليهودية . تصف إحداهما التعاليم والشرائع كما وردت أو كتبت فى النصوص المقدسة وتصف الأخرى المجتمع اليهودى كما تطور فى أوروبا على مر العصور الوسطى وحتى العصر الحديث فى القرن الماضى والحاضر . وقد تابعنا معها جوانب من حياة ذلك المجتمع فى تمسكه بالشريعة الموسوية ونظام التعليم الدينى فيه وأحوال الأسرة ومكانة المرأة . ومن الصحيح أن جانب التعليم الدينى الذى أفرزه ذلك المجتمع ومعه بعض الجوانب الأخرى مازالت تعيش حتى وقتنا بين طوائف اليهود الذين اصطلح على تسميتهم بالأرثوذكس أو المتدّينين . ولكن من الصحيح كذلك أن المجتمع اليهودى فى أوروبا من خلال القرنين الماضيين مربتطورات هامة ، أثرت على غالبية اليهود وكانت مصاحبة لتطورات المجتمع المسيحى الكبير الذى عاشوا فى وسطه وإن كانوا مستقلين عنه فى أحيائهم ومدنهم ينظمون شئونهم بدون تدخل من سلطة خارجية اللهم إلا لدفع الضرائب أو أداء الخدمة العسكرية فى بعض الأحيان . وأنتجت هذه التطورات الحركة الصهيونية كما أنتجت المجتمع الغربى العلمانى عموماً وقد أثر كلاهما فى المسلمين من نواح كثيرة .

ونترك الكاتبة تحكى لنا قصة هذه التطورات وتعلق عليها من وجه
النظر الإسلامية .

كان مجتمع الجيتو أو الحى اليهودى المستقل يحفظ لليهود كيانه
الدينى والثقافى . وكانوا يكتفون فى حياتهم هذه بهداية التلمود الذى
يعتبرونه طريقة حياة شاملة بما يضم من تعاليم فى الشئون المدنية
والاجتماعية . كما كانوا يحكمون أنفسهم داخل هذا المجتمع المغلق الذى
لديه محاكم وقضاة خاصين ويحتل فيه الحاخام مركز الصدارة . وبعد
الثورة الفرنسية أخذت بلدان عديدة فى غرب أوروبا تلغى أى تفرقة
ضد اليهود اتباعاً لمبادئ الحرية والمساواة . وانفتح الباب أمام اليهود
للتخلى عن ثقافتهم الدينية المميزة لقاء الاندماج والاشتراك فى الحياة
الأوروبية العريضة بكل ما أصبحت تتيح من فرص مادية ومعنوية
للترقى والنفوذ . وانتشرت فى ذلك الوقت وتدعمت حركة التنوير
اليهودية التى كان عدد من مثقفيهم قد بشر بها فى أواخر القرن الثامن
عشر . ومن معالم حركة التنوير أو الهاسكلاه نسف أسوار الجيتو التى
كانت تعزل اليهود اقتصادياً واجتماعياً عن المجتمع الغربى وتحطيم جدران
الجيتو النفسى الذى سجن فيه اليهود أنفسهم بالجهل واليأس والركود
الثقافى حسب تصور دعاة هذه الحركة .

وكان من أقطاب الحركة العديد من اليهود الألمان وعلى رأسهم
موسى مندلسون والد الموسيقار المعروف فيلكس مندلسون . وكانت

نشاطاته نموذجاً لما دعت إليه حركة التنوير اليهودى . فقد ترجم الكتب
الخمسة المقدسة إلى الألمانية ونشرها فى نسخة ألمانية عبرية مما ساعد على
انتشار الألمانية بين يهود أوروبا المتقنين للعبرية . ومع ذلك فقد أدت
هذه النشاطات للحركة إلى عكس ما كان بعض قادتها يتمنى من تقوية
اليهودية بمزجها بتيارات الفكر والثقافة الغربية الجديدة . إذ ازدادت
الردة بين اليهود بشكل خطير وانتهى الحال بدعاة الحركة أنفسهم إلى
اعتناق المسيحية بشدة رغبتهم فى الحصول على التقبل الاجتماعى داخل
حضارة هى مسيحية بالأساس حتى ولو رفعت شعارات المساواة
للجميع أو دعاوى العلمانية . وقد اعتنق نصف عدد اليهود فى مدينة
برلين المسيحية خلال العقود الأولى للقرن الماضى . بل ان أبناء موسى
مندلسون داعى اليهودية العصرية قد تنصروا بدورهم . ووصل أمر
تدهور التمسك الدينى عند اليهود «المتنورين» إلى حد أن مساعد
مندلسون عرض عام ١٧٩٩ على أحد القسس أن يعتنق المسيحية مقابل
أن لا تفرض الكنيسة عليه هو وأتباعه الاعتقاد فى مذاهبها التاريخية
كالتثليث وميلاد المسيح من غير أب .

وكانت الانتهازية أو الرغبة فى الهروب من الجيتو أو طلب الارتفاع
فى المكانة الاجتماعية هى الدوافع وراء تنصر الكثير من اليهود فى تلك
السنين المبكرة من القرن الماضى . ومن أشهر هؤلاء بالطبع كارل
ماركس الذى عمده والده وهو فى سن مبكرة لينشأ على الاندماج فى

المجتمع المسيحى وتنفتح أمامه أبواب الفرصة لكنه كان من أهم عوامل هدم هذا المجتمع بعقيدته الثورية . وفى نفس الوقت وعلى طرف النقيض من ماركس كان هناك فريدريش جوليوس شتال المارق من اليهودية إلى المسيحية ليصبح أهم مستشارى الزعيم الألمانى بسمارك ومن أكبر دعاة الحركة السياسية اليمينية المعروفة باليونكرز . ونذكر أيضاً الأديب الكبير هايزيش هاينه اليهودى والفيلسوف سولومون ميمون الخارج عن الدين اليهودى .

ولم تقتصر الحركة العصرية فى اليهودية على أمثال هذه المظاهر الاجتماعية المفهومة التفسير وإنما امتدت إلى محاولات لتعديل الشعائر اليهودية ولاسيما الصلاة فأدخلت الآلات الموسيقية إلى المعابد ومنها الأرغن وعلقت على النوافذ ألواح الزجاج الملون التى تحمل صور الأنبياء والقادة . واستخدمت الترانيم المسيحية بأنغامها مع تعديل بعض كلماتها كى لا تؤذى المشاعر اليهودية وكان يقوم بأدائها جوقة مشتركة من الرجال والنساء (بعضهم مسيحيون) . وكانت هذه محاولة من اليهودية العصرية للاقتراب من الكنائس المسيحية . وألغى الفصل فى معابد هؤلاء بين الرجال والنساء . وعدلت كتب الصلاة لتحذف منها أى عبارات لا تتفق مع الفكر الليبرالى الغربى العصرى كالإشارة إلى الجنة أو النار أو يوم القيامة وحلت اللغات الغربية كالألمانية والإنجليزية محل العبرية .

وفى عام ١٨٧٩ اجتمع قادة هذه الحركة والتى أصبحت تعرف بحركة اليهودية الإصلاحية فى مدينة فيلادلفيا الأمريكية وأصدروا بياناً يعبر عن حقيقة الاتجاه العصرى أو ما انتهى إليه . فقد أعلنوا تخليهم عن مبادئ الشريعة الموسوية كما يفسرها التلمود لأنها تناقض الحياة العصرية وأصبح اليهودى بالتالى فى حل من اتباع هذه التعاليم وأعربوا كذلك عن رفضهم للتوراة والإنجيل كوحى سماوى وأكدوا على ضرورة تفسيرها تفسيراً رمزياً . وأنكر البيان فكرة الثواب أو العقاب فى الآخرة . وقد انتشرت هذه المبادئ بين يهود أمريكا وتقول مريم جميلة انها ولدت فى وسط يؤمن بها وهى تبدى احتقارها لذلك النفاق الذى ينكر أسس الدين ثم يستمر فى دعوى الإيمان به .

وهكذا انقسمت اليهودية إلى اتجاهات ثلاثة تمثلها ثلاثة أنواع من المعابد . فالحركة الإصلاحية لها معابدها الخاصة المختلفة تماماً فى شعائرها عما كانت عليه المعابد فى الماضى . وهناك الحركة المحافظة التى تخلت عن الكثير من التراث والتقاليد وإن لم تذهب فى ذلك إلى المدى الذى انطلقت إليه الحركة الأولى . أما الحركة الأرثوذكسية أو المتدينة فقد احتفظت فى معابدها بما كانت عليه الممارسات قبل حركة الإصلاح . ولكل حركة مؤسسات تعليمية خاصة لإعداد حاخامات المستقبل

وتضرب الكاتبة المثل على فشل الحركة العصرية فى اليهودية فى تحقيق هدفها المعلن وهو الحفاظ على إيمان اليهودى وتمسكه بالشريعة

مع الاندماج الكامل فى الحياة الغربية الحديثة . وتختار لذلك ما كتبه الناقد البريطانى المعروف ديفيد ديتشيز عن والده الحاخام الأكبر لمدينة أدنبره بسكوتلندا . فعلى الرغم من أن هذا الحبر قد كرس حياته بأكملها ليثبت أن توافق اليهودى فى الحياة الغربية يمكن أن يتم بدون تخليه عن دينه أو إيمانه وتمسكه بالتعاليم المحددة لذلك الدين إلا أنه فشل فى ذلك وكانت آية إخفاقه نشوء أبنائه كلهم على الإلحاد بعد تربيتهم فى مدارس علمانية .

وتتبلور الصورة التى ترسمها لنا مريم جميلة فى خطوط عريضة واضحة . فنحن أمام مجتمع مغلق كان يعيش ويحافظ على تراثه وتقاليده وممارساته لدينه ولكن على حساب عزلته عن الحياة الأوروبية الكبرى التى تحيط به دون أن يقدر على الاستفادة منها كعادة اليهود بل وهو يعانى من اضطهادها أحياناً كثيرة . وعندما أتيحت فرص الخروج من تلك العزلة نتيجة لأحداث جسام مرت بالقارة الأوروبية من حروب وهزات نجم عنها مجتمع أكثر انفتاحاً أو هكذا يزعم.خرج اليهود أو مثقفوهم تواقين للاندماج والمشاركة فى هذا العالم الجديد . لكن هذا الخروج أسفرعن عكس المرجومنه. فبدلامن أن يعمل على تدعيم مكانتهم داخل بلدان أوروبا فتح الأبواب لفقدان الهوية والذوبان فى المجتمع المسيحى الكبير باعتناق المسيحية أوالإلحاد التام . وفقدت اليهودية نفسها لغتها وشريعتها وشعائرها التعبدية وتقاليدها الاجتماعية

من خلال نشاطات الحركة الإصلاحية التى حاولت القيام بدور «تغريب» اليهود وإدخالهم الوسط الغربى الحديث . وهكذا انتهت آمال الاندماج فى الغرب العصرى مع الاحتفاظ بالهوية وبقي التذمر والسخط تلهبهما بعض أحداث الاضطهاد الواقعة فى روسيا وبلدان أوروبا الشرقية . ومن وسط هذا المأزق خرجت الدعوة الصهيونية لتحل ما سمى بمشكلة اليهود فى أوروبا وهى مشكلة خلقوها هم بقدر ما خلقها غيرهم هناك . وكان الحل الذى أراح الجميع متدينين وملحدين يهوداً ومسيحيين هو إلغاء المشكلة بنقلها إلى قلب العالم الإسلامى (إلى فلسطين) لتصفي الخلافات بينهم وتتحول إلى صراعات ثانوية ويتحد الجميع لضرب واستعمار عدوهم الأكبر وهو الإسلام .

والآراء الأخيرة هى من عندى ولا تذكرها مريم جميلة ولكنها تلمح إليها . لكن الخطوط العريضة لتصورها عن علاقة اليهود بالمجتمع الغربى فى أوائل وأواسط القرن الماضى منقولة عن كتابها دون تعديل أو إضافة . ولا أتفق معها تماماً فى ذلك التحليل الذى يغفل مثلاً دور اليهود من خلال الجماعات الماسونية أو بعض التيارات الفكرية فيما سمى عصر التنوير خلال القرن الثامن عشر وهى اتجاهات عملت على تخريب المجتمع المسيحى تمهيداً لهيمنة اليهود عليه أو على الأقل تدخلهم وتأثيرهم وتوجيههم له . كما أن تصورها هذا يجعل قيام الحركة الصهيونية مبرراً بفشل اليهود فى التكيف مع المجتمع الغربى العصرى

رغم تنازلاتهم الفادحة لقاء ذلك . وكان يجب عليها مثلاً أن تبحث فى قيام الصهيونية كنظير يهودى لحركة الاستعمار الواسعة التى شهدتها أوروبا فى تلك الفترة . فالأسلوب واحد وهو الاحتلال ومحاولات الاستيطان . كذلك فإن وجود الدافع الدينى ملحوظ فى اليهودية والاستعمار الذى شجع ورعى حركة التبشير التى تبحثها الكاتبة باستفاضة خلال تناولها للمسيحية .

وتغنينا مريم جميلة عن عناء ربط هذه التصورات بالواقع الإسلامى . فهى تحاول استخلاص العبرة من تجربة اليهود فى المجتمع الغربى الحديث وحيرتهم بين الانغلاق والذوبان . فتلاحظ أنه على الأعداد الكبيرة من المسلمين المقيمين فى الغرب أن يدركوا خطر ضياع دينهم وهويتهم إذا ذابوا تماماً فى المجتمع هناك . فهم لا يستطيعون أن يربوا أبناءهم على دينهم ولغتهم . ويفيدهم فى هذا الصدد الجانب الإيجابى فى تجربة المجتمع اليهودى فى أوروبا قبل فترة الحركة الاندماجية . فهو مجتمع حقق إستقلالاً واكتفاء ذاتياً وتنظيماً داخلياً مكنه من المحافظة على دينه وشعائره وشريعته من خلال المؤسسات التعليمية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة به كالمدارس والجمعيات الخيرية . ويمكن للمسلمين أن يستفيدوا من هذه التجربة ، تجربة التماسك والترابط دون أن يقعوا فى الجانب السلبى منها وهو جانب الانغلاق والعزلة المؤدية إلى الشعور بالنقص والتشاؤم والبغى . والحل

الذى يمكنهم من ذلك هو الاختلاط بالمجتمع الأوروبى أو الأمريكى من موقع الشعور بالهوية كدعاة منظمين للإسلام يكسبون الجماهير بالقدوة الحسنى والفكر وتقديم نموذج للمجتمع الإسلامى . وبهذه الطريقة يحافظ المسلمون فى الغرب على دينهم دون انكماش مؤد للانقراض بل من خلال الممارسة الإسلامية الأصيلة والواجبة وهى الدعوة النشطة المتحركة إلى دين الله . ولا ريب أن هذه الفكرة التى تطرحها مريم فكرة خطيرة الأهمية مثيرة للتدبر . فهى تطرح تحول جذرى لدور المسلمين فى الغرب من ملحقات هامشية فى طريقها للذوبان فى مجتمع غير مسلم ومدافعة بيأس عن مواقع تنهار الواحد بعد الآخر إلى مجموعات دعائية رسالية منظمة تبادر إلى الهجوم بنشر الإسلام من موقع الاعتزاز والإيمان والثقة وتتوسع وتكثر من خلال أعداد المنضمين لها . ويقتضى ذلك بالطبع تحويل هدف الهجرة إلى الغرب من التكسب المادى أو الهروب من ضيق المعيشة أو الرغبة فى الالتحاق بالمجتمع اللاإسلامى إلى هدف دينى فى المقام الأول وإن لم يمنع وجود أهداف مادية ومعنوية ثانوية .

ومما لا يقل خطورة عن هذه الفكرة التى تستخلصها الكاتبة من تجربة اليهود فى المجتمع الغربى الحديث فكرة أخرى تتصل بالمسلمين فى بلادهم . وفى رأيى أن هذه الفكرة من أخطر ما يقدمه الكتاب وأوثقها صلة بالأوضاع الإسلامية الراهنة . تربط مريم جميلة بين الحركة

العصرية التى أشرنا إليها فى اليهودية وأوضحنا مآلها وبين حركات تنشأ فى الفكر الإسلامى وتحاكى ما فعله اليهود تحت شعارات الإصلاح أو التجديد أو الليبرالية . وهى تشير إلى أن الحركة الإصلاحية اليهودية انتهت إلى بتر الشريعة عن الدين اليهودى ثم أضعفت العقيدة ثم أضاعت اللغة ومحت الممارسات والالتزام وانتهت إلى الإلحاد أو اعتناق المسيحية ومع كل ذلك بقيت مشكلة اليهود ليحاول العلمانيون الملحدون من قادة الصهيونية حلها لا فى الغرب ولكن فى بلاد المسلمين . وتتساءل بمرارة عن الباعث الحقيقي لتلك الأفكار التى تروج بين بعض من يسمون أنفسهم بالمسلمين وبتشجيع واضح من الغرب . وتذكر على سبيل المثال حركة السير سيد أحمد خان فى أواخر القرن الماضى بالهند والتى أدت إلى إنشاء جامعة عليكرة كطليعة لعملية تغريب الإسلام على نمط ما فعلته الحركة الإصلاحية اليهودية .

وتقتبس مريم بعض الفقرات من كاتب هندى معاصر يدعى عساف فيظى يحاول أن يدعو إلى أفكار مشابهة لأفكار العصريين اليهود بين المسلمين ، فهو يقول مثلاً : كما حطم مارتين لوثر أسوار العقيدة المذهبية فى المسيحية وكما سعى اليهود التقدميون إلى إصلاح اليهودية وتقديمها لليهود فلابد أن يعترف المسلمون المتدينون بالتيار الإسلامى الليبرالى . وتسخر الكاتبة من ذلك الادعاء قائلة ان هذا المتحرر إن أراد الصلاة فلن يذهب الى معبد أو كنيسة منفصلة كما هى الحال عند من

يعجب بهم لكنه سيضطر إلى الوقوف فى مسجد بجانب من يسميهم المتدينين غير المستنيرين .

كما تذكر طرفاً من محاولات كمال أتاتورك المجنونة لفرض العلمانية على الإسلام فى كل مجال . فقد كتب برنارد لويس المعادى للإسلام كتاباً فى عام ١٩٦١ أسماه **ظهور تركيا الحديثة** . وتحدث فى هذا الكتاب عن محاولة النظام الكمالى إقامة كلية جديدة للدراسات الدينية بجامعة استنبول تكون بمثابة مركز لشكل عصرى وعلمى للتعليم الدينى يتلاءم مع اتجاه الجمهورية التركية إلى العلمانية والغرب . وفى عام ١٩٢٨ شكلت هذه الكلية لجنة لدراسة إصلاح وتحديث الدين الإسلامى . ونشر تقرير اللجنة فى شهر يونيو من نفس العام وتضمن التأكيد بأن الدين هو مؤسسة اجتماعية وينبغى عليه كسائر المؤسسات أن يواكب التغير والتطور . وقدمت اللجنة توصياتها فى أربعة مجالات كان أولها يتناول « شكل العبادة » . ويوصى بوضع مقاعد فى المساجد على غرار تلك الموجودة فى الكنائس وأن يدخل الناس إليه بالأحذية مع مراعاة نظافتها . وتلغى اللغة العربية من الأذان والصلاة نفسها بحيث تكون باللغة التركية . ولابد من تعميق الطابع الجمالى الرومانى للمسجد بإدخال الآلات الموسيقية القديمة والحديثة فيه ومعها عازفون متدربون للعزف عليها وخلق الجو المناسب . ويتحول دور الواعظ إلى دور الموجه الروحى انطلاقاً من مفاهيم فلسفية جديدة . ويتضح أن أتاتورك كان

يريد نقل نظام الكنيسة إلى المساجد وذلك تحت شعار العلمانية التى يفترض أنها بعيدة عن الأديان . وقد فشلت هذه المحاولة وماتت فى مهدها إزاء مقاومة الأتراك المتمسكين بدينهم .

ومن المؤكد أن محاولات العلمانية الحديثة لنسف الإسلام لا تنحصر فى إطار محاولات مكشوفة كتلك التى سعى أتاتورك إليها . لكنها مهما تقنعت بالأسماء البراقة كالاستنارة والعصرية والتقدمية فهدفها واحد وهو تمييع الإسلام وهز ثبات أركانه وإضعاف الإيمان به بعد تحويله إلى مسخ هزيل مبتور الأطراف فاتر بارد بحجة الإصلاح أو التجديد أو مسايرة العصر . وقد أحسنت مريم جميلة عندما ذكرت مصير ودوافع حركة الإصلاح اليهودى . فإذا كانوا هم قد فشلوا فهم يحاولون تصدير هذا الفشل مضاعفاً أثره بعداء مرير للإسلام ورغبة فى تشويهه وتحريفه . ولا يتسع المجال هنا وليس مما يتفق مع أغراض هذا الكتاب أن نواصل الربط الذى بدأته مريم فنتحدث مثلاً عن محاولات العلمانيين فى مصر ضد الإسلام وهى محاولات تشتد كلما ضرب الإسلام بل إن العصف بالحركات الإسلامية مقصود لإخلاء الساحة أمام هذه العناصر المدفوعة والتى لا تظهر إلا عندما تلتهب أحزان الإسلام .

الحركة الصهيونية

برزت فى الفصل السابق لمحات عن تصور مريم جميلة فى كتابها لنشأة الحركة الصهيونية بين يهود أوروبا وهى عندما تتحدث عن الحركة الصهيونية استكمالاً لمعالجتها لتاريخ اليهودية الحديث توجز لنا فى تسلسل واضح ظهور ونمو هذا التيار . ويتسم عرضها بالإيجاز والترتيب المنطقى فى سرد الأحداث وتحليلها وهو ما لم تقدمه لنا الكثرة من الدراسات العديدة المكرسة للبحث فى الصهيونية .

نشأت الفكرة الصهيونية لدى علمانيين يهود كانوا يأملون أن تحل المشكلة اليهودية فى أوروبا الشرقية على وجه الخصوص من خلال اندماج قومهم فى مجتمعات تلك البلاد فى القرن التاسع عشر . وكانت البداية فى روسيا حيث دعا العلمانيون اليهود إلى تبنى الثقافة الروسية والدخول إلى المجتمع الروسى من خلال الانخراط فى نظامه التعليمى كوسيلة لخروج اليهود من عزلتهم وفتح أبواب المستقبل الذهبى أمامهم . ولكن قامت حكومة القيصر فى مايو عام ١٨٨١ بإصدار قرارات معادية لليهود وبدأت سلسلة من أعمال الاضطهاد والمذابح المعروفة باسم البوجروم طالت اليهود فى روسيا وبولندا فى نفس ذلك العام .

وكان أول رد فعل لهذه الأحداث وأول دعوة صهيونية أيضاً قيام الحاخام زفى هيرش كاليشر (١٧٩٥ - ١٨٧٠) بكتابة منشورات دعا فيها إلى العودة إلى «أرض إسرائيل» هرباً من الاضطهاد الجديد .

وقوبلت هذه الدعوة بالرفض فى أوساط اليهود المتدينين لاعتقادهم أن المسيح المنتظر وحده هو الذى يملك حق قيادة اليهود عائدين إلى ما يصفونه بأرضهم . ولم يمنع ذلك من قيام حاخام آخر هو صموئيل موهيلفر (١٨٢٤ ـ ١٨٩٨) وهو من كبار حاخامات أوروبا الشرقية بتأليف رابطة محبي صهيون التى تأسست فى وارسو عام ١٨٨١ كرد فعل آخر لأحداث ذلك العام . وفى نفس الوقت تأثر ليوبنسكر بمذابح أوديسا فى السنة نفسها وتخلى عن أفكار الاندماج فى المجتمع الأوروبى التى كان يعتنقها وآمن بضرورة ما أسماه بحق تقرير المصير لليهود . وكان كتيبه فى هذا المعنى دليل عمل لحركة محبي صهيون .

أما مؤسس الصهيونية العالمية فهو تيودور هرتزل . فقد كان يغطى محاكمة الضابط اليهودى الفرنسى النقيب ألفريد دريفوس فى باريس خلال يناير ١٨٩٥ كمراسل صحفي وساءته روح التعصب لدى القضاة والجمهور والصحافة ضد هذا الضابط المتهم خطأً بالخيانة العظمى . وبعد رؤيته لتخفيض رتبة دريفوس وسط صيحات «الموت لليهود» سارع إلى كتابة رسالته المشهورة «الدولة اليهودية» والتى صدرت عام ١٨٩٦ متضمنة برنامج الصهيونية السياسى . وقد تخلع هرتزل عن إيمانه السابق بالاندماج وبدأ حملة محمومة لإقناع كل ذوى النفوذ فى أوروبا بفكرة الدولة اليهودية . وخاطب وقابل البابا والملوك ووزراء الخارجية ورجال البنوك وكانت جهوده منصبة على الحصول من السلطان

عبدالحميد الثانى حاكم فلسطين على ميثاق قانونى يسمح بإقامة دولة يهودية فيها .

ورفض السلطان هذه المحاولات بكل قوة وتنبأ بأنها لن تنفذ إلا بعد تمزيق الدولة العثمانية وهو ما حدث فعلاً بعد وصول حزب تركيا الفتاة الذى يحركه الماسونيون إلى الحكم عام ١٩٠٨ ليسقط السلطان نفسه ويمهد لسقوط الخلافة على يد كمال أتاتورك عام ١٩٢٤ وتقوم إسرائيل عام ١٩٤٨ .

وعقد هرتزل عام ١٨٩٧ أول مؤتمر صهيونى فى مدينة بازل فى يومى ٢٩ ـ ٣١ أغسطس . وبينما فشلت جماعة محبي صهيون فى تحقيق نتائج ملموسة من مؤتمرها الذى عقدته فى مدينة كاتوفيتسا البولندية عام ١٨٨٥ نجح هرتزل وانضم إليه أفراد هذه الجماعة . وتمخض مؤتمر بازل عن برنامج يعلن : «إن هدف الصهيونية هو إقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين يحميه القانون العام» . «وتأسست المنظمة الصهيونية العالمية وجناحها المالى الصندوق الإعمارى اليهودى قبل نهاية المؤتمر ، الذى صرح بعده هرتزل بثقته الأكيدة فى أن الدولة اليهودية ستقوم بعد خمسين عاماً وقد تأخر ميعاد قيامها عن ذلك التاريخ بعام واحد فقط .

ولم تحرز الحركة الصهيونية فى الثلث الأول من القرن الحالى كبير نجاح وواجهتها معارضة من ثلاث جهات يهودية . أولها من لا يؤمنون

بواقعية الفكرة وثانيها دعاة الاندماج فى المجتمع الغربى من المؤمنين بحركة اليهودية الإصلاحية . وثالثها من اليهود المتدينين الأرثوذكس الذين رأوا أن الشتات هو عقاب إلهى على ذنوب إسرائيل وأن المسيح المنتظر وحده له الحق فى إعادة اليهود إلى فلسطين بعد أن يتوبوا عن ذنوبهم ويتخلوا عن اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار مهما فعلوا من خيانة فى حق ربهم بالتقصير فى اتباع التعاليم الدينية . لكن الصهاينة الذين كانوا فى الغالب علمانيين ملحدين رفضوا هذا الاعتراض وأعربوا عن عدم إيمانهم بالمسيح المنتظر وأكدوا عزمهم على إقامة الدولة اليهودية بأسلوب السياسة والقوة الدنيوى . وتقتبس مريم جميلة فقرات من كتاب محمد أسد **الطريق إلى مكة** يحكى فيها طرفاً من الصراع الذى نشب فى المجتمع اليهودى بين الأرثوذكس والصهاينة ويذكر أن أحد رافضى الفكرة الصهيونية من اليهود وكان مقيما فى فلسطين لأسباب دينية قد قتل على أيدى الإرهابيين الصهاينة فى العشرينات من القرن الحالى لقاء مقاومته لمشروع الدولة اليهودية .

ويبدأ فصل آخر من تاريخ الحركة الصهيونية مع ظهور ونمو الحركة النازية فى ألمانيا وعدائها لليهود . وعلى الرغم من هذا ترى الكاتبة أن الصهيونية واليهودية التقتا على تحليل واحد للمسألة اليهودية يرى أن اليهود على اختلافاتهم يمثلون شعباً واحداً وأن العداء للسامية أمر لا يمكن استئصاله لارتباطه بالطبيعة القومية للشعوب الأوروبية وأن

اليهود لا يمكن أن يندمجوا فى المجتمع الغربى وسيستمرون فى أن يكونوا مصدر اضطراب فيه . ونجم عن ذلك الاتفاق التلقائى فى النظرة ما عرف فى التاريخ الصهيونى أو اليهودى القريب باسم «الخيانة» وهو اتباع زعماء الوكالة اليهودية فى ألمانيا عن إخبار يهود أوروبا الشرقية بأن القطارات التى تحملهم إلى ألمانيا كانت تقودهم فى الحقيقة إلى معسكرات الاعتقال والموت . ونتيجة لذلك لم تقم ثورات يهودية ضد الألمان فى تلك المناطق وكان الثمن هو تمكن عدة مئات من زعماء الحركة الصهيونية من الهروب من ألمانيا والمناطق التى سيطر عليها النازى .

والهدف الذى سعى إليه زعماء الصهيونية من هذا العمل هو استغلال إبادة النازى لأعداد من قومهم (وهى التى ضخموا فيها حتى وصلت إلى ستة ملايين شخص) للقيام بحملة دعائية كبرى لكسب تعاطف شعوب العالم الغربى مع قضيتهم وإخافة اليهود المتبقين فى أوروبا الشرقية والوسطى وإقناعهم بالهجرة إلى فلسطين . ومع الدعوة فى الغرب إلى منح اليهود المضطهدين وطناً فى فلسطين شنت الدوائر الصهيونية حملة تشويه إعلامى ضخمة فى الغرب ضد العرب مصورة إياهم بالتخلف والعداء للحضارة الغربية وذلك للتغطية على جرائم هذه الحركة ضد الفلسطينيين والتى بدأت مع إجرام عصابات مناحم بيجين وأمثاله . وفى نفس الوقت ساعد الصهاينة أن قوانين الهجرة المتشددة فى

أمريكا وبريطانيا وأستراليا وكندا والأرجنتين حالت دون ذهاب اليهود الأوروبيين إليها كما كانوا يرغبون وسهلت إقناعهم بالذهاب إلى فلسطين ولو على مضض . وهكذا فإن الدول الغربية التى ساعدت على قيام اسرائيل فى أرض المسلمين هى التى رفضت استقبال اليهود المهاجرين رغم تباكيها على الإنسانية الضائعة ووحشية النازى ضد اليهود المساكين .

واشتدت الدعاية الصهيونية ضد العرب وبالذات فى الولايات المتحدة حيث استخدمت كل وسائل الإعلام وبفعالية لنشر الدعاية الصهيونية مع حجب وجهة النظر العربية . وتحول دعم إسرائيل مادياً ومعنوياً إلى القضية الأساسية فى انتخابات الرئاسة وبرامج الحزبين الكبيرين . وبرزت شخصيات أمريكية معروفة فى الدعاية لإسرائيل وجمع المال لها مثل إليانور روزفلت زوجة الرئيس الأمريكى التى فاق حماسها فى مساندة الدولة اليهودية حماس اليهود أنفسهم والتى كوفئت بعد ذلك بتلميع صورتها كداعية لتحرير المرأة ومشاركة فى وضع الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة. وكان هناك أيضاً السياسى الشهير أولاى ستيفنسون الذى ذهب إلى التليفزيون ليناشد الأمريكيين الانضمام إلى إسرائيل وفرنسا وإنجلترا فى غزو مصر عام ١٩٥٦ . وتذكر الكاتبة مشاهد الفرح الطاغى فى أمريكا يوم إعلان قيام دولة إسرائيل وتقول : انها كانت فى سن الرابعة عشرة حينئذ

وعلى الرغم من حبها للعرب فقد خدعتها الدعاية الصهيونية وسارعت للانضمام إلى منظمة مزراحى هاسعير الصهيونية الدينية للشباب ظناً منها أن إقامة إسرائيل تعنى عودة اليهود للعيش جنباً إلى جنب مع أولاد عمهم العرب ليحيوا قيمهم الدينية والثقافية المشتركة . وقد تركت هذه المنظمة بعد أشهر عندما اتضحت لها الصورة الحقيقية وراء إسرائيل .

وتعتبر مريم جميلة أن الدعاية الصهيونية المركزة ضد العرب هى ما دفع بالأمريكيين إلى مساندة إسرائيل فى حرب يونيو ١٩٦٧ . وتعكس هذه الدعاية كراهية متأصلة للإسلام . وهى تقتبس من صحف ومجلات هذه الفترة . تقول جريدة التايمز اللندنية يوم ٢١ يونيو من عام الهزيمة : إن القضية ليست أمراً فنيًّا يتعلق بحرية المرور فى خليج العقبة إنها قضية بقاء إسرائيل وهى جزء من عالمنا الغربى . وتقول مجلة التايم الأمريكية يوم ٩ يونيو : إن إسرائيل جزيرة من الثقافة الغربية والحرية والقانون وسط وحل من الكراهية النابعة من العصور الوسطى . وتعود نفس المجلة لتقول يوم ٢٣ يونيو : إن الإسلام ثقافة متحجرة لم تمر بإصلاح سياسى أو دينى حقيقي ينقلها إلى العصر الحديث . والعرب يكرهون إسرائيل لأنها دولة عربية حديثة ناجحة . وهى تمثل الأشياء التى يكرهونها لكنهم يرغبون فيها .

وتختتم الكاتبة عرضها السريع الموجز لتاريخ الحركة الصهيونية لتسجل فشلا هامًّا لها يستحق الالتفات وهو فشلها فى إقناع اليهود

الغربيين عموماً بترك عيشتهم المريحة المرفهة والهجرة إلى مدن الحدود الصحراوية ليدافعوا عنها ضد شعبها الأصلى ويملئوا الأرض ليحولوا دون عودة شعبها . إنهم يرسلون بالأموال فقط من بعيد .

ولا تنتهى قصة الصهيونية فهناك المجتمع الذى أقامته فى فلسطين المحتلة .

مأزق أرض الميعاد

تقدم لنا مريم جميلة لمحتين متناقضتين من الحياة الإسرائيلية وتحاول النفاذ منهما إلى رؤية لهذا المجتمع . اللمحة الأولى دعاء ألفه كبير حاخامات إسرائيل ونختارمنه العبارات ذات المغزى : يا أبانا الذى فى السموات ؛ يا حامى ومخلص إسرائيل بارك دولة اسرائيل التى تمثل فجر خلاصنا . وأنشر نورك فى قلوب زعمائها ومسئوليها ومستشاريها ووجههم بحسن مشورتك . وقو المدافعين عنها وتوج جهدهم بالنصر . وتذكر إخواننا كامل بيت إسرائيل فى شتاتهم . وأت بهم سراعًا إلى صهيون وإلى مدينتك مقرك القدس كما كتبت فى التوراة . ووحد قلوبنا على محبة اسمك والعمل بكل وصايا توراتك .

لم تستجب هذه الدعوة كما تقول الكاتبة لأن أغلبية زعماء إسرائيل (فى ذلك الوقت) كانوا يقولون عن أنفسهم:انهم ملحدون ولأن اليهود الغربيين يحجمون عن القدوم إلى أرض الميعاد . وتقدم هنا اللمحة الثانية عن الحياة الإسرائيلية . فبعد قيام هذا الكيان بقليل نشرت مجموعة من اليهود المتدينين تسمى نفسها حكماء القدس سلسلة إعلانات فى صحيفة نيويورك تايمز تدين فيها إسرائيل لإلحادها وكفرها بالتوراة . وتتحدث الإعلانات عن أن أبناء المهاجرين المتدينين لا سيما القادمين من البلدان العربية ينتزعون عنوة من آبائهم ويؤخذون إلى ملاجئ حيث يتم تلقينهم الإلحاد . وكان رد فعل اليهود الأمريكيين قويًا ضد دعاوى

مجموعة حكماء القدس إلى حد أنهم هددوا الجريدة بالمقاطعة واجبروها على عدم نشر مقالات تحمل مثل هذا الفكر الناقد لإسرائيل والكاشف عن ضعف تمسك هذا المجتمع بالعقيدة اليهودية .

ومن خلال ذلك التباين بين هوية دينية للمجتمع الإسرائيلي وبين واقع معلن أيضًا يدل على انتشار الإلحاد والنزعات اللادينية تحاول المؤلفة استكشاف أوجه أخرى للتناقض فى تلك الدولة المصطنعة وهدفها من وراء ذلك إظهار خلل الفكرة الصهيونية وفشلها فى تقديم رؤية موحده متسقة مع نفسها . وهى تختار جانبا اشتهر فى الدعاية الإسرائيلية عقب حرب الأيام الستة ونعنى به الحديث عما أسمى بجيل الصابرا وهو جيل اليهود الذين ولدوا فى فلسطين المحتلة وترعرعوا فى كنف المجتمع الإسرائيلي ومؤسساته التى يفاخرون بها لا سيا القرى الجماعية المعروفة باسم الكيبوتز . وقد قيل : ان هذا الجيل يمثل تجربة إنسانية رائدة لا مثيل لها . فهو جيل جديد حتى بين اليهود أنفسهم وهو نتاج تجربة فريدة فى التنشئة الاجتماعية ألا وهى تجربة الكيبوتز التى تجمع بين مفاهيم الشيوعية والصهيونية . وهو الجيل الذى كسب الحرب ضد العرب المتخلفين بفضل إحساسه القومى العميق وتفوقه العقلى . وقد التقط العديد من المعلقين العرب الأسطورة وبالغوا فى تضخيمها تحت ذلك الشعار المشهور «اعرف عدوك» والذى استغله البعض (أنيس منصور مثلاً) لنشر الإعجاب والانبهار باليهود تمهيدًا لأحداث

كان مقدرًا لها أن تؤدى إلى ما سمى بالسلام .

تعرض الكاتبة لهذا الجانب المهم من الحياة الإسرائيلية عبر دراسة أجراها استاذ يهودى أمريكى عليهم ونشرت عام ١٩٦٠ فى أمريكا تحت عنوان **أبناء الكيبوتز** . وقد اختار هذا الباحث قرية جماعية يديرها الحزب الشيوعى الإسرائيلى محلاً لدراسته . وبدء فى ملاحظة ظواهر الحياه فيها من السطح إلى الأعماق . فصور ستالين معلقة فى أماكن نوم التلاميذ هناك وفى فصولهم . ويقرأ المستوطنون صحيفة البرافدا والمطبوعات الشيوعية كما أن دراسة الماركسية اللينينية والتاريخ اليهودى مفسرًا من وجهة نظر المادية الجدلية إجبارية كما هى الحال فى الاتحاد السوفيتى . وعلى الرغم من هذه التنشئة المخططة إلا أن ولاء أفراد الكيبوتز للحزب الشيوعى وفلسفته يقوم على مجرد الالتزام البارد الآلى دون حرارة العاطفة التى تحول الفكر إلى سلوك شخصى ورؤية حياتية .

وإذا كان الأعضاء لا يؤمنون بالماركسية أيضًا لا يؤمنون بالدين ويعادونه ويكرهون المتمسكين به وقد نجح النظام التربوى فى غرس هذه الإتجاهات فيهم . إذ يصاغ منهج التعليم الأولى للأطفال على أساس نظرة طبيعية مادية للإنسان والحياة تستبعد أى فكرة دينية . ويقول أحد المشرفين على التعليم : إن جيلاً يربى على عدم الإيمان بالإله سيقوى إيمانه بالإنسان . وبما أن التوراة والإنجيل تدرس كنصوص أدبية تاريخية للأطفال وتتردد فيها كلمة «الرب» فإن المدرسين يفسرون للأطفال

سبب هذا الاعتقاد بظهوره قبل نشأة التفسير العلمى للظواهر الطبيعية . وأن الذين لا زالوا يؤمنون بالرب هم أولئك الذين لم يتلقوا تعليما علميًا ويحتاجون إلى شىء غيبى يفسر لهم الأمور التى لا يفهمونها . ونتيجة لذلك التلقين لا يؤمن الأطفال بالإله بل يسخرون مِمَّن يؤمن بالدين ويحتفل بمناسباته ويؤدى شعائره . وعندما وجد بعض هؤلاء الأطفال آباءهم يذهبون للمعبد صاحوا فيهم : لكنه لا إله هناك ، نحن لا نؤمن بالإله .

والشىء الوحيد الذى يؤمن به جيل الصابرا من مفاهيم الصهيونية هو وجود واستمرار الدولة اليهودية أى إسرائيل . لكنهم لا يهتمون بمبادئ أخرى تركز الصهيونية عليها كأهمية الثقافة اليهودية ووحدة الشعب اليهودى . وهم يشعرون بأن اليهودية وثقافتها متخلفة ولا يودون أن يبقوا فى إسارها . وتبتدئ مشاعرهم هذه من خلال تبرمهم وضيقهم من الأدب اليهودى وعزوفهم حتى عن قراءة أعماله الشهيرة المتضمنة فى المناهج الدراسية وهم يفضلون عليه مثلاً قراءة القصص الهندية والصينية . وينسحب نفس الضيق على التوراة والإنجيل التى ينفرون من مطالعتها ولا يحبون فيها إلا المواد ذات الصبغة التاريخية أو الأثرية المتصلة بدروسهم ورحلاتهم . ولا يهتم الطلبة عمومًا بالتاريخ اليهودى مفضلين عليه دراسة التاريخ الأوروبى ويشعرون أن اليهود لم يقدموا إسهامًا حضاريًا رائداً وأنهم كانوا دومًا مضطهدين .

ومن أخطر اتجاهات جيل الصابرا مشاعرهم العنصرية الحادة تجاه اليهود الشرقيين بملامحهم المتميزة وغلبة التدين بينهم . وهم يخجلون من اعتبارهم إسرائيليين مثلهم ويقولون : إن أشكالهم المنفرة حسب تصورهم هى سبب نشوء نزعات العداء للسامية .

ويخشون من أن هؤلاء المهاجرين إلى إسرائيل سيحبون الثقافة القديمة وهى ثقافة الجيتو بعقليتها المتخلفة . وتمتد هذه الكراهية إلى احتقار سمره بشرة اليهود الشرقيين والسخرية منهم بلفظ الشخوريم أى السود وتفضيل البشرة البيضاء والشقر عنهم .

ويقول البحاث الأمريكى اليهودى عن جيل الصابرا : إن رؤيتهم للحياة لا تمدهم بأى أساس لميديو لوجى للتضحية بالذات فى سبيل أى قيم عليا وأنهم لا يشاركون مفكرين من أمثال أحادهاعام ومارتين بوبر فى عقيدتهم بأن هدف ومعنى الصهيونية هو تخليد القيم اليهودية التاريخية وإقامة وطن روحى يهودى ذى ثقافة متميز فالصابرا على العكس من ذلك لا يرون أى تميز للثقافة اليهودية بل يعتبرونها جزءًا من الثقافة الغربية الحديثة التى ستكون الثقافة الواحدة للعالم فى المستقبل . وهدف إسرائيل يجب أن يكون القضاء على الثقافة اليهودية القديمة المريضة وقطع الروابط معها بغرض إقامة ثقافة حديثة . وهذا هو مأزق أرض الميعاد إذ يتحول شعار الصهيونية القائل « تعالوا إلى إسرائيل نُقيم دولة يهودية » إلى « تعالوا إلى اسرائيل نهرب من الماضى اليهودى . »

والصهيونية عند الصابرا ليست هى تمجيد الثقافة اليهودية مع الإصرار على وحدة الشعب اليهودى بل هى الروح القومية الإسرائيلية منفصلة عن تاريخ يرجع إلى ألفى عام مضت وعن الأشخاص أو الفئات اليهودية التى تمثل هذا التاريخ أو ترتبط به .

وهذه النظرة المتغربة عمومًا لا تقتصر على جيل الصابرا بل نجدها عند الجيل الأقدم ممثلاً بأحد أبرز أعمدة السياسة الإسرائيلية وهو وزير الخارجية الأسبق أبا إيبان . في كتابه **صوت إسرائيل** الصادر عام ١٩٥٧ يقول ان إسرائيل بحكم طبيعتها وتكوين المهاجرين إليها غريبة عن العالم الإسلامى المحيط بها ووثيقة الصلات ببلاد الغرب وعليها أن تتجنب الاندماج فى منطقتها بل تسعى إلى إغناء تراثها وثقافتها بمنتجات الحضارة الغربية الحديثة . ويرى أبا إيبان أنه إذا كانت تركيا قد ضحت بروابطها مع العالم الإسلامى العربى كى تكون الامتداد الشرقى للغرب فإن إسرائيل التى لا يربطها شىء بمنطقتها لا يمكن أن تضحى بروابطها الأصيلة مع الغرب فى سبيل التهالك على روابط جديدة تحصرها داخل عالم إسلامى معاد وتقطع عنها نور الغرب . وهو يعبر عن مخاوفه من أن تؤدى هجرة اليهود الشرقيين إلى تهديد هذا الاتجاه الغربى لإسرائيل . ويقول : وبدلاً من أن تنظر لمهاجرينا من البلدان الشرقية على أنهم يمثلون جسرًا يمهد لاندماجنا فى العالم العربى يجب أن يكوْن هدفنا غلغلة

الروح الأوروبية فيهم ولا نتركهم يجروننا إلى نزعة شرقية غير طبيعية بالنسبة لنا .

وترى مريم جميلة فى آراء جيل الصابرا وأبا ايبان المضادة لكل ما هو شرقى حتى ولو كان يهوديًا ضربة لآمال بعض الكتاب من أمثال ألفريد ليلينتال وأنتونى نتنج وزير الخارجية البريطانى الأسبق الذين يرون أنه فى الإمكان التعايش السلمى بين اليهود والعرب فى فلسطين بعد خروج المهاجرين اليهود الغربيين منها وبقاء الذين كانوا فى فلسطين قبل وعد بلفور مع اليهود الذين هاجروا من البلاد العربية وبعد عودة المهاجرين أو المبعدين الفلسطينيين إلى ديارهم . وهى تعتبر بحق أن أمثال هذه الخطط هى أحلام بعيدة عن الواقع لأن الصهاينة لن يقبلوا بها كما أن العرب أيضًا لا يرضون بديلاً عن عودة كامل أرض فلسطين إليهم . وهى تستشهد بأقوال ملك عربى (الملك سعود) الذى قال : إن إسرائيل سرطان ولا يمكن ضمان أمن المسلمين إلا بعد اقتلاع هذا المرض الخبيث بكامله .

وعندما ننظر إلى مطالب العرب اليوم (١٩٨٤) لنجد أن أكثرها تطرفًا لا يتعدى المطالبة بالضفة والقطاع منقوصين مع الاعتراف والتعامل مع الدولة الصهيونية والعبقرية اليهودية فإنه يحق لنا أن نضحك أو نشفق على سذاجة الكاتبة التى صدقت كل ما قيل . ولكن ماذا كان يمكن أن تفعل وهى فى باكستان تستمع إلى الدعايات النارية

التى رددت لتغطية عار ملوك ورؤساء عام ١٩٦٧ ؟

وفى الواقع فإن تحليل مريم جميلة لجانب من الحياة فى إسرائيل يحتاج بدوره إلى تحليل . لقد ركزت على جانب أبرزته الدعاية الصهيونية إبان كتابتها لمؤلفها لكنه انزوى الآن طى النسيان بعد حرب رمضان والتطورات السريعة التى وقعت بعدها . مسألة الكيبوتز وجيل الصابرا كانت بالفعل أكبر تمثيلية دعائية قامت بها الصهيونية بغرض رسم صورة معينة للكيان الإسرائيلى تخيف العرب وتكسب إعجاب الغرب بسائر اتجاهاته . فاليهودى الذى اشتهر بالعمل المالى والربوى يبرز فى هذه الأسطورة كمزارع يرتبط بالأرض (المسروقة) ويثمر الصحراء بإتباع أحدث ما توصل إليه العقل اليهودى فى علوم الزراعة . وهذا اليهودى الزارع الناشر للخضرة يمارس نشاطه التثميرى وسط مجتمع جديد مصاغ حسب النظريات الشيوعية أو الاشتراكية لكنه فى نفس الوقت يشبه مجتمعات رواد الغرب الأمريكى وهم يتكتلون فى وجه هجمات الهنود الحمر المتوحشين . واليهودى يواجه التوحش والتخلف ولكن فى شكل العرب ويتحصن ويزرع ويبدع فى قراه الجماعية أو التعاونية أو الحدودية بأسمائها المختلفة من موشاف إلى كيبوتز وهى القرى التى أعجب بها عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين !

وعندما تحاول الكاتبة إبراز تناقضات تجربة الكيبوتز فإنها لا تسعى

إلى التركيز على الإلحاد الذى ينشر فى أحد الكيبوتزات التابعة للحزب الشيوعى . بل هى تريد أن تطعن وتفضح تفسخ وتهاوى ادعاء الصهيونية بأنها خلقت مجتمعًا جديدًا ناجحًا . فهو ليس بناجح وليس بمجتمع . إن الإلحاد يكرس وسط الدولة اليهودية والعنصرية تطل فى بيئة قيل أنها ستوحد بين اليهود على خلاف أوطانهم الأصيلة والنزعة التغريبية مؤصلة فى دولة أو مؤسسات إجتماعية قيل:انها ستؤسس ثقافة يهودية أصيلة . كان هذا إذن هدف مريم جميلة . والآن بعد انكشاف الكثير عن إسرائيل وبعد شبه الهزيمة فى حرب رمضان وتحدد العلاقة بينها وبين أمريكا على أساس التبعية المالية والعسكرية المباشرة وبعد الأزمات الاقتصادية الطاحنة المخجلة انتهت اسطورة الكيبوتز وجيل الصابرا التى ما زالت تدرس حتى الآن فى معاهد العلم بالغرب على أنها من أهم وأخصب التجارب الاجتماعية فى القرن العشرين .

وظهرت الآن أساطير جديدة للدعاية الصهيونية كما تغيرت التوجهات فى إسرائيل نفسها . أصبحت النغمة فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانيات هى الحديث عن العقل اليهودى المبدع الذى لا يريد أن ينعزل عن منطقة اسرائيل ليندمج فى الغرب بل يشتاق إلى الاتحاد مع المال العربى والقوى البشرية المصرية لينشىء سوقًا «شرق أوسطية» مزدهرة . وسقطت نغمة المواجهة بين اليهود البيض العنصريين واليهود السمر الشرقيين لتحل مكانها صورة جديدة لتعاظم نفوذ اليهود الشرقيين

داخل الأحزاب اليمنية سواء المشكلة لليكود أو خارجه . وظهر لهؤلاء وجه عنصرى قبيح ضد العرب كرسته سياسات تجمع الليكود فى غزو لبنان عام ١٩٨٢ وما تبعه من مذابح ضد العرب المسلمين . وبينما كان البعض فى العالم العربى يبشر بقرب حل المشكلة الفلسطينية مع تزايد أعداد اليهود ذوى الأصل الشرقى فى الكيان الإسرائيلى فوجئ الجميع بأن الوجه السياسى لهؤلاء بالغ التشدد والتمسك بالتوسع والإستيطان والاستيلاء على المقدسات الإسلامية فى القدس والخليل وطرد عرب الضفة والقطاع . ومما لا شك فيه أن محاولات اللعب على صراع عنصرى بين اليهود الغربيين والشرقيين لاستمالة الأخيرين إلى الصف العربى بطريقة أو بأخرى قد فشلت . ويمكن القول : ان لأدوار فى إسرائيل قد انعكست إذا اصبح اليهود الغربيون الآن ومن مواقعهم داخل حزب العمل الإسرائيلى مثلاً هم من دعاة التفاهم أو الحلول مع الجانب العربى الرسمى بينما ترفض ذلك تجمعات معبرة عن اليهود الشرقيين وتطرح مطالب عنصرية فى مواجهة الفلسطينيين . ومع فشل التصورات القومية والعنصرية عن المجتمع اليهودى فى إسرائيل فإن التصور الذى يقوى بأهمية العامل الدينى (بمعناه الواسع عند اليهود والذى يشمل الهوية القومية) فى ترابط الكيان الصهيونى يصبح مطروحًا للتقبل بجدية بعد أن درج العلمانيون العرب على استبعاده لمجرد ارتكانه على رؤية دينية لا يطيقون مجرد ذكرها .

وإذا كانت المتغيرات قد حولت تركيز مريم جميلة على جيل الصابرا إلى مسألة تاريخية فمن المؤكد أنها بررت صحة تصورها عن وهم إقامة ما يسمى بالدولة الديمقراطية العلمانية التى تضم اليهود والعرب . إن هذا الوهم الذى طرح فى البداية على يد أجانب ومنهم يهود كان يقضى بتهجير اليهود الغربيين واعادة اللاجئين الفلسطينيين وكان معروضًا على المناقشة فى أواسط الستينيات . ولكن عندما تبنته منظمات الثورة الفلسطينية فى أواخر الستينيات أسقطت منه فى هدوء النص على تهجير اليهود الغربيين . وبالتدريج سقطت ملامح هذا الوهم الواحدة بعد الأخرى وحل محله مشروع الكيان الفلسطينى المتحد مع الأردن وهو أدنى مطالب العرب التى يلمحون أنهم على استعداد للتنازل عن أجزاء منه فى سبيل التصفية النهائية للقضية . وهكذا كان مشروع الستينات وهما فعلاً كما قالت مريم جميلة : ليس لأن العرب رفضوه فى سبيل المطالبة بكامل فلسطين ولكن لأنهم قبلوا بما هو أدنى منه واستمروا فى التنازل .

ومع تحليل الكاتبة لفشل الفكره الصهيونية فى إقامة مجتمع إسرائيل جديد على أسس من اليهودية فإنها أيضًا تحاول ابراز فشل أخر لهذه الفكرة وهو يتصل بزعمها أن اليهود جنس واحد من الناحية العنصرية . إذ يتفق علماء الأنثروبولوجيا على أن اليهود كالعرب نشئوا أصلاً من فرع البحر المتوسط للجنس القوقازى (الأبيض) . ويفترض

أن العبرانيين قد ظهروا منذ آلاف من السنين كقسم من حركة الهجرة لقبائل الهكسوس شبه البدوية الراحلة . وقد استقروا فى السهول الساحلية من فلسطين تحت اسم الإسرائيليين وعندما أقيمت مملكة يهودا عرفوا باسم اليهود وتفرق اليهود بعد تدمير دولتهم على يد الرومان عام ٧٠ ميلادية وانتشروا فى أماكن بعيدة . وقد هاجروا بأعداد كبيرة إلى روما ومصر والجزر اليونانية حيث كانت توجد من قبل بعض المجتمعات اليهودية . ومع الوقت هاجر اليهود واستقروا فى أسبانيا ووادى الراين بألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبولندا . ويمكن اعتبار الكثير من اليهود فى وقتنا هذا من أفراد الفرع المتوسطى من الجنس القوقازى إلا أن للكثير منهم ملامح جثمانية مختلفة . وقد امتزج اليهود منذ الأزمنة المبكرة مع الأجناس الأخرى فى الأماكن التى أقاموا فيها وعلى مر العصور . وحدث هذا الامتزاج بطرق عديدة كان منها دخول الآخرين فى الدين اليهودى أو الزيجات المختلطة التى كانت تحدث رغم القيود المفروضة ضدها . ولهذا نجد مثلاً أن عددًا لا بأس به من اليهود الألمان لهم نفس الملامح الجسدية التى كان النازى يحددونها كسمات الجنس الآرى .

وتضرب الكاتبة المثل على هذا الخليط العنصرى المشكل لليهود من واقع تجربتها الشخصية . إذ تتجلى فى جدها لوالدها وعمتها الملامح المعروفة للجنس السامى والشبيهة للملامح العرب بينما تنعكس ملامح الجنس الآرى الشمالى من شقرة الشعر وبياض الجلد فى جدتها لوالدتها .

وزوج أختها ملامح أوروبية مميزة لا تقرب لما يظن أنه الشكل اليهودى بينما تشبه أمه أى سيدة سامية أو عربية . وأطفال الجيران القادمين من تشيكوسلوفاكيا لهم أعين سمراء اللون وبشرة داكنة وأنوف معقوفة كأطفال يمنيين أو سعوديين .

نحو موقف إسلامى

تختتم مريم جميلة بحثها فى اليهودية والصهيونية لمجموعة من المقترحات والأفكار الموجهة للمسلمين العازمين على الجهاد لاستعادة فلسطين ومواجهة الخطر الصهيونى . وتهمنا هذه المقترحات لا لجدتها وفائدتها (وهى بالفعل جديرة بالاعتبار) ولكن للروح التى صيغت بها والمصدر الذى انطلقت منه . ها هى سيدة من أصل أمريكى يهودى تقيم فى الباكستان فى أواخر الستينات حيث الخطر الهندى حقيقي وماثل للعيان . ولا شىء يربطها بذلك التراب أو تلك الأرض العربية . لا شىء إلا الإسلام . ولهذا فهى تنسى الخطر القريب المباشر بتهديده الذى انفجر فعلاً فى عدوان الهند على باكستان عام ١٩٧١ . وتتجه بقلبها ومشاعرها وعقلها مئات الأميال أو آلافها إلى فلسطين والخطر اليهودى الصهيونى البعيد عنها جسدًا القريب عقيدة . وهى لا تنظر لفلسطين كتراب مقدس كما تغنى بها العلمانيون والقوميون العرب الذين خانوها وباعوها ويستعدون الآن لتصفية ما تبقي منها وسط أناشيد الثورة والكفاح . وإنما ترى فى فلسطين أرض الإسلام وبيت المقدس والخليل ولا تقف عند هذه الرموز التى لم تعد تثير أى إحساس فى قلوب الكثيرين وإنما تتعداها لترى فى تلك الأرض حلقة من أهم حلقات الصراع بين الإسلام واعدائه .

وعندما تتقدم هذه السيدة بمقترحاتها لحل قضية فلسطين من وجهة

النظر الإسلامية فإنها تحطم أكذوبة ظل أعداء الإسلام من العلمانيين يرددونها حتى الآن وقد بعثت على سبيل المثال فى مصر فى أوائل الثمانينيات فى إطار الهجمة الشرسة على الحركة الإسلامية فيها . وتقول هذه الأكذوبة البسيطة المظهر الموحية بالصدق إن أصحاب الفكر الإسلامى يجيدون رفض ونقد وتفنيد مقولات وطروحات ومذاهب مخالفيهم لكنهم يعجزون عن تقديم البديل عنها فى هيئة برامج مفصلة للعمل السياسى والاجتماعى . وتفترض هذه الأكذوبة أن لدى أعداء الإسلام برامج جاهزة وهو ماكشفت زيفه تخبطاتهم طوال سنين حكمهم لبلاد الإسلام كما أنها تتجاهل المجهودات الفكرية المتعمقة التى قام بها المفكرون الإسلاميون على امتداد الساحة الإسلامية والتى لم تجد طريقها إلى الجموع الإسلامية أو إلى التنفيذ لحرمان الاتجاهات الإسلامية من العمل والدعوة وضربها بصورة متصلة على مدى نصف القرن الذى انقضى .

وليس هنا مجال مناقشة الأكاذيب المشوهة للإسلاميين لكننا نقدم مقترحات مريم جميلة للكفاح الإسلامى فى مواجهة الصهيونية كنموذج لبرنامج إسلامى طرح فى خضم المعركة مع إسرائيل وفى نفس الوقت الذى كان فيه الشيوعيون والناصريون فى مصر يلقون باللوم فى النكسة على الإسلام المقيد فى سجون زعيمهم الخالد .

تقول الكاتبة : إن الهدف الأساسى للصهيونية هو إفناء الإسلام

ليس فى فلسطين وحدها وإنما فى مكة والمدينة كمرحلة تالية . ولابد من إعلان الجهاد للمواجهة العسكرية الحاسمة وهى السبيل الوحيد للحصول على الحقوق وليس التفاوض (رحم الله أيام كامب ديفيد وما انتهت إليه) . وقبل الجهاد لابد من اتخاذ الخطوات الآتية :

١ ـ تسوية جميع الخلافات بين الدول الإسلامية والتعاون لتكوين جيش إسلامى دولى تحت قيادة موحدة .

٢ ـ ضرورة تصفية جيوب وحركات الماسونية فى العالم الإسلامى .

٣ ـ التحرر الكامل من التبعية الاقتصادية لأمريكا أو روسيا والاكتفاء الذاتى عسكريًا .

٤ ـ القيام بحملة إعلامية واسعة لإبعاد العالم المسيحى عن تأييد الصهيونية بالتركيز على أنه ليس من مصلحة هذا العالم دعم إسرائيل . وتؤكد هذه الحملة بتأميم المصالح الغربية وطرد القواعد العسكرية وأنواع المقاطعة التجارية .

٥ ـ التأكيد على الطبيعة الإسلامية للجهاد أو حرب التحرير وذلك باستبعادية دوافع قومية أو اشتراكية أو عنصرية . ويجب أن يكون واضحًا أن الجهاد يهتدى بما نصت عليه الشريعة الإسلامية من ضرورة إعلان الحرب رسميًا وعدم قتل المدنيين أو تدمير المنشآت المدنية الاقتصادية أو استخدام الأسلحة المحرمة دوليا كالنابالم والغازات السامة وتحريم هتك الأعراض أو النهب وإحسان معاملة الأسرى .

وإذا كتب النصر للجهاد الإسلامى العالمى فيجب اعتقال قادة إسرائيل والمطالبة بتسليم قادة الحركة الصهيونية العالمية ومحاكمتهم على جرائم الحرب التى ارتكبوها ويعدمون فورًا بعد إدانتهم . كما يعامل اليهود والمسيحيون المقيمون فى فلسطين كأهل الذمة ويقتضى ذلك أن يتمتعوا بكامل حرية العباده اتباع شرائعهم وتعليم أديانهم لأبنائهم والحفاظ على سلامة معابدهم وكنائسهم . ويدفعون الجزية بديلاً عن الزكاة ويعفون من الخدمة العسكرية ولكن لا ينتخبون أو يعينون فى مناصب كبيرة لعدم إيمانهم بالإسلام وهو أيديولوجية الدولة . وتغلق محافل الماسونية ويعاقب من يؤيدها بعد ذلك بالنفي . ويسمح لمن يريد من اليهود مغادرة فلسطين بالهجرة كما ينفي من لا يقبل وضع الذمة منهم . ولا تشك مريم جميلة فى أن اليهود المتدينين سيفضلون البقاء فى ظل حكم إسلامى عن العيش تحت دولة علمانية (دول الغرب) تحارب نفسهم الدينية . وتنصح بالدعوة الإسلامية فى أوساط هؤلاء اليهود وأوساط المسيحيين العرب الذين يجب أن يدركوا أن الكنائس الغربية تؤيد إسرائيل والصهيونية . ولابد من إعادة كل الممتلكات والأراضى فورًا إلى أصحابها .

ومن أهم دعائم الإعداد للجهاد المعرفة الكاملة بالعدو من خلال مصادره الأساسية مقتدين فى ذلك بأئمة الإسلام الأول كابن تيمية مثلاً الذى كان من العليمين بعقائد وأفكار اليهودية والمسيحية . وترى

المؤلفة ضرورة أن يعرف الباحث المسلم اللغة العبرية ولغة اليدبش وأن يدرس الكتب اليهودية المقدسة لا سيما المدراش وهو تفسير تأويلي على هامش التوراة ويعد المصدر الرئيسي للإسرائيليات المتسربة إلى بعض كتب التفسير الإسلامية وهي تقترح دراسة الأعمال التي ألفها كل من سعاديا جاعون وراشي ويهوداها ليفي وموسى بن ميمون بجانب التعرف على الأدب العبري الحديث عند حاييم نحمان بياليك وأحادها عام ومندلي وشوليم عليخيم وشوليم أش وكلها تصور جوانب من الحياة والمزاج اليهودي . وتقترح التأمل في الكتابات الصهيونية الحديثة عند ليوبنسكر وتيودور هرتزل وحاييم وايزمان وديفيد بن جوريون ومناحم بيجين وأبا إيبان وموسى ديان .

ويجدر بالذكر هنا أن دعوة دراسة كتابات اليهود والصهاينة قد أصبحت موضة ما بعد النكسة وكتب فيها الكثير جدًا ولكن من وجهات نظر لا صلة لها بالاسلام إن لم تكن تعاديه . ويذكر القراء المصريون مثلاً أن صحيفة الأخبار القاهرية الموالية للسلطة المصرية كانت تنشر في خضم علاقة السادات مع اليهود صفحة أسبوعية شعارها المرفوع التعرف على الفكر الإسرائيلي ولكن واقعها فتح نافذة للحديث عن هذا الكيان وتقديمه للقارىء المصري في صورة الدولة الديموقراطية الحديثة الجديرة بالإعجاب في العديد من جوانبها . وفي المقابل فإنه عندما نشرت مجلة الاعتصام المصرية الإسلامية ترجمات مطولة من

كتاب حاييم وايزمان **التجربة والخطأ** تعرضت لحملة دعاية وكراهية من جانب الإسرائيليين وألقي القبض على مترجم هذه الكتابات واتهم بقيادة تنظيم لقلب نظام الحكم وهو ما عرف بقضية الجهاد التي حوكم فيها مئات الشباب المسلم المؤمن .

ويلفت النظر في مقترحات مريم جميلة اهتمامها بالدور الهدام الذي تلعبه الماسونية وهو دور لم يكتب عنه بعد وعن ألعاب ما وراء الستار في مسرح السياسة العربية عمومًا . ويبرز أيضا رفضها لاستخدامها الأسلحة المحرمة ضد اليهود وهي الأسلحة التي استخدمها عبد الناصر في اليمن ضد المسلمين وصدام حسين في حربه ضد إيران الإسلامية فضلا عن استخدام اسرائيل لها . أما عن دعوتها للاستقلال العسكري والاقتصادي فلاشك أنها ستصاب بصدمة عندما تقرأ عن القواعد التابعة للروس والأمريكان والتي أقيمت عقب عام ١٩٦٧ وكلها بحجة دعم الأمن العربي وليست قوات الانتشار السريع عنا ببعيد . وانتهى الأمر باستخدام سلاح النفط إلى بيعه لإسرائيل بالثمن المؤجل .

وتوجه الكاتبة الدعوة إلى المسلمين لتعليم الحفاظ على الهوية والذات من اليهود الذين احتفظوا بتماسكهم لمئات من السنين رغم وجودهم في بيئات معادية لهم . كما أنها توجه سؤالا إلى أصدقائها السابقين من اليهود : هل لو عاد موسى إلى الحياة وذهب إلى إسرائيل بقراها الشيوعية وازدهار تجارة الخنازير بها سيجد فيها المؤمنين به حقًا أم

سيجدهم فى مصر التى هرب منها مكدسين بالآلاف فى معسكرات اعتقال عبد الناصر يعذبون لأنهم إخوان ومسلمون لكنهم سينسون آلام التعذيب حالما يرون موسى ويلتفون حوله باكين بدموع الفرح والإيمان ؟ وهل موسى ديان أولى بداود أم شهداء الأردن الذين احترقوا بالنابالم فى شوارع القدس ومدن الضفة ؟ وكم هى مؤثرة كلمات مريم وهى تهتف بحسرة إن نبوءة الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن دخول المسلمين جحور الضب وراء اليهود والنصارى قد تحققت فهاهم الحكام المنتسبون اسمًا للإسلام يذبحون المسلمين ويقتلونهم ويبيعون أراضيهم للأعداء ويفعلون بهم ما لم يفعله هؤلاء المخالفون من أهل الكتاب . وهى تتساءل : من أعظم خيانة لشعبنا المسلم من الخديوى إسماعيل الذى باع مصر للإنجليز ؟ ومن أكثر عداءً للشريعة والدين من النظام الأتاتوركى والناصرى والبعثى أو البورقيبى ، الذين رفضوا الوحى الإلهى لصالح الأنظمة العلمانية واضطهدوا المؤمنين ؟ وهل كان اليهود أو النصارى هم المسئولون فى الماضى عن استشهاد الأئمة العظام عثمان وعلى والحسين وسجن الامام ابن حنبل وابن تيمية ؟

إنها دعوة للتعرف على الأعداء المستترين والمنافقين وصنائع خصوم الدين ممن فرضوا على مقاعد السلطة والنفوذ فى بلاد الإسلام . وهنا تترك مريم جميلة اليهودية والصهيونية بعد أن تصل إلى من يخدمونهما داخل صفوف المسلمين .

الإسلام فى مواجهة المسيحية ونشاطاتها التبشيرية فى البلدان الإسلامية

مريم والمسيحية

تحدثنا مريم جميلة عن موقف فكرى اتخذته من المسيحية وهى فى فترة مقتبل الشباب وقبل أن تعتنق الإسلام . فعلى الرغم من إعجابها بالقصص المروية عن عيسى عليه السلام فى الإنجيل إلا أنها كانت تنفر من سمات معينة فى هذا الدين كما عرفت وقرأت عنه فى تطوره ووضعه الراهن . وأول ما أثار رفضها خيانة المسيحية نفسها لمؤسسها وتعاليمه المسجلة حتى فى العهد الجديد المتداول الآن . وتتمثل هذه الخيانة فى إدماج عناصر وثنية يونانية ورومانية وفارسية واعتبارها من عقائد الدين وممارساته بدلاً من نبذها كبدع وتحريفات . والمسئول عن هذا التقبل هم رجال الدينى الذين لم يكن بينهم نظير للمجددين من علماء الإسلام الذين حافظوا على نقاء الدين من البدع .

وأدت هذه العناصر الغريبة إلى تعقيد اللاهوت المسيحى وإدخال تلك الأفكار عن الثالوث والتجسد والخطيئة الأصلية والفداء والكنيسة التى رفضها العقل اليهودى الموحد كما رفضها الإسلام . وتؤكد المؤلفة أن اليهود الذين دخلوا المسيحية لم يعتنقوها عن إيمان بسبب نفورهم من هذه الأفكار الغريبة عن عقيدة التوحيد وإنما كان دخولهم فيها هربًا من

اضطهاد أو بحثًا عن التقبل الاجتماعى داخل وسط «الأميين» وهى تقول : إن أهم عيوب المسيحية فى رأى اليهود كما هى فى رأى الإسلام افتقارها إلى المصدر الإلهى الموثق الصحيح . فالأنجيل ليست إلا أربعة اختيرت من بين العديد من السير الموضوعية عن حياة المسيح عليه السلام بلغة لم يكن يعرفها هى اليونانية ولم تعتمد كنصوص مقدسة إلا بعد أربعة قرون من صلبه المزعوم . وتعبر عن عدم فهمها لاعتبار رسائل القديس بولس موحى بها من الإله ، وهى مجرد تعليمات صادرة منه إلى عدة كنائس فى الإمبراطورية الرومانية . وترى أن العقل المسلم لا يستطيع أن يقبل بتحول المصدر الإنسانى إلى سلطة معصومة فى أمور تتصل بالعقيدة كما حدث فى المسيحية من خلال كهنوت الكنيسة الكاثوليكية أو ترك الحرية فى تصور العقيدة للفرد بإعتباره يحمل نور الرب فى قلبه كما يسود الاعتقاد بين دوائر معينة فى الكنيسة البروتستانتية . والمسيحية فى التحليل الأخير دين وضعه البشر وتطور عبر مقولات البابوات والقديسين والملوك الدينويين والمجامع الدينية .

وأكثر ما رفضته مريم جميلة فى المسيحية هو نبذ القديس بولس للشريعة وإحلال الإيمان بالمسيح كمخلص للبشر من خطاياهم محلها وذلك ليجعل هذا الدين مقبولاً عند العالم اليونانى الرومانى بتوقعاته الخلاصية . والمسيحية خلو من أى نظام متكامل للهداية يكون بمثابة العامل الحاسم فى الشئون الاجتماعية والسياسية . أما الإسلام (واليهودية

أيضا كما ترى المؤلفة) فيذهب إلى أن لا أثر للإيمان على الحياة البشرية إلا إذا شمل الإيمان بالله كخالق ولكن أيضا كهادٍ ومشرع وحاكم . يرى الإسلام أن الله أرسل إلينا هديًا متكاملاً يوضح كيفية السلوك الفردى والجماعى وأن النجاة الأبدية لا تضمن إلا بالحياة طبقًا للكيفية التى أرادها الله . أما المسيحية فتنظر إلى الشريعة (الموسوية) ولا سيما ما يتصل منها بالشئون الاجتماعية والسياسية كمجرد شكليات وطقوس جوفاء . وترى مريم جميلة أن وجود الشريعة كنمط موحد لتصور الحياة يوحد بين المسلمين من أندونيسيا إلى المغرب ويعمل على الربط بينهم بمجرد وجوده ولو نظريًا فى أذهانهم أما انعدام مثل هذا النمط فإنه لا يساعد على الوحدة المسيحية فلا شىء مثلا يربط البروتستانتى الأمريكى بالقبطى الأثيوبى .

وأشد ما نفر الكاتبة من المسيحية ارتباطها الوثيق التاريخى بأوروبا والحضارة الغربية . فقد كانت كلمة المسيحية تذكرها فى طفولتها بظواهر مثل محاكم التفتيش الإسبانية والحروب الصليبية ومذابح اليهود فى روسيا وبولندا وتحت حكم النازى بسكوت أو برضا الكنائس . والمسيحية الأوروبية تعاونت مع الصهيونية بنشاط تحت زعم التكفير عن خطايا الماضى فى حق اليهود . وترى أن المسيحية تحالفت مع الإمبريالية الأوروبية منذ عهود الحملات الصليبية لتمثل أشد الأخطار على العالم الإسلامى ، وكان المبشرون النصارى دومًا طلائع الغزو

والهيمنة الأوروبية فى أمريكا وآسيا وأفريقيا وهم يعملون من خلال مؤسساتهم التعليمية والخيرية على فصل الأجيال الجديدة عن ثقافتها الأصلية وإلحاقها بثقافة وعادات وسلوكيات الغرب مما يجعل من النشاط التبشيرى أهم أدوات تغريب العالم خارج إطار الحضارة الغربية . ويتضح هذا الاتجاه الغربى المتأصل فى الكنيسة فى عدم تقبل غير البيض كأكفاء مهما آمنوا بالمسيحية واتبعوا تعاليم الكنيسة فهم ما زالوا مضطهدين فى جنوب أفريقيا بل وفى أمريكا ذاتها . ومما يدل على أن الكنيسة والنشاط التبشيرى هى أفرع للزحف الاستعمارى وعمليات التغريب انهماك هذه المؤسسة فى النشاط الخارجى على حساب العمل الداخلى وسط الشعوب الأوروبية والأمريكية التى لم يعد الكثير من أفرادها يؤمنون بالمسيحية بل وتنتشر بين المسيحيين أنفسهم أفكار عن إنكار الوحى الإلهى والثواب والعقاب فى الآخرة ويناقش بعض اللاهوتيين الأمريكيين ما إذا كان الإله قد مات فعلاً ! ويتأيد رأى مريم جميلة هذا بما لاحظه مراقب إنجليزى فى الفاتيكان (خلال شهر سبتمبر عام ١٩٨٤) من أن رحلات البابا الخارجية الكثيرة تأتى وسط إهمال لمنطقة عمله التقليدية فى إيطاليا .

وليس أدل على صواب ملاحظات الكاتبة فى الفقرة الأخيرة على أن اتجاهات العمل الكنسى فى السبعينيات ركزت على تأصيل وجود المبشرين فى بلدان آسيا وأفريقيا بقبول قساوسة محليين للعمل فى

الكنائس والادعاء بالرغبة فى المحافظة على الثقافة المحلية واستنكار الممارسات الاستعمارية والفصل بين الكنائس وبين سياسات الدول الغربية بل وإدانة العديد من هذه السياسات فى المجالات الاقتصادية مثلاً ، والتقرب من الحركات الوطنية وتخصيص الأموال لمساعدتها . وكلها محاولات لتجنب اتهامات كتلك التى تشير اليها مريم جميلة والتى رددها الكثير من الكتاب الأوروبيين فى أوائل السبعينيات منتقدين الكنيسة التى سارعت بالتغيير دعماً لكفاءة التبشير فى وجه المد الإسلامى الذى نشط فى أماكن عديدة فى آسيا وأفريقيا .

وتعود مريم جميلة لتلح على بعض ما رفضته فى المسيحية . فتستعين بمقتطفات من كتاب موجز تاريخ العالم للكاتب والروائى الإنجليزى هـ . ج . ويلز يبرز فيها التناقض بين صورة المسيح فى الأناجيل كبشر ونبى يتجول فى أنحاء فلسطين يصحح مفاهيم الألوهية التى أفسدها اليهود ويبشر بوحدة البشر فى مملكة الرب وبين تلك الصورة الجامدة المعزولة عن الحياة والتى تطورت عنه بعد إسباغ عقيدة التأليه عليه . فالمسيح حسب تصور ويلز داعية بشرى إلى إصلاح القلوب وتطهيرها وتغيير الحياة إلى الأفضل فى العمل على خدمة الاله المحب للجميع أما الذين ألهوه فقد حولوه إلى كائن يعلو عن الحياة وأحوالها بينما كانت رسالته نفسها دعوة إلى تغيير الحياة الفردية والاجتماعية بالكامل .

وتتوقف الكاتبة عند موعظة الجبل لعيسى عليه السلام كما جاءت

فى الإنجيل فتلمح فيها عبارات ذات مغزى : بورك من يظمئون ويجوعون للحق لأنهم سيشبعون ، بورك من يضطهدون فى سبيل الحق لأنهم يرثون مملكة السماء ، لا تظنوا أنى بعثت لألغى شريعة الأنبياء فلم أجئ لأنسخ بل لأحقق لأننى أقول لكم بالحق إنه لن تنقصنى ذره من الشريعة قبل انقضاء السموات والأرض . وهى ترى فى هذه الفقرات موقفا محددا يقر بالشريعة كنظام للهداية فى الدين . لكن القديس بولس أبطل الشريعة الموسوية بأسرها بمبادرة مستقلة منه ليجعل المسيحية مقبولة عند العالم اليونانى الرومانى . وكانت وسيلته فى ذلك مقولة معقدة تعتمد على المفارقة : إن نص الشريعة يقتل بينما تهب روحها الحياة . وقد رأى بولس أن ما ينجى البشر ليس أعمالهم وإنما الإيمان بصلب المسيح ونزف دمه تكفيرًا عن خطايا البشر أجمعين . ومن يؤمن بالمسيح كمخلص سينال الخلاص الأبدى . ولهذا فإن تعاليم شريعة موسى باستشناء الوصايا الأخلاقية تصبح ملغاة لأنه لا داعى لها فى النجاة وتأمين الخلاص للبشر. ويضرب بولس المثل لليهود بالختان . فيقول : إن الاختتان تنفيذ لشريعة موسى قد لا يمنع الوقوع فى الخطايا وهو يصبح فى هذه الحالة بلا معنى أو كعدم الاختتان « فما هى فائدة الختان لليهودى » ؟ .

ونلمح هنا نفس الحجة التى يرددها اليوم العلمانيون من أعداء الإسلام وشريعته فى مصر. ومن الغريب أنهم يلجئون إلى مفهوم دينى

مسيحى (هو رأى بولس) لتبرير موقفهم المعادى للدين أى الإسلام . ويبدو رأيهم للوهلة الأولى منطقيًا : إن تطبيق الشريعة الإسلامية بحلالها وحرامها وحدودها وعقوباتها بل وعباداتها وأخلاقياتها لن يحول الناس إلى ملائكة ولن يمنعهم من الخطيئة فما هى جدواها ؟ أليس من الأفضل أن نتجه للإقناع والإصلاح النفسى ؟ وهم يذهبون بعد هذا الدرس فى التقوى والورع إلى صياغة وفرض قوانينهم الخاصة العاملة على تغيير المجتمع وتحديد قيمه ونطاق عمله حسب تصوراتهم ولا يكلفون أنفسهم عناء الإقناع والإصلاح النفسى . فهذه الحجة تصوب فقط فى وجه المطالبين بالشريعة أو القوانين الإسلامية لكنها تختفى عندما يتعلق الأمر بالقوانين العلمانية على اختلاف اتجاهاتها . وترد مريم جميلة على القديس بولس برأى جدير بالعناية لأنه ينطبق على خصوم الإسلام الآن .

فهى ترى أنه لم يدرك أن الشرائع أو القوانين وإن كانت عاجزة عن إجبار الناس على الفضيلة إلا أنها تمهد الطريق لهذه الغاية بحث الناس على انتهاج جادة الصواب . كما أنها إذا حظيت بإسناد اجتماعى قوى تؤدى إلى تخفيض الشرور إلى حدها الأدنى . ومن الصحيح أن عيسى عليه السلام أدان التمسك الظاهرى الأجوف بنص القانون أو الشرع مع مخالفة روحه أو مقصده لكنه لم يدعُ أبدًا إلى إهمال الشريعة الموسوية بحجة عدم جدواها . أما بولس فقد تصرف من تلقاء نفسه ونبذ هذه

الشريعة وألغى الختان وأحل أكل الخنزير وشرب الخمر للمؤمنين دون اعتماد على نص صريح من صاحب الدين وليته وقف عند هذا الحد بل مضى إلى الزعم بتجسد الإله فى عيسى وهو ما لم يقل به المسيح نفسه. وهكذا ترك المسيحيون منذ عهد بولس الرسالة وعبدوا الرسول وتحولت النصرانية إلى دين يدور حول عيسى ولا يأخذ بتعاليمه . والسبب وراء كل ذلك هو بولس ! !

وتقارن مريم جميلة هذه المواقف بتصورات الإسلام . فالقرآن والحديث يدينان كبر اليهود وتمسكهم الظاهرى بنص شريعتهم مع مناقضة روحها وجوهرها . لكن الإسلام يفترق عن المنسيحية فى حفاظه على صفاء ونقاء فكرة التوحيد بإعلانه عن نبوه عيسى وتكفيره لدعاه التثليث . والإسلام يحفظ الشريعة الإلهية التى أسقطها المسيحيون قائلين بعدم نفعها ونسخها . ويعلم الإسلام أن الله ليس الخالق والقيوم والمنجى فحسب بل هو الحاكم والسيد الوحيد لهذا العالم . ولن يكون الله حاكمًا إلا إذا أنزل على أنبيائه هداية كاملة تحدد للبشر كيف يوجهون حياتهم أفرادًا وجماعات لتحقيق السعادة فى هذه الحياة الدنيا والنجاة فى الآخرة . وفى رفضه للشريعة الموسوية بل لمفهوم الشريعة نفسه كان بولس ومن خلفوه فى الكنيسة المسيحية يعلن نبذه لهذه الهداية والتوجية الإلهى ويذر الدين مجرد خليط من اللاهوت المعقد والطقوس المقدسة تمتزج كالبوذية باتجاهات رهبانية وتنسكية قوية .

وترك هذا الدين بعد فصل الشريعة الإلهية عنه محدودًا ومجزءًا وفتح مصراع الباب أمام دخول العقائد الوثنية كالطوفان بحيث أصبح القسم الأكبر مما هو موصوف اليوم بالمسيحية بما فيه التقويم المسيحى ذا أصل وثنى .

وهنا تترك مريم المجال لباحث باكستانى اسمه فضل الرحمن أنصارى القادرى الذى تتبع فى كتابه **الإسلام والمسيحية فى العصر الحديث** التأثير الوثنى على المسيحية . وهو أثر يستحق الانتباه ونخصص له الفصل التالى .

التأثير الوثنى

ما هو رأى فضل الرحمن فى المؤثرات الوثنية الداخلة فيما يعرف اليوم باسم المسيحية ؟ إن الرجل يعتمد على البحث فى العقائد الوثنية السائدة وقت ظهور المسيحية ويحاول من خلال عرضها أن يتبين مواضع تأثيرها على أولئك الذين شكلوا عقيدتها على غير ما أتى به عيسى بن مريم نبى الله عليه السلام . ونتركه يتحدث :

كانت عبادة الشمس هى الدين الغالب عامة على الإمبراطورية الرومانية وقت ظهور المسيح وإن اختلفت أسماء الهة الشمس فى البلدان المتنوعة . وكانت الهة الشمس المعروفة والتى انتشرت عبادتها فى بلدان البحر المتوسط فى وقت أوآخر هى : أيتس فى فريجيا (آسيا الصغرى ، تركيا) ، أدونيس فى سوريا ، ديونيسيوس أو باكوس فى اليونان ، ميثرا فى فارس ، أوزوريس وحورس فى مصر . ومن أساطير هؤلاء الألهة نستكشف أصول المسيحية .

أيتس : ولد من عذراء وكان يعتبر «الابن الأوحد المولود والمخلص» . وقد ترك ينزف الموت فى يوم ٢٤ مارس عند جذع شجرة صنوبر . ويعتقد عابدوه أن دمه قد جدد خصوبة الأرض ومنح البشر بهذا حياة جديدة ، وقد قام من الموت ويحتفل عابدوه بهذه القيامة كما يحتفلون بموته . وفى الرابع والعشرين من مارس فى كل عام يعلقون صورته على شجرة صنوبر ثم يضعونها فى مقبرة وهم يولولون

ويصرخون . وفى اليوم التالى يجدون المقبرة خالية ويحتفلون بقيامته وسط ابتهاج عام . ومن أبرز سمات عبادته فى المعابد المكرسة له تقديم وجبات مقدسة والتعميد بالدم .

أدونيس أو تموز : هو «المخلص» المولود من عذراء . وقد عانى الموت ليفدى البشرية لكنه قام منه فى الربيع . ويحتفل بقيامته سنويًا فى مهرجان كبير .

ديونيسيوس أو باكوس : هو «الابن الأوحد المولود» لجوبيتر كبير الآلهة (واسم زيوس عند اليونان) من العذراء ديمتير فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر . وهو يوصف بالفادى والمحرر والمخلص . ويقول باكوس للبشر : إننى أنا الذى يهديكم ويحميكم وينقذكم . أنا البداية والنهاية . وكان للخمر مكانة مهمة فى الاحتفالات المخصصة لعبادته . وقد قتل من أجل فداء البشرية ويسمى بالمذبوح أو حامل الخطايا أو الفادى . وكان أتباعه يحتفلون كل عام بتمثيل موته ونزوله إلى الجحيم ثم قيامته .

بعل : هو إله الشمس ببابل وتعكس قصة حياته ومعاناته شبهًا كبيرًا وتفصيليا بما نسب إلى المسيحية من قصة الصلب والفداء .. إلخ . وقد أمضى اليهود زمنا طويلاً فى بابل إبان أسرهم على يد بنوخذ نصار وهوما يفسر هذا التشابه الكبير .

أوزوريس : ولد فى التاسع والعشرين من ديسمبر من عذراء وكان

يدعو إلى الوداعة والوئام . ويقال : إن الخمر والذرة من نعمه . وقد قتل بعد أن تعرض للخيانة ومزق جسده . وبعد دفنه مكث فى الجحيم يومين أو ثلاثة وثلاثة ليال ثم عاد للحياة . ومن عادة أتباعه وضع صورته فى صندوق ثم إخراجها وقت عبادته صائحين : لقد قام أوزوريس . وقد أصبح الاعتقاد فى الإله الإنسان على شكل أوزوريس عنصرًا رئيسيًا فى الديانة المصرية إلى أن انتقل إلى المسيحية فى صوره المسيح ، الإله الإنسان .

ميثراس أو ميثرا : هو إله الشمس عند الفرس المولود من عذراء وهو يمثل الأصل الذى أخذت منه أسطورة تأليه المسيح . وتأسست لعبادته كنيسة انتشرت خارج بلاده وكان الميلاد والفصح من أهم احتفالاتها . وكان أول عابديه فى يوم ميلاده فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من الرعاة . ومن قيم ديانته الاعتدال والطهر ونبذ الدنيا وضبط النفس . وكان أتباعه يقدسون كل سابع يوم ويحتفلون فى منتصف كل شهر بعيد خاص لميثرا كوسيط . وكان أهم احتفالاتهم المقدسة أوالأسرار كما كانت تسمى العماد والتثبيت والعشاء الإلهى الذى كان متناولوه يشتركون فى طبيعة ميثرا الإلهية بتناول الخبز والنبيذ .

ويقول السيد ريتشارد جريجورى وهو باحث فى الأديان : إن كل احتفال رئيسى فى التقويم المسيحى يواصل تقاليد أرستها المعتقدات الوثنية السابقة . وقد قامت الكنيسة بحكمتها بتبنى هذه المعتقدات

وحولتها إلى خدمة .

عيد الميلاد : يعتقد المسيحيون أن يوم ميلاد المسيح يقع فى الخامس والعشرين من ديسمبر. وهناك حقيقيتان تذكران فى هذا الصدد وتستحقان الفحص ! أولاهما : أن هذا اليوم هو تاريخ مولد الشمس فى التقويم اليوليوى ويرتبط هذا اليوم والأيام القريبة منه بالانقلاب الشتوى للشمس الذى كان يطلق عليه أتباع عبادتها « مولد الشمس . وقد ولد العديد من آلهة الشمس فى العالم القديم فى ذلك التاريخ أو فى تواريخ تقربه . وثانيهما هى عدم وجود أدلة تحدد مولد المسيح بهذا التاريخ كما يؤكد ذلك باحث مسيحى مؤمن كالقس فارار . وفى الحقيقة فإن الذى حدد ميلاد المسيح فى ذلك اليوم كان راهبا من سكيثيا (منطقة شمال البحر الأسود) هو ديونيسيوس اكسيجوس فى عام ٥٣٠ ميلادية أى بعد أكثر من خمسة قرون على مولد المسيح ولم يحدد لنا هذا الراهب مرجعه أو دليله . وتحتفل الكنائس الشرقية بعيد ميلاد المسيح فى السابع من يناير. ويقول الباحث ريتشارد جريجورى إن الكريسماس كان عيدًا وثنيًا اتخذ للاحتفال لمولد المسيح فى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى لإبعاد المتنصرين عن الاحتفالات الوثنية التى كانت تقام فى تلك الفترة .

ومن أمثال هذه الاحتفالات الوثنية التى أرادت الكنيسة إبعاد الناس عنها بإحتفال الكريسماس عيد يول فى شمال أوروبا وكان موعده

منتصف الشتاء ويرتبط بعبادة الشمس ومن رموزه شجرة الكريسماس المعروفة . أما فى جنوب أوروبا فكان هناك احتفال بعبادة الأم والابن بقيت آثاره فى المزود الذى يوضع فيه الإبن الرضيع .

عيد الفصح : استمد عيد الفصح معناه من عبادة ربات النور والربيع فى العالم القديم . وكان يحتفل بأعيادها الواقعة بعد الاعتدال الربيعى للشمس (أى بدء فصل الربيع) فى مصر وإيرلندا وذلك بتفريق وأكل البيض كما يفعل المسيحيون فى الاحتفال بقيامة المسيح . ويقول السيد ريتشارد جريجورى : إن احتفال عيد الفصح يمثل استخدام أوضاع الأجسام السماوية لتحديد تواريخ المناسبات الدينية . وقد احتفل اليهود بعيد الفصح كمهرجان ربيعى فى ذكرى خروجهم من مصر وهو بذلك يمثل عيدًا للحرية عندهم .

ويقول روبرتسون سميث فى الطبعة الرابعة عشرة من الموسوعة البريطانية إن الإسرائيليين وهم شعب رعوى قد ضحوا بأول مواليد قطعانهم فى الربيع كقرابين للشكر . وعندما استقروا فى فلسطين وجدوا فيها احتفالاً زراعيًا يرتبط ببداية حصاد الشعير الذى تصادف مع تاريخ خروجهم من مصر وارتبط به عندهم . ويشير ذلك إلى أن حمل عيد الفصح الواقع فى الرابع عشر من شهر نيسان بتوقيتهم قد اتصل بهذا الاحتفال الزراعى .

وقد احتفل المسيحيون بالأعياد اليهودية ولكن بروح جديدة ومن

هنا اعتبر المسيح هو الحمل المضحى به فى عيد الفصح . وهذا العيد فى النهاية يرتبط بعبادة الشمس حيث تبدأ فى استعادة قوتها وتتوافق قيامة المسيح مع بعث الحياة التى تمثلها بداية الربيع .

يوم الأحد : يوم الأحد هو يوم الشمس وهو اليوم المقدس لإله الشمس أبولو الإله الحامى للإمبراطورية الرومانية خلال عهد الإمبراطور قسطنطين . وقد حدد هذا اليوم بدلاً من يوم السبت الوارد فى الشريعة الموسوية كيوم مقدس وذلك لاستكمال أوجه التوافق بين المسيحية والوثنية .

الرهبان والراهبات : استعير هذا النظام من الوثنية . وكان له مكانة فى عبادة إله الشمس ميثرا حيث لجأ الرهبان إلى حلق دائرة فى وسط شعر الرأس تمثل قرص الشمس ليحملوا رمز إلههم على رءوسهم . ويراعى هذا الطقس فى الكنيسة الكاثوليكية .

الصليب : لم ينشأ هذا الرمز مع نشأة المسيحية ولم يكن متضمنًا فى رموز المسيحية الأولى الواردة فى القائمة التى أعدها القديس كليمنت مثلاً . وكان أول من جعله رمزًا للمسيحية قسطنطين الذى زعم أنه رآه فى المنام . وكان الصليب ذا مكانة بين عباد الشمس فى الإمبراطورية الرومانية كرمز للحياة كما هو عند المسيحيين . وهناك صليب مصرى سابق على المسيحية محفوظ فى المتحف البلدى بالأسكندرية كذلك عثر على صليب من عهد قبل المسيحية فى إيرلندا . وهو ينتمى إلى عباده

ميثرا وعليه شكل مصلوب .

أما أسماء أيام الأسبوع وشهور السنة فى التقويم المسيحى الغربى فكلها تحمل أسماءً وثنية فيوم الأحد هو يوم الشمس كما يدل عليه اسمه بعدة لغات أوروبية . ويوم السبت يسمى على اسم الاله الرومانى ساتورن . ويناير هو شهر جانوس الإله الرومانى ومارس هو شهر الحرب مارس أو المريخ . ويونيو مشتق من اسم جونو وأغسطس يكرم الأمبراطور الرومانى حامل هذا الاسم .

وتلتقط مريم جميلة خيط الكلام من فضل الرحمن أنصارى لتقول : إن بعض الكهنة المسيحيين لجئوا إلى تبرير تشرب ديانتهم بالتأثيرات الوثنية اليونانية الرومانية . ومن هؤلاء القس س . هـ . روبنسون الذى يعترف فى كتابه **دراسات فى شخصية المسيح** بذلك الدين الذى تدين به المسيحية للوثنية لكنه يعتبره من المزايا الفريدة للمسيحية . فهو يقول :

إذا كان الفكر اليونانى والرومانى مطلوبًا لاكتمال تقدير معنى التجسد فلماذا لا يمكن أن نقول نفس الشىء عن الفكر الهندى أو الصينى ؟ ومن المؤكد أننا محقون فى اعتقادنا بأن كل بلد وكل شعب لديه شىء يسهم به فى المسيحية وأن اكتمال الوحى المسيحى ينتظر هذه الإسهامات . ونحن نعتقد أن هناك العديد من الجوانب الهامة فى المسيحية لم تفهم أبدًا لأن المسيحية لم تنعكس فى تجربة تلك الشعوب

التى ما زالت وثنية .

وتقول الكاتبة : إن هذا اعتراف صريح بأن المسيحية التاريخية لم تكن أبدًا دينًا مكتملاً أو طريقة حياة واضحة بل كانت تأخذ صبغة الشعوب التى اعتنقتها ظاهريًا .

الكنيسة والدولة

تنتقل مريم جميلة من البحث فى العقائد التى أرتبطت بالمسيحية إلى النظرة فى بعض الجوانب الهامة من تاريخ الكنيسة وتطور أفكارها . وأول ما يلج إلى الذهن من هذه الجوانب هو ما يمكن أن نطلق عليه الفكر السياسى للكنيسة أو علاقتها كممثلة للمسيحية بالسلطة الحاكمة فى المجتمعات التى تقوم فيها . وتعود الكاتبة إلى تصورات القديس أغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) فى كتابة **مدينة الرب** لترى ما ألذى قاله فى هذا الصدد . والقديس أغسطين من آباء المسيحين الأول البارزين وأشهر كتابها وكان أسقفا لمدينة هيبو فى شمال أفريقيا (بالجزائر الآن) . وقد كتب هذا الكتاب بعد سقوط مدينة روما على يد البرابرة عام ٤١٠ . وترى الكاتبة مما له مغزى أن هذا الحدث الجلل لم يثر فى فكر القديس أى هجوم على الوثنية الرومانية أو يدفعه إلى إدخال النواحى الاجتماعية والسياسية على برنامجه المسيحى .

يحدد القديس أغسطين موقفه من العلاقة بين الكنيسة والدولة بأنه الفصل بينهما . فالكنيسة مجتمع مهاجر يعيش بالايمان وينظر إلى الآخرة وهى توجد على الأرض بجانب الدولة وتستفيد من الأمن الذى تبسطه سلطة الدولة وتعترف لها بمشروعيتها وضرورتها لكنها تمر مرورًا سريعًا على مظاهر هذا العالم مثبتة نظرتها على ما يتجاوزه . ويرى أغسطين أن هناك نوعين من المشروعية أو الحق : مطلق ونسبى . فالمطلق يتصل

بالعلاقة مع الرب وهى علاقة شاملة أما النسبى فيتصل بالعلاقات بين البشر وهى علاقات ذات طابع قانونى وتتمثل فى مؤسسات الدولة كالحكومة والملكية وسيادة الحكومة على رعاياها والأسياد على عبيدهم وتصرف أصحاب الممتلكات فى ملكهم . وهذه كلها علاقات نسبية متعلقة بالجانب الخاطىء للطبيعة البشرية مما يجعل الدولة والمجتمع لا يصلان أبدًا إلى مستوى المشروعية المطلقة التى تحجز فى فكر القديس أغسطين لعلاقة البشر مع الرب فقط .

وتعلق الكاتبة على هذا التصور فتلمح فيه جذور ثنائية معينة هيمنت على تاريخ المسيحية والكنيسة القسم الأول فى هذه الثنائية هو القبول بالعلمانية كأسلوب لتنظيم العلاقة بين الكنيسة والدولة أما الشق الثانى فهو التمسك بسلطة الرب المطلقة التى تعلو على سلطة الدولة العلمانية . وكان هذا الشق الثانى يدفع بالمسيحيين الأول إلى الاستشهاد ومقاومة الدولة الطاغية إذا رأت أن تسطو على حفرق الرب أو مجاله . ومن هنا سقط الآلاف من الشهداء المسيحيين على يد الإمبراطورية الرومانية وفى حلبات المصارعة تحت مخالب الأسود لأنهم رفضوا أن يسجدوا أمام الإمبراطور . ومما يوضح هذه النزعة ما قاله أحد زعماء المسيحيين لإمبراطور رومانى عام ٢٥٠ م : من يهم أمر الإمبراطور أكثر منا ؟ إننا نصلى بلا انقطاع كى يطيل الرب فى عمره وأن يحكم الأمم بسيف عادل وأن يعرف ملكه الأمن والرخاء . لكننا لا نستطيع أن

نقدم القرابين للإمبراطور فى المعبد فمن هذا الذى يؤله رجلاً من لحم ودم ؟

ويتجلى التمسك بسلطة الرب فى مواجهة سلطة الدولة فى معارضة المسيحيين الأوائل الشديدة للألعاب الرومانية الوحشية حيث كان يذبح الآلاف من البشر والحيوانات فى الحلبات لتسلية الجماهير المتعطشة للدماء . وعلى الرغم من أن هذه الألعاب كانت تعتبر دعامة للاقتصاد الرومانى إلا أن المسيحيين رفضوا وحشيتها وكان السبب فى إلغائها عام ٤٠٤ راهب يدعى تلماكوس قذف بنفسه إلى الحلبة لمنع المصارعات فرجمه المتفرجون بالحجارة حتى الموت واغضب هذا الفعل الإمبراطور هونوريوس ودفع به إلى إلغاء هذه الألعاب .

ومع هذه المقاومة العنيدة لكل ما يتعدى على حقوق الرب فلم تكن الكنيسة الأولى ترغب فى عصيان السلطة الإمبراطورية أو المدنية وتخريب حكمها حتى لو كان على رأس هذه السلطة أباطرة طغاة من أمثال نيرون ودوسيتيان . ويحلل المستشرق ويلفريد كانتوبل سميث قبول المسيحية للعلمانية مقارنًا إياه بوجود برنامج سياسى لدى الإسلام . فيقول :

لقد جاءت المسيحية إلى عالم منظم بالفعل وكانت الكنيسة المسيحية فى قرونها الأولى المشكلة لطبيعتها واقعة تحت حكم جهات أخرى . وعلى الرغم من أن المسيحية كانت ديانة العامة فى الإمبراطورية

الرومانية إلى حد كبير إلا أن الديانة المسيحية دخلت إلى عالم كان ناجحًا قبل مجيئها وله قوانينه الدنيوية ولغاته وحكومته وهيكله الاقتصادى . وبينما اهتم الميسحيون بحياتهم الشخصية والخلقية فإن مهمة تنظيم الكيان الاجتماعى كانت قد أنجزت قبل ذلك بوقت طويل وألقي عبء القيام بها على أناس آخرين . وفى الواقع فإنه لم يكن للكنيسة على مدى ثلاثة قرون الكثير لتقوله بصدد كيفية سير التاريخ . فلم يكن تنظيم سير العملية التاريخية داخلاً فى برنامج المسيحية . وحتى بعد أن انتهى الاضطهاد أصبح المسيحيون هم الذين يكونون المجتمع بعد أن كانوا أقلية تدافع عن نفسها فى وجهه ، وعندما ما وصلوا إلى مواقع المسئولية والسلطة فإنهم تقبلوا النظام الاجتماعى القائم كما وجدوه . وقد احتفظوا به مع اعتباره شيئًا خارجًا عن عقيدتهم وكانوا يرون أن واجبهم ربما يستدعى تحسينه ولكنه لا يتطلب أبدًا إحلال نظام جديد محله .

وبينما يعرض كانتوبل سميث لقبول المسيحية بالعلمانية عرضًا موضوعيًا فإن كاتبًا آخر هو كينيث كراج يدافع عن هذا الموقف المسيحى فى مواجهة الطرح الشامل للإسلام ويحاول أن يوجد نظرية وراءه متأثرًا كما تقول مريم جميلة بوظيفته كأحد كبار الموجهين للنشاط التبشيرى فى البلاد الإسلامية . وقد أصدر كينيث كراج كتابًا عنوانه **نداء المئذنة** عام ١٩٥٦ حلل فيه قبول العلمانية فى المسيحية . وحسب تصوره فإن الكنيسة قد تحدد وضعها فى العهد الجديد على أنها نظام

اجتماعى داخل المجتمع الكبير وأنها لا تمثل هذا المجتمع الكبير أو تتطابق معه . ويلاحظ هنا أنه يتحدث عن الكنيسة وليس عن الدين كعقيدة للجميع . ويقوم مفهوم الكنيسة على فكرة الخلاص التى تتضمن بدورها نظرة إلى الطبيعة البشرية باعتبارها خاطئة وخاضعة للهوى . وهكذا فهناك الإنسان الطبيعى بخطيئته واستعصائه على الهداية وهناك الإنسان الروحانى الذى حظى بالبعث والتجديد الروحى والعضو من خلال تجربة إيمانية تتسم بالطابع الشخصى وليس الاجتماعى وعلى هذا فالمسيحية (وننبه إلى أن الكاتب يعود ليتحدث هنا عن الدين نفسه بعد أن كان يتحدث عن الكنيسة) تكمن فى الناس أنفسهم وليس فى نظام اجتماعى أو ثقافى معين .

وترى المسيحية حسب رأى كراج أن مجتمع الناجين بقبول التصور المسيحى عن عيسى يقف داخل المجتمع البشرى الأوسع ولا يتوحد معه . وعلى هذا المجتمع الأوسع أو الدنيوى (العلمانى) أن ينظم شئونه بحرية إذ لا يمكن أن تفرض عليه التشريعات والقوانين لإصلاحه وجعله يقبل بالمسيح . ومن هنا تنشأ النظرية المسيحية عن الانفصال بين الكنيسة والدولة . فمجتمع المؤمنين يقف متميزًا عن الآخرين وهو لا يريد قهرهم على الإيمان بالقوانين وهو يدرك أنه لن يكسبهم كلهم فى صفه . ومن هنا فإن المسيحية لا تطرح كعقيدة اجتماعية ذات تعبير سياسى . أما الإسلام بطرحه الشمولى فى مجالات السياسة والمجتمع

والقانون فإنه يختلف عن المسيحية التى تسعى إلى الإقناع على المستوى الشخصى بدلاً من الفرض على المستوى الاجتماعى .

وتسخر الكاتبة من ادعاءات المبشر وتقول : إن التجربة التاريخية تدحضها فقد هيمنت المسيحية كعقيدة على القارة الأوروبية لمدة تزيد على الألف عام وكانت لها حرية مطلقة فى العمل على بعث الإنسان الطبيعى الخاطئ وتحويله إلى إنسان روحانى وممارسة فضائلها فى الإقناع دون الفرض فما الذى حدث حقيقة طيلة هذه الحقبة الممتدة من الزمان ؟ إن فضائل الحرية والتسامح والمحبة قد اختفت لتحل محلها الاضطهادات الدينية وحرق الهراطقة ومحاكم التفتيش وإبادة الأقليات الدينية اليهودية والإسلام وإهدار حقوقها وعدم الاعتراف حتى بوجودها . وفى المقابل ازدهرت الأقليات الدينية تحت حكم الإسلام الشمولى المعتمد على القهر دون الإقناع بالإيمان كما يقول كراج . وتتساءل مريم جميلة : أين ذهب المسلمون فى صقلية وإسبانيا واليونان وما هو حالهم اليوم فى قبرص تحت حكم الأسقف مكاريوس ؟

وترى مريم أن تصورات كينيث كراج فى ابتعاد الكنيسة عن السياسة تهدف فى الحقيقة ليس إلى عرض لفكر الكنيسة والنظرية المسيحية فى هذا الصدد بل إلى تبرئة النصرانية عموما من العداء التاريخى للإسلام ومن تحالفها مع قوى الاستبداد السياسى والقهر الاجتماعى فى البلدان المسيحية نفسها . وكتابات كراج الموجهة

للمسلمين تسعى من ناحية إلى إقناعهم بالعلمانية أى تنحية دينهم عن الحياة كما تعمل من ناحية أخرى على الإيهام ببراءة المسيحية من تراث تاريخى مظلم بدأ منذ أن قرر الإمبراطور قسطنطين الإعلان عن المسيحية كدين الإمبراطورية الرومانية الرسمى . فالكنيسة لم تبتعد عن التعبير السياسى بل انغمست فيه حتى النخاع ولم تترك العالم الدنيوى ينظم شئونه بحرية بل شاركت حركاته الاستمارية وكانت عونًا لها . ومن أبرز التدخلات الكنسية فى الشئون الدنيوية حركة التبشير التى يمثل كينيث كراج أحد قياداتها البارزة والتى عملت مثلاً فى أفريقيا على قلب نظام حكم «أبو بكر تفاوا باليوا فى نيجيريا» كحاكم مسلم وساعدت فيما أعقب ذلك من أعمال الفوضى وسفك الدماء والحرب الأهلية فى ذلك البلد صاحب الأغلبية المسلمة . وترى الكاتبة يد الكنائس وهيئات التبشير فى مذابح المسلمين العرب فى زنزبار وإبادة الأغلبية المسلمة فى أثيوبيا على يد الإمبراطور هيلاسيلاسى والتهليل لقيام الصهاينة باحتلال فلسطين وانتزاعها من أيدى المسلمين وطرد أهلها بما فيهم العرب المسيحيون . وهى تقتطف فقرات من كتابات أخرى للمبشر كراج نفسه يبدى فيها إعجابه بالحكومة الأتاتوركية الدكتاتورية التى أنهت الخلافة وفرضت القوانين العصرية محل الإسلام . ونتساءل معها : أين ذهب الإقناع الشخصى والتجربة الروحية وكراهية فرض القوانين لتغيير المجتمع ؟

• وتكشف الفقرات التى توردها مريم جميلة من كتابات كينيث كراج أن الصورة المثالية التى حاول أن يرسمها لمفهوم الكنيسة عن الفصل بينها وبين الدولة لم تتحقق أبدًا فى الواقع التاريخى كما تكشف عن التحالف الوثيق بين الكنيسة والدولة فى الغرب (التبشير والاستعمار) ضد العالم الإسلامى ومن أجل تمزيقه والاستيلاء عليه وتغريبه . وينفضح وجه المبشر الكاره للإسلام وتستبين حقيقة طروحاته الهادفة إلى الخداع وتغطية حقيقة الكنيسة الغربية عندما نقرأ له عبارات يتحدث فيها بفرح عن سقوط الخلافة وتجزأ الدولة الإسلامية إلى وحدات قومية وعن استبعاد الشريعة من حياة هذه الدول لتحل محلها القوانين الوضعية وعن تغير مفهوم الاجتهاد الفقهى ليتحول إلى أداة لتمييع المفاهيم الإسلامية وعن عجز الفكر الإسلامى عمومًا عن التعامل مع المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى تسبب فيها وجود الغرب الاستعمارى فى البلاد الإسلامية.

وتقتصر الكاتبة فى مناقشتها لكينيث كراج على المستوى التاريخى الذى ترى أنه يدحض القول بروحانية الكنيسة المحضة وبعدها عن فرض عقيدتها بالقوة كما يتهم الإسلام . ومن المؤكد أن تجربة الكنائس الغربية فى ربع القرن الأخير تؤيد مريم جميلة فيما ذهبت إليه . إذ تحولت هذه الكنائس والحركات المتصلة بها إلى قوى دنيوية خطيرة مسلحة بأكثر أدوات السلطة السياسية فعالية من التنظيم الإدارى

والموارد الاقتصادية وفنون الإعلام وأساليب استمالة الجماهير الواسعة والسيطرة عليها واستخدام حركتها . إن المسيحية الغربية اليوم قوة كبرى متحركة على المسرح الدولى مهاجمة على المسرح الإسلامى ولا تختلف فى أساليب عملها أو أهدافها عن قوى دولية أخرى كالشيوعية والصهيونية والرأسمالية . والمسيحية الساعية إلى السلطة السياسية فى بولندا هى نفسها الغارقة فى بحار السياسة فى الفلبين شرقًا إلى بلدان أمريكا الجنوبية غربًا وهى ذات النفوذ المسموع فى وسط وغرب وشرق القارة الأفريقية . وبابا روما يفوق فى سلطاته وقوته والدعاية الإعلامية التى تصاحبه وتأثيره على الجماهير المسيحية أى زعيم دنيوى فى القرن العشرين بما فيهم هتلر وستالين وماوتسى تنج .

ولكن إذا كانت الكاتبة قد فندت مفاهيم المبشر الغربى عن المسيحية والسياسة من وجهة نظر واحدة فإن القارئ لها يلحظ أنها أغفلت المناقشة النظرية لهذه الآراء ربما لأنها وجدت فى الحجة التاريخية ما يغنى . ولا أظن أن بعض الملاحظات على أفكار كينيث كراج تخالف ما سعت إليه مريم جميلة . فهذه الأفكار نفسها هى التى يرددها الكثير من دعاة العلمانية بين المسلمين ناقلين عن المبشرين والمستشرقين الذين وضعوا بذرتها لإفساد الإسلام . وربما كان فى التوسع فى مناقشتها ردًا ولو غير مباشر على تلاميذ المبشرين الطارحين لأنفسهم كمفكرين مستقلين .

إن أول ما يلفت النظر فى أفكار كينيث كراج وفى أقوال القديس أغسطين المستشرق كانتويل سميث هو أن العلمانية (أى فصل الكنيسة عن الدولة) كانت خيارًا للمسيحية نفسها ولم تفرض عليها من الخارج كما تسعى الآن قوى معنية لفرض المفاهيم والممارسات العلمانية على الإسلام . ولا ريب أن لغياب الشريعة والتعاليم والمناهج المفصلة فى مسيحية بولس أثر فى اتباع هذا النهج . كذلك فإن المسيحية كما أكد كانتويل سميث قد دخلت على عالم منظم بالفعل له أوضاعه الدنيوية ولم تكن هى الأخرى فى وضع يسمح لها بإيجاد نظام جديد ومن هنا نشأ الوجود المتوازى بين الكنيسة والدولة .

ومن النقاط التى لا يلتفت إليها فى هذه المسألة أن الفصل يدور بين الدولة والكنيسة وليس بين الدولة والدين . فهناك خلط معين فى المفاهيم بين الدين كعقيدة يمكن لأى شخص أن يعتنقها ولو كان على رأس الدولة وبين الكنيسة كنظام اجتماعى خاص بالمسيحية . ومن الجلى أن كينيث كراج يغالط عندما يقول : أن المسيحية لا تطرح عقيدة اجتماعية ذات تعبير سياسى فمن المؤكد أن أى تصور عقيدى حتى ولو كان عن عقيدة الصلب والفداء والخلاص سيكون له أثر على حياة معتنقيه ويؤدى بالتالى إلى تغيرات اجتماعية وسياسية من حيث أن السياسة هى إدارة شئون المجتمع وفقًا لرؤية حياتية معينة . وقد كان للمسيحيين بالفعل تعبير سياسى عندما جعل منها الإمبراطور قسطنطين

عقيدة الإمبراطورية الرومانية الرسمية لتكون لذلك عامل إنقاذ لهذه الدولة من التفكك . وكراج يغالط كذلك حين يقول : إن المسيحية تكمن فى الناس أنفسهم وليس فى نظام اجتماعى أو ثقافى معين . فهو فى نفس السياق يصف الكنيسة بأنها نظام اجتماعى معين وهى نفس الكنيسة التى يجعلها التعبير المادى عن الدين . كما أن الناس (أيا كانوا) يخلقون نظامًا اجتماعيًا وثقافيًا بالضرورة وبمجرد ممارستهم لحياتهم العادية . ومن التعسف الفصل بين ما يسميه كراج الناس أنفسهم وبين النظام الاجتماعى والثقافى الذى يقيمونه على ضوء إيمانهم الدينى حتى ولو كان هذا الإيمان يبدو بعيدًا عن شئون الدنيا كعقيدة المسيحية .

ويخطىء كراج كذلك عندما يتحدث عن عملية الإيمان والتحول من الإنسان الطبيعى الخاطئ إلى الإنسان الروحانى القابل لتضحية عيسى المزعومة على أنها عملية شخصية وليست اجتماعية . فمن المؤكد أن هذه العملية تحدث فى بيئة اجتماعية يمكن أن تسهلها إذا كانت بيئة إيمانية أو تعرقلها إذا كانت بيئة كفرية . كما أنها تحدث عن طريق الدعوة أو التلقي من مؤسسة يصفها كراج نفسه بأنها اجتماعية وهى الكنيسة . وإذا تمت فإن لها آثارًا اجتماعية ممثلة فى السلوك والانضمام إلى مجتمع الكنيسة الواقف بمواجهة أو مؤازرة المجتمع العلمانى أو الدنيوى .

وبينما يلمح القديس أغسطين إلى التوازى بين الكنيسة والدولة فإن

كنيث كراج يلمح إلى التمايز والانفصال بين مجتمع إيمانى روحانى ناهض وبين مجتمع خاطئ ساقط يترك لينظم شئونه بحرية ويكون كل عمل الكنيسة معه اجتذاب أفراد منه إلى مجتمعها هى ولكنها لن تجتذب كامل أفراده . ولكن ماذا يحدث إذا قام هذا المجتمع الدنيوى بتنظيم شئونه على صورة تضر بالمجتمع الكنسى سواء من حيث حظره أو عرقلة انضمام الأفراد إليه أو محاصرته ومنع نشاطاته ؟ عندئذ يكون الخيار أمام الكنيسة بين الاستسلام والضياع أو الثورة والسيطرة على زمام الحكم . ويتضح من التجربة التاريخية أن وضع الفصل والتمايز هذا كان قلقاً على الدوام ومنتجاً للتوتر والنزاع والانشقاق فى المجتمع وأنه كثيراً ما انتهى إلى الاتحاد والتعاون لاسيما فى مواجهة الأخطار الكبرى الداخلية والخارجية كالإسلام مثلاً . نحن إذن لسنا أمام حل سعيد للأمور .

ونقف كذلك أمام مفهوم الكنيسة فى المسيحية . فما هى الكنيسة ؟ هل هى هيئة للدعوة ونشر العقيدة وتعليمها وحفظها وأداء الشعائر أم أن لها وظائف مقدسة لا يكتمل الدين إلا بها كالقيام بأسرار العماد وعشاء الرب والاعتراف ؟ وإذا كانت الكنيسة كما يعرفها كراج هى المسيحية وهى المجتمع الإيمانى فإن ذلك يعنى أن من يكون خارجها هو المجتمع غير المؤمن والخاطئ وعلى رأسه الدولة الدنيوية . وعلى حسب هذا الفهم تكون الكنيسة محقة فى طلب الفصل عن الدولة غير المؤمنة

التى تعيش وسط مجال نفوذها . ويكون طلب الفصل حينئذ حيلة ذكية لضمان النجاة من تأثير الدولة السيئ مع التمتع فى نفس الوقت بالخدمات والمزايا التى تضمنها لرعاياها مثل الأمن . وفى هذا الموقف الذى يجمع بين المفاصلة والمعايشة خدعة وانتهازية تنتهز فرصة ضعف الدولة للتسلل إليها والتحكم فيها . وتكون الكنيسة فى ظل هذا النظام بمثابة دولة داخل الدولة لها كيانها ومبانيها ومؤسساتها التعليمية أو الاجتماعية وهيكلها الإدارى والقيادى ذى الشكل الهرمى (الكهنوت) ورئيسها ورعاياها الذين يوالونها بقلوبهم بينما يخضعون جسدياً فقط لسلطة الدولة الزمنية وهم يعلمون أن الروح أهم من الجسد حسب عقيدتهم .

وهنا نذكر أن المسيحية أو واضعيها الأول على غير هدى عيسى عليه السلام هم الذين اختاروا نظام الفصل بين الكنيسة والدولة وكأنهم كانوا بذلك يغطون على ضعف موقفهم لإسقاط الشريعة والمنهج الإلهى المفصل ويحاولون فى نفس الوقت الحفاظ على العقيدة اللاهوتية المعقدة التى وضعوها بتكريسها فى نظام يقف بموازاة الدولة التى عجزوا عن الوصول إليها إما لضعفهم أو لعدم وجود منهج اجتماعى لديهم . كانت العلمانية إذن هى الحل الذى تمخض عنه موقف تاريخى معين خاص بالمسيحية وبأوضاعها الفكرية ومفاهيمها عن الدين والعقيدة بل واستخدامها للمصطلحات .

أما الإسلام فهو مختلف إلى حد يجعل مجرد تطبيق النظرة العلمانية عليه إسقاطاً كاملاً للموضوعية العلمية . فلسنا فى الإسلام نواجه ديناً تنحصر عقيدته فى التجسد والفداء والصلب والقيامة .. إلخ . وإنما نواجه ديناً يطرح على المؤمنين به منهجاً حياتياً شاملاً يطبقونه كعلامة على الإيمان ونتيجة له . وهو منهج لا يتألف من الأسرار الكهنوتية وإنما من المبادئ المقبولة عقلاً القابلة للتفصيل والتوسيع والامتداد على يد الإنسان المستنير بالأصول العامة . والمجتمع الإيمانى فى الإسلام لا يشكل كنيسة وإنما يكون دولة تمارس فيها الحياة الإسلامية متكاملة الجوانب وتكون قدوة للغير وحافزاً لهم على الإيمان بنجاح تجربتها .
والإسلام لا يفصل بين روح وجسد كما فعلت المسيحية مستندة إلى الفلسفة اليونانية أو بعض مدارسها . فمن الواضح فى الحياة الدنيا أن هذا الفصل عقيم إذا أصر عليه خارج نطاق الدراسة العلمية الطبية أو النفسية مثلاً وهو حتى غير مطلق داخل هذه الدراسات نفسها .
والإسلام لا يطبق شريعته أو قوانينه بغرض فرض الإيمان بدون إقناع فهذه القوانين تطبق على مجتمع مؤمن . وليس غرض تطبيقها قسر الناس على الفضيلة وإنما الإعلان عن هوية المجتمع وخلق بيئة إيمانية صالحة ومواتية لنمو الإيمان وتعميقه فى النفوس وتقليل فرص الغواية والانحراف وإيجاد مجتمع يسعد البشر أكثر ما يمكن فى هذه الدنيا حسب مفهوم الإسلام للسعادة وللإنسانية أيضاً .

التى تعيش وسط مجال نفوذها . ويكون طلب الفصل حينئذ حيلة ذكية لضمان النجاة من تأثير الدولة السيئ مع التمتع فى نفس الوقت بالخدمات والمزايا التى تضمنها لرعاياها مثل الأمن . وفى هذا الموقف الذى يجمع بين المفاصلة والمعايشة خدعة وانتهازية تنتهز فرصة ضعف الدولة للتسلل إليها والتحكم فيها . وتكون الكنيسة فى ظل هذا النظام بمثابة دولة داخل الدولة لها كيانها ومبانيها ومؤسساتها التعليمية أو الاجتماعية وهيكلها الإدارى والقيادى ذى الشكل الهرمى (الكهنوت) ورئيسها ورعاياها الذين يوالونها بقلوبهم بينما يخضعون جسدياً فقط لسلطة الدولة الزمنية وهم يعلمون أن الروح أهم من الجسد حسب عقيدتهم .

وهنا نذكر أن المسيحية أو واضعيها الأول على غير هدى عيسى عليه السلام هم الذين اختاروا نظام الفصل بين الكنيسة والدولة وكأنهم كانوا بذلك يغطون على ضعف موقفهم لإسقاط الشريعة والمنهج الإلهى المفصل ويحاولون فى نفس الوقت الحفاظ على العقيدة اللاهوتية المعقدة التى وضعوها بتكريسها فى نظام يقف بموازاة الدولة التى عجزوا عن الوصول إليها إما لضعفهم أو لعدم وجود منهج اجتماعى لديهم . كانت العلمانية إذن هى الحل الذى تمخض عنه موقف تاريخى معين خاص بالمسيحية وبأوضاعها الفكرية ومفاهيمها عن الدين والعقيدة بل واستخدامها للمصطلحات .

أما الإسلام فهو مختلف إلى حد يجعل مجرد تطبيق النظرة العلمانية عليه إسقاطاً كاملاً للموضوعية العلمية . فلسنا فى الإسلام نواجه ديناً تنحصر عقيدته فى التجسد والفداء والصلب والقيامة .. إلخ . وإنما نواجه ديناً يطرح على المؤمنين به منهجاً حياتياً شاملاً يطبقونه كعلامة على الإيمان ونتيجة له . وهو منهج لا يتألف من الأسرار الكهنوتية وإنما من المبادئ المقبولة عقلاً القابلة للتفصيل والتوسيع والامتداد على يد الإنسان المستنير بالأصول العامة . والمجتمع الإيمانى فى الإسلام لا يشكل كنيسة وإنما يكون دولة تمارس فيها الحياة الإسلامية متكاملة الجوانب وتكون قدوة للغير وحافزاً لهم على الإيمان بنجاح تجربتها . والإسلام لا يفصل بين روح وجسد كما فعلت المسيحية مستندة إلى الفلسفة اليونانية أو بعض مدارسها . فمن الواضح فى الحياة الدنيا أن هذا الفصل عقيم إذا أصر عليه خارج نطاق الدراسة العلمية الطبية أو النفسية مثلاً وهو حتى غير مطلق داخل هذه الدراسات نفسها . والإسلام لا يطبق شريعته أو قوانينه بغرض فرض الإيمان بدون إقناع بهذه القوانين تطبق على مجتمع مؤمن . وليس غرض تطبيقها قسر الناس على الفضيلة وإنما الإعلان عن هوية المجتمع وخلق بيئة إيمانية صالحة ومواتية لنمو الإيمان وتعميقه فى النفوس وتقليل فرص الغواية والانحراف وإيجاد مجتمع يسعد البشر أكثر ما يمكن فى هذه الدنيا حسب مفهوم الإسلام للسعادة وللإنسانية أيضاً .

والفارق بين الإسلام والمسيحية فى هذا الميدان هو أن افتقار المسيحية إلى المنهج الحياتى كان نقطة الضعف التى أدت بها إلى العجز عن تكوين مجتمع متكامل ولذلك حصرت مجال انطباقها فى ناحية أسميت الروحية أو الدينية وترك باقى مدى الحياة البشرية للسلطات القائمة تديره وأطلق عليها اسم الدنيوية أو العلمانية (أى المتعلقة بالعالم) . ولكى يحمى الآباء الأول المجال الروحى الضيق الذى حددوه لأنفسهم كان الإصرار على تقنينه فى مؤسسة مادية هى الكنيسة التى أسندت إليها وظائف دينية لا تؤدى خارجها ولا يقوم بها غير الكهنوت وذلك إمعاناً فى تحصينها من الذوبان فى دنيا النشاط الإنسانى الواسع خارجها . وفى نطاق هذا التحصين وضع مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة بحجة أن الأولى لها مجال الآخرة والثانية لها مجال الدنيا . وهكذا خلقت فى المجتمع سلطتان وكيانان يتنازعان ولاء الأفراد وتوجد بينهما احتمالات وإمكانات الشقاق والصراع . أما فى الإسلام فقد تطور المجتمع الإيمانى مباشرة ومنذ عهد النبوة إلى كيان متكامل له تعبير سياسى وعسكرى واجتماعى واقتصادى ومؤسساتى وفق تصورات نابعة من الشريعة والمفاهيم الإسلامية الواردة فى القرآن والسنة . ومن هنا لم يكن هناك كنيسة ودولة بل مجرد دولة وكيان يقيمه المؤمنون . ولم تقم كنيسة لأنه ليس فى الإسلام أسرار معقدة لا يؤديها إلا الكهنوت كما أن المؤسسات العلمية والتعليمية فى الإسلام لم تتحول أبداً إلى كيان مناقض

للدولة . وحتى عندما كان العلماء يعارضون الحكام أو تقمعهم الدولة فإن ذلك كان يتم فى إطار مؤسسة للدولة وليس فى إطار صراع بين كنيسة ودولة . والدولة فى الإسلام دينية بهذا المعنى أى لأنها دولة يقيمها المسلمون وفق منهج حدده لهم دينهم .

ومن هنا فإن الحديث الذى يروجه العلمانيون الآن بتشجيع من أعداء الإسلام عن فصل الدين عن الدولة يراد به قتل الدين ذاته لأنه لم يجد له تعبيراً دنيوياً إلا من خلال الدولة . فليس فى الإسلام كنيسة يرتد إليها إذا فصل عن الدولة والمؤسسات الذى اصطلح على تسميتها بالدينية (كالأزهر) ليست إلا معاهد تعليمية وهى لا تقارن من حيث الإمكانات أو التنظيم أو الوظيفة أو التاريخ بنظام الكنيسة كما عرفته المسيحية . إن الإسلام إذا فصل عن الدولة كما حدث فى كل بلاد المسلمين فى العصر الحديث يفقد وجوده ذاته من حيث ضياع شريعته ومنهجه الحياتى ووحدة أتباعه والمؤسسات العسكرية والاجتماعية والتعليمية التى يتجسد خلالها ولا يتبقى منه إلا عقيدة فى نفوس الأفراد تذوب وتذوى تحت تأثير البيئة اللادينية المعادية . أى أنه يتحول إلى مسيحية بدون كنيسة .

وهكذا فإن دعوة العلمانية التى نشأت فى صميم المسيحية تنقل بحذافيرها إلى الإسلام وتطرح على أنها نتاج الفكر الإنسانى المتحضر الحديث أى الفكر الغربى منذ العصور الوسطى . ويجرى ذلك دون أى

بحث للمصطلحات والتعريفات إلى حد أن مصطلح العلمانية نفسه الذى ينطق بفتح العين واللام ينطق عمداً بكسر العين وسكون اللام كى يفهم الناس منه خطأ أنه يعنى العلم ويتقبلونه ويطالبون به نظراً لأن العلم هو من أحسن القيم فى الإسلام نفسه . وحقيقة المصطلح أنه يعنى « العالم » وليس العلم أى الدنيا والاتجاه الدنيوى . وينسى دعاة هذا الاتجاه أو يتناسون كل تلك النقاط التى حاولنا الإشارة إليها .

ولم أكن أهدف هنا سوى إلى التوكيد على أن أسلوب مناقشة وطرح دعوة العلمانية يوحى بالعديد من الشبهات وأن طرحها من خلال شعارات جذابة وكاذبة عن العلم والمساواة والحرية والتقدم إنما هو خدعة قصد بها إخفاء الحقائق . وربما كان من أفضل ما قدمته لنا مريم جميلة فى هذا الشأن إلقاء الضوء على حقائق أغفلت عمداً عند الحديث عن العلمانية وهى حقائق تستحق البحث وتحفز على الدرس المتكامل والتفنيد الموضوعى العلمى للدعوة اللادينية بصورة أكثر تعمقاً من الملاحظات المتناثرة التى حاولت بها أن أكمل تعليقات الكاتبة وأن أثير التساؤلات أكثر من أن أقدم بحثاً منظماً مستوفياً فى هذه القضية .

تفريط وإفراط

كان من أهم عقابيل الاتجاه العلمانى للكنيسة وابتعادها عن المشاكل الاجتماعية والسياسية بحدوث آثار مدمرة على الكنيسة نفسها حسبما ترى مريم جميلة . وتركزت هذه الأضرار فى اتجاهين رئيسيين أولها وأشهرهما : فساد البابوية وانغماسها فى الماديات ومتع الحياة والمؤامرات الدنيئة . وقد وصل بابوات العصور الوسطى إلى أسفل درك من الانحطاط من جراء الاستسلام لمغريات السلطة الواسعة التى كانت لهم على القارة الأوروبية بأسرها تقريبا .

وتتركنا الكاتبة نتابع بعض مشاهد من ذلك التاريخ المؤلم بعد أن أشارت بأصبع الاتهام إلى من جردوا المسيحية من الشريعة والهدى الإلهى والمنهج الحياتى وأحالوها إلى دين لاهوتى لا علاقة له بشئون الحياة ولا يحدد لأتباعه أو رؤسائه الطريق .

وصل البابا بولس الأول إلى المنصب عام ٧٥٧ وبعد وفاته أجبر دوق نيبى بعض الأساقفة على تكريس قسطنطين وهو شقيقه غير الشرعى لمنصب البابوية . ولكن اجتمع أساقفة آخرون عام ٧٦٨ وأنتخبوا ستيفن الرابع للمنصب وعوقب قسطنطين بفقء عينيه كما قطع لسان أحد الأساقفه الذين انتخبوه وترك يموت فى جب من العطش . وفى عام ٧٩٥ ألقي ابن عم البابا أدريان القبض على البابا ليو الثالث الذى خلف ستيفن الرابع وذهب به إلى كنيسة حيث فقأ عينيه وقطع

لسانه وحل مكانه فى المنصب . وتمر أكثر من مائة سنة فى مؤامرات متبادلة بين الطامعين فى البابوية وكان كل من يصل منهم إلى مبتغاه يحاكم خصومه ويحكم عليهم بالموت . وخلال أربعة أعوام فقط من ٨٩٦ إلى ٩٠٠ وصل إلى المنصب أربعة بابوات وعزلوا .

ونصل إلى عام ٩٠٤ لنجد صورة أخرى من الفساد . في ذلك العام وصل الباب سرجيوس الثالث إلى منصب الحبر الأعظم بالقوة المسلحة . وقد كان للعاهرة يثودورا سيئة الصيت وابنتيها وهما أيضا عاهرتان تأثير كبير عليه . وكانت ثيودورا تعشق أيضاً أحد الأساقفة وساعدته بنفوذها إلى الوصول للبابوية عام ٩١٥ باسم يوحنا العاشر . وتمكن هذا البابا من الثبات فى منصبه لمدة أربعة عشر عاماً بفضل مساندة تيودورا له لكنه فقد مكانه وأطيح به عندما تآمرت عليه ابنتها ماروزيا بعد أن حنقت عليه لأنها فاجأته فى القصر البابوى فى وضع مخل مع ابنة أخيه . وفى عام ٩٣١ أوصلت ماروزيا ابنها غير الشرعى إلى البابوية تحت اسم يوحنا الحادى عشر . لكن أحد أبنائها الآخرين من الحرام شعر بالغيرة فألقى القبض على أمه وشقيقه ووضعها فى السجن وجلس على المقعد البابوى . كذلك انتخب ابنه غير الشرعى للبابوية عام ٩٥٦ باسم يوحنا الثانى عشر وكان عمره فى ذلك الوقت ثلاثة عشر عاماً .

واشتهرت فضائح هذا البابا الأخير إلى حد أن الشعب الألمانى دفع

مبراطور أوتو الأول إلى التدخل . وعقد مجمع مقدس لمحاكمة يوحنا نى عشر وتبين من الجلسات أنه كان يتلقى رشاوى لتكريس الأساقفة ه نصب أسقفاً لا يتجاوز سنه العاشرة بينما أقام إحتفال سيامة لآخر حظيرة للخيول . واتهم البابا كذلك بالزنا مع محظية لأبيه وبارتكاب احشة مرات لا تعد . وكان معروفاً بالانحراف فى الشراب والمقامرة القسم بالآلهة الوثنية . وعندما طلب منه المثول أمام المجمع أبلغهم أنه ارج للصيد . وبعد عزله خلفه البابا ليو الثامن عام ٩٦٣ الذى حاكم صومه ومثل بهم إلا أن حياته انتهت على يد رجل كان قد غرر زوجته .

ولا تمثل انحرافات البابوات على خطورتها جرائم عادية تمت بالاستسلام للبواعث النفسية الشريرة . فهؤلاء الرجال كان يفترض أنهم معصومون من الخطأ ومهتدون بالروح القدس وأنهم امتداد للقديس بولس فضلاً عن كونهم قادة المسيحية الغربية . وترى مريم جميلة أن هذه الانحرافات التى استمرت تترى بعد تلك الأمثلة التى ذكرناها أدت إلى حدوث ردود فعل عنيفة تشكل الاتجاه الرئيسى الثانى الذى أثر على المسيحية ونعنى به الاتجاه إلى الرهبنة والتنسك والبعد عن الحياة الفاسدة المغرقة فى المادية .

وقد كان فى المسيحية منذ بدايتها اتجاه قوى إلى النزعة الرهبانية عبر عنه القديس بولس فى موقفه من الزواج . فهو لم يحث على الزواج أو

يرحب به وإنما أذن فيه ورخص به فقط كوسيلة لمنع الوقوع فى الخطيئة . وتنقل عنه الكاتبة قوله : أتمنى أن لا يتزوج الرجال كما فعلت أنا . وأقول إلى العزاب والأرامل : إنه من الأفضل لهم أن يبقوا فرادى مثلى . ويتفق هذا الموقف مع اتجاهات الرهبنة البوذية والهندوكية لكنه يختلف عن الرأى الواضح فى قضية الزواج ورفض الرهبنة التى ابتدعها النصارى ولم تكتب عليهم ومع ذلك فلم يوفوها حقها كما يخبر القرآن .

وقد وجدت هذه الروح التعبير عنها فى حركة الرهبنة ونشاط الأديرة التى كان لها أكبر الأثر على المسيحية الشرقية والغربية طوال تاريخها وكانت فى بعض المراحل تمثل كما قلنا رد الفعل على فساد السلطات الدينية العليا . وتتعرض مريم جميلة لمتابعة الرهبانية المسيحية بالعديد من التفاصيل تنقل بعضها من « أبوالحسن الندوى » فى كتابه عن **الإسلام والعالم** . وهو يقول : إن عدد الرهبان فى مصر فى القرن الرابع الميلادى كان يساوى عدد سكان المدن فيها كما أن عدد الرهبان فى بعض أديرة أوروبا خلال القرن كان يصل إلى حوالى خمسة آلاف راهب فى الدير الواحد . وكان يتبع القديس سيرافيم مثلاً عشرة آلاف راهب . ولاشك أن هذه أعداد كبيرة بالنظر إلى حركة يفترض أنها لا تضم إلا المستعدين بالفطرة لحياة العزلة والتأمل وممارسة السمو الروحى بالتعبد وترويض النفس وهم بطبيعة الحال قلة بين البشر .

وقد أقبل العديد من الرهبان على ممارسات متشددة . إذ أقدم

القديس مكاريوس فى الاسكندرية مثلاً على الإقامة فى مستنقع لمدة ستة أشهر معرضاً نفسه للدغات الحشرات السامة وكان معتاداً على أن يحمل ثمانين رطلاً من الحديد . أما تلميذه سيبيوس فقد كان يحمل مئة وخمسين رطلاً من الحديد وعاش ثلاث سنوات فى بئر جافة . وكان بعض النساك يخلع ملابسه ويزحف على يديه وقدميه لا يغطيه سوى شعره الطويل بينما فضل البعض الآخر الإقامة وسط المقابر أو فى أوكار الحيوانات المفترسة . وكانت نظافة الجسد تعتبر عندهم تلويثاً للروح وحظى أقلهم نظافة بأكبر قدر من الإعجاب . ويتحدث القديس أثناسيوس بإعجاب عن أن القديس أنطونى لم يذنب أبداً بغسل قدميه . وكان الرهبان يعتادون التجوال من مكان إلى آخر ويجتذبون الأطفال ليجندوهم فى أديرتهم . وأدى هذا الأمر وغيره من ممارسات الرهبانية إلى آثار ضارة على الروابط العائلية لاسيما وأنهم كانوا لا يطيقون البقاء فى ظل امرأة وكانت خطيئة عندهم أن يتحدث المرء مع أخته أو زوجته أو والدته . وتحرص الكاتبة على تأكيد موقف السنة النبوية المطهرة من الحث على الزواج وتعقب على هذا الاتجاه الرهبانى فى المسيحية بالآية الكريمة : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها » (سورة الحديد ، ٢٧) .

وإذا كان فساد أو تفريط البابوية وخطاياها قد جرت فى ظل مؤسسة القيادة فى العالم المسيحى فإن إفراط الرهبانية كان يتم من خلال

الأديرة وحركات الرهبان التى كان لها شهرتها الواسعة داخل وخارج أوروبا . ونجد أن أبرز من أثروا فى هذه الحركات كان القديس أغسطين الذى اعتنق المسيحية فى سن الثانية والثلاثين ورسم كاهنا عام ٣٩١ وأمضى بقية عمره فى الكتابة والحث على تكوين الأديرة . وأشهر أعماله فى مجال الرهبنة عظتان وخطاب مطول إلى جماعة من الراهبات قام بتنظيمهن . وتمثل هذه الكتابات أسس العديد من تجمعات الرهبان والنساك والراهبات . وتشتهر كذلك فى الحركة الرهبانية أسماء القديس بندكت (٤٨٠ـ ٥٤٧) والقديس دومينيك (١١٧٠ـ ١٢٢١) والقديس فرانسيس الأسيزى (١١٨١ـ ١٢٢٦) والقديس توماس الأكوينى (١٢٢٥ـ ١٢٤٧) والقديس إغناطيوس لويولا (١٤٩١ـ ١٥٥٦) .

ولكل قديس من هؤلاء سمات مميزة . فالقديس بندكت هو مؤسس الرهبانية الغربية فى دير مونت كاسينو أشهر أديرة العالم . وقد أثرت القواعد التى وضعها للنسك فى الحياة الدينية الأوروبية لقرون عديدة . وقد حاول أن يخفف من التشدد الذى اتصفت به الرهبانية المصرية لكى لا ينفر المقدمين على حياة الزهد . أما القديس دومينيك فهو مؤسس الجماعة المشهورة المشتقة من اسم (الدومينيكان) وقد أقامها فى جنوب فرنسا . ومن أبرز تعاليمه ضبط النفس والسيطرة على شهواتها . والقديس فرانسيس كذلك مؤسس لجماعة مشهورة تحمل

اسمه ومركزها الأصلى إيطاليا . وقد اشترك فى إحدى الحملات الصليبية . ويختلف توماس الأكوينى عن الآخرين فى أن إسمه لم يرتبط بحركة رهبانية بل بدراسة أعمال الفيلسوف اليونانى أرسطو ونقد بعض انحرافاتها المتمثلة فى فلسفة ابن رشد . وأشهر أعماله على الإطلاق كتاب «**ذروة اللاهوت**» . أما القديس أغناطيوس فهو أسبانى وكان من بين طموحاته أن يذهب بجماعة رهبانه إلى القدس حيث إنقاذ النفوس فى البلاد الكافرة (المسلمة) لم يستطع إكمال هذه المهمة . وعرفت جماعته باسم الجيزويت (جماعة المسيح) . وكان العمل اليدوى والبحث الدراسى يمثلان نشاطات هامة للعديد من هذه الحركات بجانب التعبد ونشر الدعوة المسيحية .

وتلجأ مريم جميلة إلى «أبوالأعلى المودودى» لتشير إلى تحليله لظاهرة الرهبنة فى المسيحية وامتدادها فى الإسلام عند بعض الطرق الصوفية . ويرى المودودى أن هناك فكرة تكمن وراء اتجاه الرهبنة والزهد تقول بأن العالم والجسد هى وسائل لتعذيب الإنسان والروح المحبوسة داخل قفصها (الجسد) . وما المتع والملذات وحاجات الإنسان الأخرى إلا القيود والأغلال داخل هذا السجن . وكلما اشتغل الإنسان بتحصيل هذه المتع أو الاحتياجات كلما ازداد تلوثه واستحق العذاب . والمهرب الوحيد من سجن الجسد هو الهروب من الدنيا وقمع الرغبات . وفى مقابل هذه النظرة نجد التصوير الإلهى للدنيا والكون كمكان للعمل

والنشاط والاختبار والاعداد للآخرة . لكن رؤية الرهبنة تعتبر العالم مباءة للفساد ألقي الإنسان فيها وعليه أن يرفضها ويهجرها بتجنب المسئوليات . وهى تعتبر العبادات وسيلة إلى التكفير عن الذنوب وليس عوامل لإصلاح الدنيا وإعداد الإنسان لتحمل مهمة خلافة الله فى الأرض .

ويقول المودودى : إن الرهبانية والعزلة عن العالم تخدم الإلحاد من حيث أنها تظن أنها تمثل عمق الإيمان وذلك لأنها تعمل على إبعاد الخيرين والأتقياء عن النشاطات الدنيوية وتؤدى بهم إلى الاعتكاف تاركين الدنيا مسرحاً للقوى الشيطانية تديرها كيفما شاءت وتعبث بها بينما ينشغل المؤمنون بتحقيق خلاصهم الفردى . كذلك فإن الاتجاهات الرهبانية تؤدى عندما تشيع بين العامة إلى إفشاء روح التواكل والنظرة التشاؤمية للعالم مما يجعل الجماهير فريسة سهلة فى أيدى الطغاة . ولهذا السبب يرى المودودى أن القوى الحاكمة ورؤساء الأديان كانوا على مر التاريخ من محبذى الحركات الرهبانية أو الصوفية . ويقول : إنه لا يوجد أى سجل تاريخى لصراع نشب بين الرأسمالية أو الاستعمار أو البابوية وبين رؤية أو عقلية الرهبانية . وهو يعبر عن اعتقاده بأن فلسفة الزهد والرهبانية مناقضة للطبيعة البشرية بما يؤدى إلى صراع وتوتر ينجم عنهما أحياناً أفكار مشوشة كتلك مثلاً المتعلقة بالسمو الروحانى إلى

درجة العصمة مما يبيح لمدعيها ارتكاب الخطايا دون عقاب فى زعمهم .

ولا شك فى أن تحليلات « أبو الأعلى المودودى » لعقلية الرهبنة والتزهد صائبة . لكننا نذكر أن الطرق الصوفية فى الإسلام مثلاً كان لها باع طويل فى التاريخ الحديث والقديم فى الجهاد ضد الاستعمار والغزو الأجنبى وفى نشر الإسلام فى مناطق واسعة من القارة الأفريقية مثلاً على يد السنوسية والمهدية وطرق المغرب الأقصى . ولا زلنا نذكر كفاح المهدى فى السودان والملا فى الصومال . وإذا نظرنا إلى العالم اليوم نجد أن الطريقة النقشبندية تقوم بدور بطولى فى مواجهة الدعاية الإلحادية السوفيتية فى بعض جمهوريات آسيا الصغرى من خلال ممارساتها التعبدية فى الزوايا ونشر الإيمان الإسلامى . كذلك فإن حركات الرهبنة الغربية تحولت فى العصر الحديث إلى مراكز للبحث العلمى والدراسة والتبشير والعمل الإجتماعى .

أما البابوية التى شهدنا فيما سبق طرفاً مما آل إليه مصيرها فى القرن العاشر الميلادى فقد تحولت فى العصر الراهن إلى مؤسسة أشبه بما كانت عليه الخلافة فى عصور الإسلام الزاهية . فهى القيادة الفعلية (روحياً ودنيوياً) لمئات الملايين من المسيحيين . وهى مركز الثقل والتوجيه والوحدة بينهم عبر صراعات المذاهب والقوميات التى خلفتها العلمانية فى الغرب . وهى المصدر الذى تنطلق منه دعوة الوحدة بين الكنائس

الشرقية والغربية بعد طول فراق وشقاق وفى وقت تبرز فيه بين المسلمين دعاوى النزاع والتشتت بحجج واهية غابرة كخلاف بين مذهب سنى وآخر شيعى أو نتيجة لتوزعهم بين عشرات من الاتجاهات المختلفة الأسماء المتوحدة المصدر فى العلمانية والإلحاد .

لكن هذه الاعتبارات لا تلغى الصورة التى رسمتها مريم جميلة لآثار انعدام الشريعة والهدى الإلهى فى المسيحية على قبول هذا الدين بالعلمانية وعلى تطوره تاريخيا فى اتجاهات تجمع ما بين تفريط وإفراط ، ما بين انغماس فى الشهوات والإجرام عند القيادات وما بين رهبانية متشددة عند قطاعات من الجماهير . وهنا تبرز وسطية الإسلام وتوازناته الملائمة للفطرة الإنسانية .

الألوهية فى العقيدة المسيحية

بعد جولتها التاريخية فى تطورات المسيحية الغربية تعود مريم جميلة لبحث جوانب من العقيدة الكنسية . وهى تؤكد على ما ذكرته من قبل بشأن تغلغل الوثنية فى هذه العقائد لاسيما ما كان منها مناقضاً بشدة للمفاهيم الإسلامية . وتختار للبدء فى تناولها للموضوع فكرة الألوهية فى المسيحية . وتسعى لإبراز وشرح هذه الفكرة من خلال تصورات الكنائس نفسها دون أن تتدخل برأى قد يفسد موضوعية العرض .

تعتمد مريم فى تقديمها لفكرة الألوهية المسيحية على كتاب بعنوان «**فهم الإيمان الكاثوليكى**» . وربما كان الدافع وراء ذلك أن العقيدة الكاثوليكية تنتشر بين أكثرية المسيحيين فى العالم . ويعرض الكتاب لنواحى الإيمان فى هيئة أسئلة وأجوبة حسب ما جرت عليه العادة الكنسية المعروفة باسم الكاتاكيزم أو تلقين العقيدة . ونجد صلب هذه العقيدة فى العبارات الآتية : أؤمن بالإله ، الأب القدير خالق السموات والأرض وبعيسى المسيح ابنه الوحيد وإلهنا الذى أنجبه الروح القدس وولد من العذراء مريم وتعذب فى حكم بونيتوس البيلاطى وصلب ومات ودفن . ونزل إلى الجحيم ثم قام ثانية من الأموات فى اليوم الثالث . وصعد إلى السماء حيث يجلس على يمين الإله الأب القدير . ومن هناك سيأتى كى يحاسب الأحياء والأموات . وأؤمن بالروح القدس والكنيسة الكاثوليكية المقدسة .

وتبدأ الأسئلة والأجوبة بعد ذلك لإيضاح جوانب العقيدة : هل هناك إله واحد ؟ نعم هناك إله واحد . كَم شخصا (أقنوما) يوجد فى الإله ؟ يوجد فى الإله ثلاثة أشخاص مقدسة ، الأب والابن والروح القدس . ولا يستطيع العقل البشرى بدون مساعدة الوحى الالهى أن يعرف بوجود الثالوث المبارك لأنه سر غيب . وحتى بعد أن كشف الإله عن وجود الثالوث المبارك فإننا لا نستطيع فهمه . وعندما نؤمن بكلام الإله عن أن هناك ثلاثة أشخاص فى إله واحد فإننا لا نعتقد أن ثلاثة أشخاص يكونون شخصاً واحداً أو أن ثلاثة آلهة هم إله واحد لأن ذلك سيكون تناقضاً .

وهل الأب إله ؟ إن الأب هو الإله والشخص الأول من الثالوث المبارك . والشخص الأول من الثالوث المبارك يدعى الأب لأنه منذ الأزل يلد الشخص الثانى ابنه الوحيد المولود . والإله الأب يدعى بالشخص الأول ليس لأنه أكبر أو أكثر عمراً من الشخصين الآخرين وإنما لأنه لم يولد . وهل الابن إله ؟ إن الابن هو الإله والشخص الثانى من الثالوث المبارك . والشخص الثانى من الثالوث المبارك يدعى بالابن لأنه منذ الأزل هو الابن الوحيد المولود من الأب . وهو ينبثق من الأب ويدعى الكلمة الإلهية أو حكمة الأب . وهل الروح القدس إله ؟ إن الروح القدس هو الإله وهو الشخص الثالث من الثالوث المبارك . والشخص الثالث من الثالوث المبارك يدعى بالروح القدس لأنه منذ

الأزل قد انطلق من نفس الأب والابن . وهو منبثق منهما ويدعى بمنحة الحب من الأب والابن .

وما الذى نعنيه بالثالوث المبارك ؟ نعنى به نفس الإله الواحد فى ثلاثة أشخاص إلهيين . وهل الثلاثة أشخاص الإلهيين يتميزون عن بعضهم البعض ؟ إن الثلاثة أشخاص الإلهيين يتميزون بالكامل عن بعضهم البعض . وعلى الرغم من أن الأب والابن والروح القدس هم ثلاثة أشخاص متميزون إلا أنهم غير متمايزين فى طبيعتهم الإلهية . وهل الثلاثة أشخاص الإلهيين متكافئون تمام التكافؤ مع بعضهم البعض ؟ إن الثلاثة أشخاص الإلهيين متكافئون تمام التكافؤ مع بعضهم البعض لأنهم نفس الإله . ولا يسبق أحدهم الآخر فى الزمن أو القدرة وإنما هم جميعاً أزليون وقادرون لأن لهم نفس القدرة الإلهية . وكيف يمكن للثلاثة أشخاص الإلهيين أن يكونوا إلها واحداً مع تمايزهم عن بعضهم البعض ؟ إن ذلك لأن لهم كلهم نفس الطبيعة الإلهية ونفس أوجه الكمال ونفس الأعمال الخارجية . ولكن كى نتعرف بصورة أفضل على الثلاثة أشخاص الإلهية فإننا ننسب القدرة وأعمال القدرة كالخلق إلى الأب ، والحكمة وأعمال الحكمة مثل الهداية إلى الابن ، والحب وأعمال الحب مثل التقديس إلى الروح القدس . وهل يمكننا أن نفهم الثلاثة أشخاص الإلهيين بالكامل على الرغم من كونهم ثلاثة متميزين ومع ذلك يكونون إلهاً واحداً ؟ نحن لا نستطيع فهم هذه الحقيقة بالكامل

فهى سر غيبى . وفى الآخرة سيكون هناك فهم أكثر لهذه الأسرار ولكن لن يكون أبداً فهم تام لا نهائى لها .

وإزاء هذا التصور المعقد يحاول المبشرون ودعاة المسيحية أن يعتذروا عنه ويبرروه بشتى الوسائل . وتختار مريم لأحدهم (وهو كينيث كراج الذى سبق أن أشارت إليه) محاولة من هذا النوع . وهو يقول أن مفهوم البساطة ليس له مجال فى فهم العقيدة المسيحية ولا يجب أن توزن هذه العقيدة به . كما أن التصور الحسابى لوجود ثلاثة أشخاص فى إله واحد مع ما يثيره ذلك من تعقيدات أو صعوبات يجب أن يستبعد هو الآخر . ومفهوم ميلاد الابن من الأب ليس الولادة الجسدية المعروفة وإنما هو تشبيه من الحياة البشرية حيث تعبر العائلة عن فكرة الإله كما يقول القديس بولس وتستمد اسمها منه (ربما يشير إلى عبارة رب الأسرة ، ربة البيت ، إلخ) . والعقيدة المسيحية تعلو على فهم العقل وهى لا تعنى الشرك بل أقرب ما يشبهها هو تعقد وتركيب الشخصية البشرية . فنحن نقول أن شكسبير الشاعر والمسرحى الإنجليزى شخص واحد لكن جوانب شخصيته متنوعة . ونحن نقول إن محمدًا شخص واحد لكنه النبى والقائد والقدوة وهكذا الإله .

والحقيقة أن آراء المبشر كراج تحفز دوماً على المناقشة كما شاهدنا عند طرح فكرة العلمانية . فنحن نقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو النبى والقائد والقدوة وهو الزوج والأب والابن والعابد والقاضى ولا يعنى

ذلك أن هناك ثمانية أو عشرين شخصاً فى شخص واحد وإنما يعنى أننا نختار أفعالاً أو حركات أو صفات أو كيفيات لإنسان واحد ونعزلها وندرسها تحت باب معين أو كلمة معينة لغرض أو آخر . كما أن هذا لا يعنى أن هذه الصفات متكافئة أو ظهرت فى وقت واحد أو أن بعضها يخرج منه ليتجسد فى شخص آخر كما خرج الابن ليتجسد فى المسيح عند المذاهب النصرانية (أو بعضها) . والمهم هو كيف يمكن أن نختار البشر كنموذج ثم نتصور الإله على مثاله ؟ ويقول كراج إن الشخصية البشرية المعقدة تتضمن داخل الإنسان الواحد الكثير من الجوانب والشخصية الإلهية هى على مثالها ولكن أغنى . وهذا يضعه فى تناقض فإذا كنا نستطيع أن نعزل فى محمد أو شكسبير عشرين أو خمسين أو ألف حال وحركة وصفة فكيف نعزل فى الإله ثلاثة فقط ؟ ويتخبط المبشر فهو تارة يعتمد على التشبيه البشرى وتارة أخرى يقول إن هذه أسرار تعلو على العقل والفن ومرة ثالثة يقول إن الدليل الوحيد عليها هو الوحى دون أن يذكر هو أو غيره من النصارى نصوص الوحى الإنجيلى الدالة على ذلك . وهو يستبعد مفهوم البساطة الذى يمكن أن ترفض العقيدة المسيحية إذا وزنت به دون أن يحدد سبب الاستبعاد سوى قوله إن الحلول البسيطة خداعة . ولكن هل نحن هنا فى مجال العقيدة المنزلة الموحى بها أم فى مجال السفسطة المتعسفة ؟ وما هو الدليل العقلى الضرورى الذى يثبت أن كل حل بسيط لمشكلة ما هو حل

خداع ؟ ولنفرض أننا أمام مشكلة بسيطة فهل يتحتم أن يكون حلها مركباً ؟ ولا ننسى أن هناك أنواعا ومستويات من المشاكل ومن الحلول . ثم هو يعترف بأن التصور الإلهي فى المسيحية يمثل مشكلة يتحتم البحث عن حل لها فهل مما يتسق مع الوحي الإلهي والهداية الربانية أن تنزل على الناس ألغازاً يتخبطون فى حلها فلا يعرفون الإله المطلوب منهم أن يعبدوه ويتدينوا بدينه ؟

إن سبب التخبط هو أن العقيدة الكنسية قد وضعها البشر دون أى هداية إلهية وتوضح مريم جميلة هذا الجانب فى وقت لاحق . لكنها تكتفي فى المقام الحالى برد بسيط (!) ومفحم على المبشر . فهى ترد على دعواه بأن مفهوم المسيحية المركب لا يتضمن تعدد الآلهة قائلة : إن الإسلام لا يكتفي بتحريم التعدد نفسه أو الشرك بل يحرم كل الطرق المؤدية إليه . ومن المؤكد أن مفهوم الثالوث الذى يحاول بتخبط أن يبرره فى إطار مفهوم الإله الواحد كى يحمى المسيحية من تهمة الشرك يؤدى هو نفسه إلى القول بتعدد الآلهة كما تثبت التجربة التاريخية عند المسيحيين . وتتجه الكاتبة أولاً إلى ضرب الأمثلة من بعض العقائد . فالفلاسفة الهندوس مثلاً ينفون أن تعدد الإلهة عندهم يعنى الشرك . ولديهم ثالوث إلهى هو براهمان الخالق وفيشنو الحافظ وشيفا المدمر والملايين من الآلهة الصغرى التى يقولون عنها : إنها جوانب أو مظاهر من الإله الواحد . وينطبق نفس الكلام على وثنيى العرب الذين كانوا

يؤمنون بوجود الإله الواحد ويتخذون أصنامهم مجرد وسائل للتقرب إليه أو يعدونها من مظاهره و« بناته » .

أما مفهوم المسيحية المركب عن الإلوهية فقد ضم أيضاً الصلاة إلى القديسين وتوقير صورهم ومخلفاتهم وعباده « أم الإله » مريم والصلاة للصلبان والتماثيل والصور والإيمان بشفاعة القديسين . وتدلل مريم جميلة على كل هذه النواحى بفقرات مطوله من كتاب « **فهم الإيمان الكاثوليكى** » وترى أن هذا الفهم قد أدى إلى أن ينشغل الملايين من المسيحيين البسطاء بالصلاة إلى القديسين بدلاً من الصلاة إلى الإله الذى يسمونه فى زحام مئات القديسين الذين تكرسهم الكنيسة الكاثوليكية .

وتعطينا الكاتبة أمثلة من واقعها وممارسات البيئة الأمريكية عن مظاهر الشرك التى أدى إليها مفهوم الألوهية المسيحى وما يحيط به من مظاهر . فهناك مثلاً الصلاة تسعة أيام متوالية إلى القديس أنتونى إذا أراد الشخص استعادة شئ فقد منه . وتقول مريم : إن مدرساً مسيحياً نصحها بذلك عندما فقد منها كتاب مؤكداً قدرة هذا القديس على إرجاع المفقودات . وتفيض فى الحديث عن صناعة الصلبان وتماثيل القديسين والمسيح والعذراء ورواج بيع هذه الأشياء فى المجتمع الأمريكى والتبرك بها والصلاة لها وأمامها ووضعها فى السيارات مثلاً لحمايتها من السرقة . وتتساءل كيف يمكن أن نميز بين هذا اللون من

تعدد المعبودات وبين الوثنية .

وتؤكد كلامها عن تسهيل مفهوم الألوهية فى النصرانية للشرك بنقل صلوات موجهة إلى العذراء مريم التى لها عبادة فى الكنائس بإعتبارها والدة الإله : تحية أيتها الملكة المقدسة يا أم الرحمة وحياتنا وأملنا . إليك نصرخ نحن أبناء حواء المساكين المطرودين . نرسل إليك بآهاتنا حزانى باكين فى وادى الدموع . انظرى إلينا بعين الرحمة وأظهرى لنا ثمرة رحمك عيسى أيتها العذراء مريم الرحيمة المحبة . تحية يا مريم الرحيمة إن الرب معك ، مباركة أنت بين النساء ومبارك ثمرة رحمك عيسى . أيتها العذراء مريم يا أم الرب صلى من أجلنا نحن الخاطئين الآن وفى ساعة موتنا . اذكرى يا رحيمة أنه ما التجأ أحد إلى حمايتك وتضرع لعونك وطلب شفاعتك ثم ترك بلا مساعدة . إننى أجىء إليك وأقف أمامك خاطئاً نادماً . يا أم الكلمة المتجسدة لا تردى توسلاتى ولكن برحمتك اسمعى واستجيبى آمين .

وتقارن الكاتبة بين أمثال هذه الصلوات المؤلفة والتى يمتزج فيها الدعاء لمريم والقديسين بنزعة عاطفية مبالغ فيها بالدعوات فى الإسلام المأخوذة من المصدر الإلهى المباشر وهو القرآن ومن السنة المعصومة . وهى دعوات لا أثر للشرك فيها مطلقاً وإنما تخلص التوجه إلى الله وحده .

وهى تستغل تدهور مفهوم الألوهية الكنسى إلى أشكال من التوجه

لغير الله كى تناقش محاولة أخرى للمبشر كينيث كراج فى تشويه الإسلام . إذ يعمد هذا الكاتب إلى تصوير تحريم الإسلام للصور والتماثيل اتقاء لخطر الشرك بأنه مفهوم ساذج وقاهر لأن الشرك يوجد فى القلب قبل أن يوجد فى الصور والأشكال الملموسة ولن يؤدى هذا التحريم إلى منع الشرك الذى يمكن أن يرتبط بعبادة الدولة أو المادة أو الشعب . أما المسيحية كما يرى كراج فإنها لا تخشى من الصور بل تعتبرها مظهراً من مظاهر تجسد الإله فى المسيح وموت المسيح على الصليب . ولهذا فإن موقفها أكثر نضجاً من الإسلام . وترد مريم جميلة بأن القضية المطروحة هنا ليست قضية نظرية بل عملية . فمن المؤكد والمعروف أن الشرك يمكن أن يوجد بدون أصنام مجسدة وأن تحريم الصور والتماثيل لن يضمن الوحدانية المحضة . غير أن وجود الأشكال التمثيلية يساعد على الشرك وتعدد الآلهة من حيث أنه يوفر أجساماً موضوعية تتركز فيها المشاعر النفسية من التوقير والتعلق والإعزاز والحب والإجلال .. إلخ . وهذا فى الواقع ما يتناساه المبشر . فهو يتحدث عن عبادة الدولة أو الشعب كأنماط من الشرك . لكن هذه الأنماط ترتبط عادة بأشكال مادية كتماثيل الزعماء أو رموز وأنصاب الجندى المجهول وخلافه والمرايات والشعارات المصورة التى تتحول عند عباد الدولة أو الناس أو أشباه ذلك من العقائد إلى مجسدات لما يوقرونه وتصبح لها فى الحقيقة مكانة الأصنام بينما هى نشأت كأعمال فنية تصويرية . ومن هنا

فإنه مع وجود الاتجاه النفسى الباطنى إلى الشرك فإن وجود التماثيل والأشكال التصويرية يدعمه ويقويه بل ويستثيره بمنحه الجسم الموضوعى الذى يتعلق به ويثبته ويحدده . ولا يجب الاحتجاج كما تقول مريم جميلة، ببعد العهد عن زمن الأصنام فالطبيعة البشرية لا تتغير وهى تخضع دائماً لنفس المغريات .

أما عن استخدام المسيحية للصور والتماثيل سواء فى الأصل من حيث التأكيد على التجسد الإلهى فى المسيح أو فيما بعد بصور المسيح ووالدته والقديسين والصليب وتماثيلهم فتقول مريم جميلة : إن لهذا الاستخدام آثاراً ضارة ومهلكة من حيث أنه يخلق فى الأذهان صورة معينة ومحدودة وقاصرة عن الإله الخالق المتعالى عن عالم الحس والغيبى كما يصفه المبشر نفسه . إن ما يحدث هو أن هذا الإله الذى لا تنكر النصرانية تعاليه يتحول إلى أسير لتصورات بشرية . ويا ليتها تصورات راقية بل هى بنت بيئات معينة وتجارب تاريخية نسبية . ومن هنا نجد أن الصورة الرئيسية التى أفرزها الفن المسيحى عن الإله وهى صورة الرجل المسن ذى اللحية البيضاء الجالس فى السماء كان لها أثر سيىء على الدين المسيحى نفسه . وتقول الكاتبة : إنها فقدت إيمانها بالإله عموماً ورفضته نتيجة تصورها له فى مرحلة المراهقة على أنه رجل ملتح عجوز يطل عليها من السماء . أما المسئول عن زرع هذه الصورة فى ذهنها فهو عشرات الصور التى كانت تراها له على هذه الصورة فى الكتب

والمتاحف . وترى أن الكثيرين من شباب الغرب يشاركونها فى شعورها هذا .

وتستعين الكاتبة بتحليل ذكى للكاتب اليهودى الأصل محمد أسد يوضح فيه هذا الخطر الذى استسلمت له المسيحية : ربما كان أهم خطر فكرى أعاق نهضة أوروبا الدينية هو تصوير المسيح عيسى عليه السلام بأنه ابن الله . وبالطبع فإن المسيحيين ذوى النزعة الفلسفية لم يؤمنوا بفكرة النبوة هذه بمعناها الحرفى فقد كانوا يفهمونها على أنها تجل للرحمة الإلهية فى شكل بشرى . لكن الأغلبية الساحقة من المسيحيين كانت تنظر إلى لفظة « ابن » بمعناها المباشر . إذ كانت بنوة المسيح للإله عندهم مؤدية إلى إخفاء الطابع البشرى على الإله نفسه الذى اتخذ شكل الرجل العجوز الطيب ذى اللحية البيضاء الطويلة وتأكد هذا الشكل من خلال صور فنية رائعة لا حصر لعددها بقيت فى الوعى الباطن الأوروبى . ولم يتجه أحد إلى التشكك فى هذه الفكرة الغريبة طيلة هيمنة عقيدة الكنيسة على أوروبا . ولكن مع نشوء حركة التفكير الحر بعد العصور الوسطى لم يعد المفكرون يتقبلون صورة الإله الأب ذى الطابع البشرى وهى الصورة التى ارتبطت ارتباطاً راسخاً بالدين فى الذهن الشعبى . وأخذت العقول الأوروبية المستنيرة تبتعد عن مفهوم الإله كما تقدمه الكنيسة . وحيث أن هذا المفهوم كان الوحيد الموجود لديهم عن الألوهية فقد رفضوا معه فكرة وجود الإله نفسه ومعها كل الأديان .

وهكذا يتضح الخطأ الفادح الذى وقع المبشر كراج فيه . فتقبل الصور والتماثيل والتجسيد لم يكن علامة للقوة والذكاء فى المسيحية تواجه سذاجة الإسلام الخائف من التماثيل كما يقول بل كان الباب الذى دخلت منه أخطار الشرك والتوجه إلى غير الله وفرض الطابع البشرى المحدود على الإله وإنزاله من مستوى الغيب الذى لا تدركه الأبصار إلى مستوى الصورة المجسدة التى تنفر منها العقول المستنيرة وتتجاوزها رافضة معها الدين وفكرة الألوهية ذاتها . وتنكشف خلال ذلك نواح من الحكمة الإسلامية لم ينتبه إليها أحد من أولئك الذين يسارعون إلى تقليد الأجانب والنصارى بدون وعى فى أى قضية كانت .

وتعود الكاتبة إلى البحث فى عقيدة الألوهية الكنسية لتؤكد على ما سبق أن رددته من أن هذه العقيدة قد صاغتها اليد البشرية . ونتابع معها التطور الذى أدى إلى نشأتها فى القرن الرابع بعد الميلاد : تسجل الأناجيل فى العام ٣٢ من الميلاد عبارة : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وربى وربكم . ويكتب بولس فى حوالى عام ٥٧ : لا يوجد غير إله واحد . وبالنسبة لنا لا يوجد غير إله واحد الأب والابن المسيح عيسى . ويكتب كليمنت حوالى عام ٩٦ : لقد أرسل الله المسيح وأرسل المسيح الحواريين . وفى عام ١٢٠ بدأت عقيدة الحواريين فى الظهور عند الكنيسة وكانت تقول : إنى أؤمن بالإله الأب القدير . وفى عام ١٥٠

أدخل الشهيد جوستين تعقد الفلسفة الأفلاطونية على بساطة المسيحية فأفسدها . وفى عام ١٧٠ ترد كلمة «ثلاثى» لأول مرة فى الكتابات المسيحية . وفى عام ٢٠٠ يستخدم ترتوليان كلمة الثالوث لأول مرة . ويعارض أوريجن فى عام ٢٣٠ التوجه إلى المسيح بالدعاء . ويعلن سابيليوس فى عام ٢٦٠ أن الأب والابن والروح القدس هى ثلاثة أسماء لإله واحد أو لنفس الإله . وحتى عام ٣٠٠ لم تعرف الكنيسة أية صلاة تعبر على المفهوم التثليثى . ويكتب لاكتانيوس عام ٣١٠ أن المسيح لم يدع نفسه بالإله قط . ويقول يوسيبيوس عام ٣٢٠ إن المسيح يعلمنا أن ندعو أباه بالإله الحق وأن نعبده (أى الإله الحق) . ويوافق مجمع نيقية عام ٣٢٥ على تسمية المسيح بإله من إله والإله الحق من الإله الحق . وتتصاعد فى عام ٣٥٠ صراعات شديدة فى الكنيسة حول عقيدة التثليث . ونشأت عام ٣٧٠ عبارة «المجد للأب والابن والروح القدس» وقوبلت بالاعتراض عليها كبدعة . أما فى عام ٣٨١ فقد وضع مجلس القسطنطينية اللمسات الأخيرة على عقيدة «ثلاثة أشخاص فى إله واحد» . وهدد الامبراطور ثيودوسيوس فى عام ٣٨٣ بمعاقبة كل من لا يؤمن بالثالوث ولا يعبده . وصدر عام ٤٩٦ مرسوم من جيلاسيوس بإدانة إنجيل برنابا الذى يدعو إلى التوحيد الخالص ويتنبأ بمجئ محمد عليه الصلاة والسلام .

وقد فرض الإمبراطور قسطنطين عقيدة التثليث بقوة الدولة وجعل

مخالفتها جريمة يعاقب عليها القانون مدفوعاً برغبته فى مسايرة نفوذ الكنيسة القوى ومنع الخلافات والاضطرابات وضمان وحدة رعاياه من خلال وحدة الكنيسة . وقد أدت كل هذه التطورات إلى تعميق الجدل والملاحاة بين المسيحيين العاديين حول هذه القضايا اللاهوتية المتشابكة . ويصف جريجورس النياسى أحوال القسطنطينية عاصمة بيزنطة فى القرن الرابع الميلادى فيقول : تمتلئ هذه المدينة بالعمال والعبيد وكلهم يدعى الفقه المتعمق ويبشرون فى المحال والشوارع . فإذا أردت رجلاً ليصرف لك قطعة من الفضة فإنه يخبرك عن النقاط التى يختلف فيها الابن عن الأب . وإذا سألت عن ثمن رغيف الخبز جاءتك الإجابة بأن الابن أقل مرتبة من الأب وإذا سألت عما إذا كان الحمام قد أعد يكون الجواب بأن الابن قد خلق من العدم .

ونرى أن بحث مريم جميلة فى التأثيرات الوثنية على العقيدة المسيحية فى الألوهية يكمل ما استعرضناه فى هذا الفصل ويضاف إلى تتبعها لتطور ونشأة الأصل الوضعى الكنسى لهذه العقيدة التى صارت مفروضة بقوة الدولة فى وجه الآراء المسيحية الأخرى ومنها ما كان يقرب كثيراً من عقيدة التوحيد لكنها اعتبرت هرطقات مرفوضة . وربما كان ينقص اكتمال المعالجة أن تتعرض الكاتبة إلى المؤثرات اليونانية على ظهور هذه العقيدة كأفكار أفلاطون عن الإله والعقل والروح وفلسفة أفلوطين عن الفيوضات أو الصدور الإلهى وغير ذلك من المجالات التى

ليس هنا مكان الحديث عنها . كذلك فإن من مكملات الحديث عن هذه العقيدة المركبة النظر فى مسألة الخوض فى ذات الله دون دليل والبحث الفج فى مسائل التشبيه والتجسيم والمفهوم الحرفى للصفات الإلهية وغير ذلك من النقاط التى دخل فيها ما يسمى بعلم الكلام فى ميدان الفلسفة عند بعض المنتسبين للإسلام (واليهودية أيضاً) .

والحقيقة التى يرتاح إليها العقل هى : أن الطريق الوحيد لمعرفة الله هو الوحى المنزل من عنده وما علمه نبيه المرسل نقلاً عنه . أما الخوض فى ذات الله وحقيقته فهو ليس عملاً دينياً جليلاً وواجباً مفروضاً بل هو على أفضل التصورات وبدون التشكيك فى دوافع من يقدمون عليه لا يعدو أن يكون نشاطاً عقلياً يرجمه بالغيب والظن ويصنع فيه الإنسان صورة للإله على مثاله وحسب مدركات ذهنه وخياله فى فترة معينة ومكان معين وداخل إطار ثقافة ما ووفقاً لنظام فلسفي دينى منطقي أو آخر . ولا يخرج هذا النشاط عن طرح تصور وضعى للإله لا يلزم إلا واضعيه حتى ولو لجأ فى بعض الأحيان إلى استعارة ثياب دينية إسلامية أو غير إسلامية . فالمصدر المعتمد هو الوحى المعصوم المتواتر الذى يحدد أن الله ليس كمثله شئ وهو ليس مقولة فلان أو علان . وإذا فقد الوحى أو تشوه وضاع من عند قوم فراحوا يأخذون من الوثنية والفلسفة الوضعية والتصوف اليونانى منطلقات عقائدية فليس هذا بمسوغ لأناس آخرين يزعمون أن عندهم الوحى المنزل المحفوظ أن يبدءوا فى صناعة

الآلهة كما فعل الآخرون . إن صياغة عقيدة وضعية فى غياب الوحى بالأخذ من مصادر لا دينية هو نفس الشئ كصناعة إله وضعى كما حاول العديد من علماء الكلام عند المسلمين . وكلا الشيئين لا يختلف فى كثير أو قليل عن صناعة العجل الذهبى الذى عبده بنو إسرائيل أو صناعة العديد من العقائد والآلهة فى المذاهب العصرية وتخصيصها بالعبادة وأبرز هذه الآلهة فى الفكر الأوروبى الحديث هو الإنسان نفسه بعد أن كف هذا الغربى عن صناعة آلهة صنمية أو فكرية خارجية وعبد نفسه فى صور عديدة .

مفهوم الخطيئة فى المسيحية والإسلام

تواصل مريم جميلة عرضها لعقائد المسيحية فتنتقل إلى مفهوم الخطيئة فيها وهو من أشهر تصوراتها وأكثر ما يفرق بينها وبين الإسلام من ناحية أخرى . ويبدأ هذا المفهوم من بداية الخلق أى من عند آدم وحواء . وفى الإسلام أن الله غفر لهما خطيئتهما ورفع آدم إلى منزلة الأنبياء . فما هو التصور فى المسيحية ؟ إن الرب لم يغفر لهما . وترتب على ذلك أن كل من يولد من نسلهما يصل إلى الحياة حاملاً الخطيئة ولا ترفع عنه إلا بعد أن يتعمد فى الديانة المسيحية ويقبل بالإيمان بالمسيح كابن الرب الوحيد المولود وفادى خطايا كل البشر وعندئذ يغفر له الإله . وهذا هو مفهوم الخطيئة الأصلية التى يولد بها الطفل وتلصق به من أصله . ويقابل هذا التصور فى الإسلام ميلاد كل طفل على الفطرة وعدم تكليفه إلا بعد البلوغ حيث تحسب عليه الذنوب إذا استسلم لوسوسة إبليس أو الحسنات إذا قاوم .

وفى العقيدة المسيحية أن الشجرة التى أكل منها آدم وحواء هى شجرة معرفة الخير والشر وكانا مأمورين بالامتناع عنها وكان جزاء ذلك حرمانهما من الرحمة الإلهية وتعرضهما للموت والمعاناة والميل إلى الشر والطرد من الجنة ويولد البشر نتيجة لذلك محرومين من الرحمة الإلهية ووارثين للعقاب الذى استحقه أبواهما . أما التصور الإسلامى فتعبر عنه كما هو معروف الآية من ١١٥ إلى ١٢٣ من سورة طه : « ولقد عهدنا

إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقي . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سَوْءاتُهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقي » .

وفى الإسلام أن التكليف مرفوع عن النائم والمجنون والطفل حتى يبلغ . فإذا بلغ فإنه حر الإرادة فى أن يذنب أو يحسن . وهو مسئول عند تمتعه بكامل قواه العقلية . وتأتى كرامة الإنسان من نجاحه فى مقاومة الإغراء بالخطيئة رغم قدرته على ارتكابها . والحياة بالنسبة له اختبار يتصل بالآخرة . فمن يستسلم لله وشريعته وأوامره كما جاءت فى القرآن والسنة ويضحى بمتع هذا العالم فى سبيل الحياة الآخرة فقد فاز . أما من ينكر حاكمية الله ويطيع غيره ويرفض الشريعة الإلهية مفضلاً القوانين البشرية ويتبع هواه فسيدان يوم القيامة ككافر ويخلد فى العذاب . وتنطبق هذه الحرية والمسئولية على كل فرد رجلاً كان أو امرأة . وإذا خرجنا عن إطار هذا التصور الإسلامى العام للخطيئة أو الذنب الذى يمكن للإنسان أن يتوب عنه أمام الله وحده وفى أى وقت

شاء ويطمع فى المغفرة إذا ندم وأحسن التوبة فإننا نجد أن التصور المسيحى يصدمنا بضرورة التعميد على يد قسيس كشرط لمجرد رفع خطيئة لم يكن للإنسان أو للطفل المعمد يد فيها . ويرتكب الآباء خطيئة عظمى إذا لم يبادروا بتعميد أطفالهم بأسرع ما يمكن لأن الطفل إذا مات دون تعميد لم يدخل الجنة وأقصى ما يطمع فيه حسب رأى بعض المذاهب المتشددة مثل الكالفنية أن يوضع فى أدنى درجات الجحيم عقاباً على خطيئة ارتكبها آدم الذى سيجلس على يمين الرب يوم الحساب مع المسيح وصفوة المختارين ليشترك فى حساب البشر . ونصدم مرة أخرى عندما نجد القديس أغسطين يتحدث عن الطفل كخاطئ بالولادة مما يتجلى فى حقده على شقيقه إذا شاركه فى لبن أمه ولرغبته فى الاستئثار بهذا اللبن . ولكنه ينسى أن هذا الحقد أو الأثرة إن صح وجودها عند كل طفل إنما تختلف عما قال به رؤساء دينه عن وراثة خطيئة آدم وهى غير مكتسبة للطفل بأى حال .

نحن إذن أمام مفهومين متميزين عن الخطيئة . أحدهما يجعلها ملصقة بالإنسان دون كسبه أو عمله فى حالة لها تدعى الأصلية وهى لا ترتفع بعمل فردى أو إحسان وتقوى وصلاح بل بعماد كهنوتى وقبول بعقيدة الألوهية الكنسية . أما الآخر فلا يعرف فكرة وراثة الخطيئة بالأصل أو تحميل وازرة وزر أخرى بل يحدد للخطيئة مفهوماً يتصل بإدراك الإنسان ووعيه واكتمال عقله وحريته ومسئوليته ويجعلها مترتبة

على مخالفة النهج الإلهى كما يجعل منها مخرجاً فردياً بالتوبة المباشرة إلى الله دون وسيط ويحيل هذه التجربة بأسرها بما فيها من صمود وثبات ومخالفة للهوى إلى علامة على كرامة الإنسانية ومغزى أو حكمة تجربتها وطريق لها إلى النجاة فى الآخرة .

ويرتبط بمفهوم الخطيئة فى المسيحية عقيدة سبق التقدير التى قال بها المذهب الكالفنى والتى تقضى بأن الرب قد حكم على الجنس البشرى بالتخليد فى الجحيم عقاباً على الخطيئة الأصلية واستثنى من ذلك طائفة قليلة من المختارين ينجون من العذاب الأبدى . وأدت هذه العقيدة كما يدرك من توسع فى قراءة الآداب الغربية الحديثة كالإنجليزية والأمريكية مثلاً إلى شيوع روح من التشاؤم واليأس والتخويف المرضى من العقاب الإلهى دون ذكر رحمة الله والتبشير بمغفرته . وكان لهذه الروح المنفرة والمخالفة لما فى الإسلام مثلاً من التأكيد على عدم اليأس من الله ورحمته ومغفرته أسوأ الأثر على التدين فى الغرب حيث ارتبط الدين بالجهامة والصرامة والحزن مع القنوط من حسن المصير . وتذكر لنا الكاتبة نموذجاً لكاتب مسيحى ابتعد عن الدين نتيجة لنشأته فى بيت متمسك ببعض هذه المذاهب الداعية لإله معذب منتقم دون رحمة .

يقول هذا الكاتب : إن عمه كان يدير كنيسة تابعة لمذهب الميثودست . وكان يجمع الأسرة بعد وجبة العشاء كل يوم ويحدثهم عن

العذابات التى تنتظر الخاطئين فى جهنم . ويقص علينا الكاتب مشاعر الخوف التى كانت تنتابه من جراء هذه العظات المخيفة من رجل يكره مجرد الإبتسام . ويقول : انه كان يتخيل الرب وحشاً يريد أن ينقض عليه من ركن فى الغرفة ويفترسه عقاباً على خطاياه . ولم يكن يجرؤ حتى على مجرد تحريك ساقيه أو الاعتدال فى جلسته خلال قراءة عمه فى الإنجيل . وكانت تلم به فى نومه أحلام مزعجة يرى الشياطين فيها تصرخ وتطارده . وقد أبعدته هذه التجارب عن الدين .

ولا ريب أن أمثال هذه السلوكيات تنبع من نظرة ترى الخطيئة قدراً مفروضاً لا فكاك منه ولا يرتفع بتوبة أو بجهاد شخصى . وتقتضينا الموضوعية أن نشير إلى أن تلك الاتجاهات قد اختفت أو كادت من الحياة الدينية المسيحية فى أوروبا وأمريكا وحل مكانها على سبيل رد الفعل أو مجاراة إنحراف المجتمعات تساهل شديد تجاه الخطيئة والذنوب ومخالفة التعاليم الأخلاقية . وأصبح من المألوف والشائع الآن أن نرى رجال الدين هناك والكنائس يعتمدون أساليب ربط التدين بالبهجة والسرور والموسيقي والغناء والتجاهل التام لذكر أى عذاب فى الآخرة على الذنوب والمعاصى . وليس من المبالغة القول بأن الحال قد تغير إلى النقيض من تلك الصورة المتجهمة التى تنقلها لنا مريم جميلة والتى ربما سادت خلال القرن الماضى وفترات من الحالى . ولعل قانون رد الفعل قد أعمل عمله فى الغرب فيما يختص بالتدين . ولكن من المؤكد أن

الكنائس هناك فى محاولاتها لاجتذاب الناس بأى ثمن بعد الضربات الشديدة التى تلقتها عقيدتها قد لجأت إلى التساهل وإسقاط مفهوم الخطيئة وهو من أبرز تصوراتها . ولم تعد القضية المطروحة بالنسبة لنشاطها تخليص البشر من الخطيئة الأصلية أو تلك المكتسبة فى الدنيا بأعمال التعبد والخير .. إلخ بقدر ما أصبحت جذبهم إلى الكنيسة كتنظيم اجتماعى قائم واستخدام أساليب التأثير الجماهيرى التى تلجأ إليها التنظيمات الأخرى من أحزاب وجماعات . وربما كان هذا التغير من أهم سمات علمنة الكنيسة فى الفترة القريبة .

ولا تبعد هذه التطورات كثيراً عن اتجاهات معينة يراد لها أن تروج فى الأوساط الإسلامية . فعلى الرغم من وسطية المفهوم الإسلامى عن الذنب واعتماده على الترغيب والترهيب دون بث لليأس أو اسلام للآمال الكاذبة فى النجاة بدون سعى لها نجد أن البعض يصور حركة التدين الإسلامى بأنها تشبه تلك المفاهيم المريضة التى سادت بعض الكنائس الغربية عن هلاك البشر بدون خلاص وبأنها تتسم بنفس روح التزمت والجهامة التى خلقتها تلك المفاهيم . ولا ريب أن هذا التصور ينبثق من عقول لا تبصر الواقع بل تقلد ما سمعت عنه فى الغرب وتطبق الرؤى الغربية على الحياة الإسلامية دون تمييز . فالتدين الذى تسعى حركة النهضة الإسلامية إلى نشره لا يشبه من قريب أو بعيد تلك الصور المريضة التى أشارت مريم جميلة إلى طرف منها . وهو إذا كان يقترن

بالتحذير من الذنوب والمعاصى والدعوة إلى البعد عنها فإنه يرتبط فى الوقت نفسه بالتبشير بالرحمة والمغفرة وطرح بديل هو الحياة الإسلامية المتوازنة المحققة لإمكانات النفس البشرية بما يرضى الله ويسير على منهجه ولا يعمل على العزلة عن الحياة ولا يكره البسمة والضحكة البريئة ولا ينفر من الله عز وجل . ولا أشك فى أن من يصورون التدين الإسلامى بهذه الصورة الكاذبة يعملون من طرف خفي على محاربته وعلى أن يسود بين المسلمين رد فعل يميل إلى التساهل والتسيب والانغماس فيما لا يليق بحجة الانطلاق والتحرر والصدق مع النفس وعدم التنفير من الدين .

عن المـراة

يرتبط مفهوم الخطيئة الأصلية فى المسيحية بنظرة تقلل من شأن المرأة ومكانتها باعتبار حواء هى المسئولة عن إغراء آدم بالأكل من الشجرة المحرمة حسب القصة الواردة فى سفر التكوين من الإنجيل الموجود الآن . وقد أدان آباء الكنيسة الأوائل المرأة باعتبارها أقوى مصادر الخطيئة والغواية . وما زالت بعض الأديرة فى اليونان تحرم دخول النساء إليها بل تمنع كذلك دخول الإناث من الحيوانات المنزلية ! ولا توجد فى الإسلام نظرة تؤصل تدنى مكانة المرأة . فكل من آدم وحواء مسئول مسئولية متكافئة عن عصيان أمر الله . وتضع مريم جميلة منذ بداية مناقشتها لمسألة المرأة موقف الإسلام منها فى مواجهة الموقف المسيحى . وهى تبرز هذا الموقف بالآية ٣٥ من سورة الأحزاب : «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا . » هنا نجد المساواه الكاملة فى الإنسانية وشرف العبادة وفرض المسئولية الخلقية والجزاء .

وإذ كان القرآن يرسى قواعد المساواة بين الرجل والمرأة فإننا نجد القديس بولس يرسى أسس تدنى وضع المرأة فيقول : لأن حواء أكلت

أولاً من الفاكهة المحرمة ثم أعطتها بعد ذلك لآدم وهكذا فالرجل لم يخدع بينما انخدعت المرأة تمامًا ووقعت فى الخطيئة والمعصية . وتوضح الكاتبة أن السبب وراء تركيزها على هذه النقطة هو هجمات المبشرين التى لا تنقطع على الإسلام بوصفه ظالما للمرأة . وترى أن هذا الكذب من أصحاب البيوت الزجاجية يجب أن يكشف بإبراز المعالم الحقيقية لتصور عقيدتهم لوضع المرأة وأشهر هذه التصورات يتصل بمسئولية المرأة عن الخطيئة الأصلية . ولا تتوقف الأفكار الحاطة لشأن المرأة عند هذا الحد . بل نجدها فى مواقف تبدو صغيره لكنها ذات مغزى . ولنستمع إلى القديس بولس مرة أخرى : أريدكم أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ورأس المرأة هو الرجل ورأس المسيح هو الرب . والرجل الذى يصلى أو يعظ ورأسه مغطاة يهين رأسه أما المرأة التى تصلى أو تعظ ورأسها مكشوف فإنها تهين رأسها .... إذ يجب على الرجل عدم تغطية رأسه لأنه صورة ومجد الرب أما المرأة فهى مجد الرجل . وليس الرجل من المرأة بل المرأة من الرجل . ولم يخلق الرجل من أجل المرأة بل خلقت المرأة من أجل الرجل . ولهذا يجب أن يوضع غطاء على رأس المرأة من أجل الملائكة . والنقطة التى تهم مريم جميلة هنا هى أن الدعوة لتغطية رأس المرأة فى الصلاة أو العبادة تنطلق من دافع تأكيد تدنى مكانتها بالنسبة للرجل . ومن الواضح أن هذا الدافع يختلف عما يحدث فى الإسلام من تغطية كل من الرجل والمرأة لرأسه فى

الصلاة (حسب السنة بالنسبة للرجل) . كما أن الأمر بالحشمة فى الملبس ينطبق على الجنسين وهو فى حالة المرأة لا ينطلق من اعتبارات تحقير المرأة وإخفائها عن الأنظار بل لدوافع اجتماعية من سد الذرائع وتحاشى الفتنة . وتطهير البيئة الخارجية من مظاهر قد تدفع إلى إثارة الشهوات أو الانشغال بها . ويجدر بالذكر فى هذا المقام أن أعداء الإسلام الذين يحاولون الهجوم على حجاب المرأة المسلمة يستخدمون رأى القديس بولس وينسبونه إلى الإسلام ثم يأخذون فى السخرية من هذا التحقير للمرأة الذى يقارنونه بمكانتها السامية فى المجتمعات الغربية المسيحية . وربما يرتد عون قليلاً إذا عرفوا مصدر الرأس الذى يلصقونه كذبًا بالإسلام . وهو مصدر لا يجرءون على الطعن فيه لأنه يخالف «إيمانهم العميق» بالوحدة الوطنية .

وتعلق الكاتبة على تصور المسيحية لتدنى مكانة المرأة عن الرجل لتقول : إن الأفكار الغربية الحديثة عن تحرر المرأة ليست مستمدة من التعاليم النصرانية كما يزعم المبشرون المرسلون إلى البلاد الإسلامية كى ينتزعوا النساء من دينهن إلى المسيحية . بل إن هذه الأفكار جاءت على الرغم من المسيحية ولم تتقبل بها الكنائس إلا تحت ضغط المجتمع العلمانى . فالمسيحية التى ترى طاعة الزوجة العمياء والمطلقة لزوجها وتحريم الطلاق تمامًا (حسب ما جاء فى تعاليم القديس بولس) وتفضل عدم زواج الأرامل ثانية وتعتبر العزوبية مثلاً أعلى ليست هى التى

حررت المرأة أو الرجل . وإذا كانت قد تراجعت اليوم قليلاً عن مواقفها فى مسألة الطلاق فإن ذلك لم يحدث إلا فى كنائس محدودة وظروف ضيقة ولكنه حدث خارج إطار الدين فى المجتمع المدنى والقانون الوضعى وضد رغبة الكنائس الكبرى .

وتلاحظ مريم بذكاء بعض اللمحات فتفضل عدم زواج الأرامل يشبه من بعيد ما نصت عليه الهندوكية من أن تحرق الأرملة نفسها مع جثة زوجها كى تلحق به فى العالم الآخر . والحث على العزوبية كى لا ينشغل الرجل أو المرأة عن الروح بالجسد يشبه دعاوى مماثلة فى الهندوكية والبوذية . وتقول تعاليم الكنيسة الكاثوليكية إن الآباء يذنبون إذا ما أجبروا أبناءهم وبناتهم على الزواج وهم يفضلون البقاء عزابًا . وتضع الكاتبة هذا الرأى بجانب دعوة الإسلام إلى الزواج المبكر واعتبار الآباء مسئولين عن ذنوب أبنائهم إذا لم يزوجوهم مع القدرة على ذلك .

وعلى الرغم من هذه المواقف الكنسية العقيدية من المرأة فإن دعاه النصرانية ولا سيما من يذهب منهم إلى البلاد العربية والإسلامية لا يكفون كما تقول مريم جميلة عن الطعن فى موقف الإسلام من المرأة ويروجون لأكاذيب وأساطير تتحول إلى مفاهيم راسخة عندهم لكثرة تردادها وينقلها عنهم من يميل ميلهم بين المسلمين ويحيلونها إلى شبهات كبرى يستخدمونها فى تنفير النساء المسلمات من دينهن وإشعار المسلمين

بالذلة والنقص وهز تمسكهم بعقيدتهم واشغالهم دومًا بالدفاع عن شريعتهم وانتحال الأعذار عما تحويه . وبذلك يضعف موقف الإسلام من جراء أكاذيب مفضوحة لا يكلف أحد نفسه عبء تفنيدها بالرجوع إلى الأصل بينما تروج النصرانية أو تقوى بناءً على تغطية مواقفها الحقيقية من المرأة ونسبة ما حدث فى الغرب من تحرير للمرأة (حسب المفهوم الغربى) إلى الكنيسة وتقدمها الفكرى . وتذكر لنا الكاتبة طرفًا من الاتهامات المتكررة التى يرددها المبشرون كانعدام حقوق المرأة فى الإسلام وبيعها لأى رجل يطلبها للزواج وحرمانها من التعليم وتهديدها بالطلاق وتعدد الزوجات . وتقول إنها بناءً على تجربتها الواسعة فى بلاد إسلامية عديده كمصر والسودان والسعودية وباكستان قد ثبت لها علو مكانة المرأة بين المسلمين حتى فى البيئات الفقيرة وغير المتعلمة . والتماسك الأسرى ثابت بين المسلمين على عكس ما هى عليه الحال فى الغرب . والعلاقات الزوجية تقوم على تبادل الولاء والمودة . والزيجات التى يرتبها الأهل والأقارب تمضى سعيدة دون ما يعكر الصفو .

وتصل الكاتبة فى مقابلاتها لوضع المرأة المسيحية بوضعها فى الإسلام إلى مفهوم الزواج فى كل من العقيدتين . وهى تقدم لنا فى هذه النقطة معلومات مهمة تستحق التدبر لأنها تؤثر على الكثير مما نراه حولنا من تشويه لمفاهيم الإسلام فى مجال العلاقة بين الجنسين ومحاولة اجتياحها بحجة التخلف وزرع مفاهيم نصرانية مكانها توصف بأنها

تقدمية على لسان العلمانيين الذين يدعون أنهم محايدون بين الأديان كلها وأنهم يحبذون القوانين والتصورات الوضعية المنفصلة عن كل دين فإذا بهم يقدمون لنا مسيحية الغرب على أنها هى الشرائع الوضعية المحايدة العلمية المزعومة . ولا عجب ينطقون باسم الغرب فى كل شىء ويصوغون تفكيرهم (المحايد !) حسب مفاهيمه العليا .

تنظر المسيحية إلى الزواج باعتباره سرًا مقدسًا من أسرار عقيدتها . ويلجأ دعاة النصرانية إلى استخدام هذا المفهوم لرفض تعدد الزوجات . فإذا كانت العلاقة مع الإله هى علاقة وحدانية ورفض للتعدد فهى مع الزوجة علاقة توحيد ورفض للتعدد . والعلاقة الزوجية تتم من خلال التوحد النفسى والروحى بين جسدين بحيث يصبحان شخصًا واحدًا ولأن هذا الشخص الواحد المكون من جسدين قد تكون فى ظل الكنيسة وبمباركة وجمع الرب فإنه لا يصح له أن ينفصل ليعود شخصين كما كان قبل الزواج . وأشير هنا عابرًا إلى أن الشاعر المصرى إسماعيل صبرى له عبارة تقول : إنه يحب الوحدانية فى الدين والمرأة . ولست أدرى هل ألفها بمفرده أم استعارها من مفهوم المسيحية عن الزواج .

وتقول الكاتبة : إن مفهوم الزواج فى الإسلام يختلف . فهو ليس سرًا مقدسًا كهنوتيًا يكرر فى البشر تلك الوحدة التى تراها المسيحية فى الإله ذى الثلاثة أشخاص . بل هو عقد يهدف إلى إضفاء مشروعية

على العلاقات الجنسية وإيجاد الأسس لجو أسرى صحى لتربية الأطفال . وإذا كان الإسلام يحرم العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج فإنه يحيل هذا التحريم إلى حقيقة عملية بتسهيل الزواج والطلاق وإعادة الزواج بحيث لا يكون هناك عذر للعلاقات المحرمة . وتلقي مريم جميلة الضوء على مفاهيم الزواج فى الدينين مستعينة بتصور للكاتب الإنجليزى المسلم محمد مارما ديوك بكتال (الذى ترجم معانى القرآن إلى الإنجليزية) . وننقل هذا التصور بالكامل لأهميته وقد كتبه عام ١٩٢٧ :

قيل أن نظرة الإسلام للمرأة هى نظرة الرجل بينما نظرة المسيحية إليها هى نظرة المرأة . ويتجه معتنقو النظره المثالية العاطفية عن المرأة إلى سوء تقدير قيمة الموقف الإسلامى وإلى أن يتحدثوا كما لو أن الإسلام قد حط من المكانة الاجتماعية والأخلاقية للمرأة الشرقية متجاهلين أن قسمًا لا بأس به من نساء المسيحية قد انحطت مكانتهن (بسبب تحريم تعدد الزوجات قانونًا وحرمانهن من فرص الزواج) إلى وضع ينظر إليه المسلم بفزع . كما أن أعدادًا كبيرة من هؤلاء النسوة يحرمن لهذا السبب من ممارسة وظائف طبيعية مما يعتبره المسلم ظلما شديدًا . ويتهم معظم الغربيين عقيدتنا لأنها لا تدعو إلى عدم التعدد بصرامة وقد شككوا فى نبوة الرسول نفسه بسبب تعدد زوجاته . وأنبه هؤلاء إلى أنه لا يوجد فى التاريخ نموذج للزيجة الواحدة أنصع من زواج استمر ستة وعشرين

عامًا بين الرسول والسيدة خديجة . وقد كان مثاليًا وهو متزوج بواحده كما كان عندما تعددت زوجاته .

ولم يطبق عدم التعدد فى بلدان الغرب تطبيقًا حقيقيًا لكن أثر هذا التحريم أدى إلى معاناة أعداد لا حصر لها من النساء وأطفالهن . ويعمد الإسلام إلى تحطيم كل المحرمات التى تؤدى إلى اتعاس أقسام من مخلوقات الله . أما فى أوروبا فإننا بجانب عباده المرأة من ناحية نرى الحط من مكانتها واليأس الذى يصيبها من ناحية أخرى . والنظام الإسلامى إذا طبق بأكمله يعتبر الرجل مسئولاً عن تصرفه تجاه كل امرأة وعن نتائج هذا التصرف . وهو يستبعد بالمثل الكثير من النزعة العاطفية المغرقة التى نسجها الكتاب الغربيون حول حقائق الاتصال الجنسى . فالرومانسية وهم ولا داعى لأن نحزن على زواله . وإذا قرأت الأدب الغربى الحديث الرائج ستجد أن هدف حياة الإنسان على الأرض يصور وكأنه حب المرأة وذلك فى شكل الحب المثالى لامرأة واحدة وهى المختارة التى يكتشفها بعد أن يجرب أكثر من واحدة . وعندما يعثر على هذه المرأة يحدث بينهما اتحاد روحى وهذا هو هدف الحياة . وفى الحقيقة إن هذا مراء . لكنه يعكس أثر تعاليم الكنيسة المسيحية بشأن الزواج . فالمرأة مخلوق جذاب لكنه محرم وهى بطبيعتها خاطئة إلا عندما يحدث معها إتحاد روحى غامض يشبه اتحاد المسيح بكنيسته وهو اتحاد يباركه الكاهن .

أما مفاهيم الإسلام فهى جد مختلفة . فلا يوجد هناك شىء اسم اتحاد روحى بين بشرين بحيث يصبحان شخصًا واحدًا ومن يسعى إلى مثل هذا الاتحاد فسيضل الطريق . بل هناك التعاطف والحب . لكن كل روح بشرية وحيدة من المهد إلى اللحد إلا إذا حظيت بالتعرف إلى الله والتقرب منه . وكل روح حرة ومستقلة عن كل روح أخرى وهى مسئولة مسئولية كاملة وعليها أن تحمل عبئها بالكامل وتجد طريقها بأداء الواجب بين مصاعب الحياة . ولا فرق بين الرجل والمرأة فى هذا المجال . ولا يوجد فى الزواج اندماج للشخصيات . بل يبقى كل من طرفيه متميزا ومستقلا . وكل ما فعلاه هو أنهما دخلا اتفاقا لأداء واجبات معينة نحو بعضهما البعض وهو اتفاق يديمه الأحترام المشترك والحب . وإذا لم يستمر التعاطف والحب فمن الأفضل أن ينتهى الاتفاق بالطلاق . والزواج فى الإسلام ليس سرًا مقدسًا ذا قيمة غيبية وليس قيدًا . بل هو عقد بين عَبدٍ لله وعبدة لله وكلاهما حر . وقد أوصى الله بالمحبة بينهما وحدد بوضوح حقوق كلاهما على الآخر ورسم لعلاقتهما خطوطها وقواعدها المتسمة بالشرف والاحترام . فإذا لم يشعرا بالمحبة بينهما ويخافان أن يخالفا الحدود يتحتم إنهاء العقد . وتحتفظ المرأة بكامل شخصيتها وممتلكاتها واسمها ولها حق المسكن المستقل فى حالة التعدد . وإزاء هذه الحقوق فإنه لا يهم أن تسود المجتمع الزيجات المتعددة . وفى الحقيقة فإن تحريم التعدد أدى إلى العديد من الأمراض

والشرور الاجتماعية . أما عن سهولة الطلاق وهى لم تكن أصلاً فى النظام الغربى فقد أدخلت فيه مؤخرًا وإن فى حدود ضيقة تحف بها الدعاية والفضائح نظرًا لبحث قضايا الطلاق فى المحاكم العلنية . ووجود رخصة التعدد فى الإسلام يدل على أن الزواج فيه قد جعل للرجل والمرأة ولم يجعل الرجل والمرأة للزواج . ا . هـ .

وتثير هذه الآراء للكاتب الإنجليزى تأملات شتى وبالذات على ضوء التهتك والانهيار الأخلاقى الحاد وموجات الإباحية الطاغية بالغرب والتى لم تكن قد استشرت وظهرت إلى السطح عندما كتب تصوره منذ أكثر من النصف قرن . إن الغرب عمومًا ومن خلال المنظور التاريخى والمعاصر يقدم لنا صورتين متناقضتين عن العلاقة بين الجنسين تعكسان التضارب وانعدام التوازن وفقدان الاتجاه . فنحن من ناحية نجد عبادة المرأة وتقديسها وهى من آثار الوثنيات القديمة وعبادة ربات الخصب والنماء وتقديس مريم العذراء وتراث عصور الفروسية (ومعظم آثارها أسطورى غير حقيقى) وعهود الأرستقراطية الملكية وبقاياها فى المجتمعات البورجوازية حيث كان ينظر إلى علاقة التقديس والتطلع للمرأة كتعبير عن رقى الذوق وجمال الأخلاق واكتمال التهذيب . وأفرزت لنا كل هذه المؤثرات ذلك المفهوم الغامض والمشوه الذى أحاط بعاطفة الحب حسب مفهومهم الذى انتقل إلينا الآن عبر عمليات التغريب . فالحب عاطفة غير محدده الأصل والدافع لكنها قدر

محتوم غيبي يقع بالشخص (الرجل عادة) فينقلب سلوكه ويأخذ فى
عباده محبوبته والتقرب إليها بأنماطٍ شتى من السلوك سجلها لنا الأدب
الغربى . وإذا لم تحدث كارثة وانتهى الأمر بالزواج فإن ذلك يتم بعد
تحضير طويل وطقوس معقدة وتحت ادعاء باتحاد روحى يتجسد رغم
ذلك فى الإقامة بمنزل مستقل فخم أو قصر لتبدأ بعد ذلك أوضاع
الحياة وحقائقها فى تبديدوهم الاتحاد الاندماجى ويكتشف الطرفان
استحالة الطلاق فيمضيان حتى النهاية فى يأس وغربة تولدها مرارة حلم
الاندماج الساقط وتحف بهما فضائح العلاقات الخارجية .

وفى مقابل هذه النظرة المثالية غير الواقعية والمستحيلة تبرز الصورة
الأخرى التى ألمحنا إليها وهى صورة الانحلال والتدهور الأخلاقى حيث
يغيب مفهوم الحب المثالى ويظهر الجنس كنقيض واقعى مزعوم وكرد
فعل . وتأخذ النظرة إليه شكل اعتباره مجرد وظيفة حياتية كالوظائف
الأخرى تؤدى بلا أى ارتباط بمواقف أخلاقية أودينية أو اجتماعية وفى
أى مكان أو زمان (الشوارع ، الحدائق ، المراحيض العامة) ومع أى
شخص (عادية أو شاذة) بهدف واحد هو تصريف التوتر الجسدى .
وفى ظل هذه الصورة تتحول المرأة والرجل أيضًا إلى مجرد مواضيع للذة
والشهوة كما يسقط مفهوم الزواج والأسره . ومن المؤكد أن دعوات
الاتجاهات الواقعية ضد المفهوم المثالى الضيق قد أدت إلى هذه الإباحية
عندما انتشرت بين قطاعات واسعة من جماهير الغرب ودخلت فيها

المبالغة ودفعت إلى حدودها المنطقية .

وهكذا نجد أن الغرب المسيحى لم يفرز إلا صورًا فاشلة ضاربة
للفطرة الإنسانية سواء أرفعت شعار السمو المثالى أو الواقعية العملية
فنحن أمام إنكار أو إهدار لإمكانات الجسد . والغرب أسير لهاتين
الصورتين ينتقل من إحداهما إلى الأخرى لأنه لا يعرف بديلا يخرجه من
حركة البندول ونقصد بالبديل المفهوم الإسلامى المتميز . ولسنا نحن
المسلمين بعيدين عن هذه الصورة فإن عمليات التغريب قد جسدت لنا
صورة كاملة ومؤلمة من حديث رسول الله ﷺ عن تقليد المسلمين
لليهود والنصارى والوصول إلى دخول جحر الضب وراءهم لو دخلوه .
ففهوم الزواج المسيحى ينقل إلى الدول الإسلامية من خلال تعديلات
متتابعة تدخل على قوانين الأسرة فيها وتوصف بأنها اجتهادات إسلامية
لخداع الجماهير أو يقال أنها إصلاحات إنسانية محايده بناء على فكر
مستنير تقدمى يعمل لإنصاف المرأة . ونقصد بهذا المفهوم منع الطلاق
وتعدد الزوجات وتعقيد العلاقة الزوجية بصورة تنفر من الدخول فيها .
كذلك فإن مفهوم الحب الغربى المثالى كشىء غامض محتوم يتسرب إلينا
عبر الأعمال الفنية المختلفة ويراد تكريسه ليكون عرفًا اجتماعيا بين
المسلمين باعتباره عاطفة إنسانية عالمية موجودة لدى البشر فى كل زمان
ومكان . والغريب أن أحدًا لا يحلل مفهوم الحب الذى يروج بين
الناس لا سيا الشباب . فهل هو جاذبية جنسية مستترة ؟ هل هو مجرد

تقليد لمشاهد واتجاهات تروج فى الوسائل الفنية الفعالة كالقصص والسينما .. ألخ ؟ هل هو مجرد مسايرة لسلوكيات تشيع بين طبقات معينة أرستقراطية سابقة أو متغربة حالية ؟ هل هو بحث عن التعارف والتصارح أو حتى التسلية والترويح يأخذ شكل العلاقة بين الرجل والمرأة (بدلاً من الصداقة العادية بين الرجل والرجل) فى ظل توفر فرص الاختلاط بين الجنسين ؟ إن عاطفة الحب كاتجاه معين نحو الجنس الآخر قد توجد لدى البشر كلهم لكن من المؤكد أن أشكال التعبير الاجتماعى عن هذه العاطفة تختلف اختلافًا بينًا بين الثقافات والأزمنة والحضارات والأديان . وما يحدث فى الفترة المعاصرة هى أننا أخذنا أحد أو بعض أشكال التعبير الاجتماعى عن عاطفة الحب فى بعض بلدان الحضارة الغربية (وهو ليس الشكل الوحيد فيها لكنه هو الذى نشر بيننا لأهداف معينة) وروجناه على أنه هو الشكل الوحيد الذى يمكن أن تتخذه هدف العاطفة ورفضنا فى المقابل أشكالاً تقدمها لنا عقيدتنا وحضارتنا الإسلامية . واعتبرنا أن مظاهر الحب المنقولة عن الغرب (الاختلاط المسرف ، التنزه والمرافقة بين الشبان والفتيان ، تمركز بؤر الشعور والوجدان على الجنس الآخر تنحية أى اهتمامات أخرى ، الإيمان بقدرية حتمية غامضة لهذه العاطفة . استباحة ضرب جميع التقاليد الاجتماعية فى سبيل إشباعها . الخ) هى مظاهره الوحيده وأن هذه العاطفة إما توجد بهذه الأشكال الاجتماعية أولا

توجد على الإطلاق . ومن هذه الزاوية مثلاً سقط مفهوم الحب فى الإسلام كمودة ومعاشرة وتعاطف ينمو داخل إطار الزواج الذى يتم بعد إعجاب أو اقتناع عقلى وقلبى وحل محله مفهوم العلاقة الطويلة الحميمة الشبيهة من جوانب بالزواج لكنها قبل الزواج . كما سقطت مفاهيم إسلامية أخرى كالحياء .

والحقيقة أن قصة استزراع مفاهيم الغرب المسيحى المختلفة عن العلاقة بين الجنسين وفرضها على حساب مفاهيم الإسلام تمثل أخطر نقاط الصدام بين الحضارتين فى الوقت الراهن . ولا يستهين أحد بمدى التفكك والدمار الذى تحدثه التصورات والممارسات الغربية (لا سيما الإباحية التى أخذت الكنائس هناك تتساهل معها) على المجتمعات الإسلامية . والمطلوب إعادة مناقشة الكثير من المفاهيم الغربية الأصل التى روجت بين المسلمين فى مسائل المرأة والزواج وما يتصل بها والتى حاول البعض أقلمتها بالتماس تفسيرات إسلامية لها أو باعتبارها مفاهيم إنسانية أبدية أزلية وليس مجرد تصورات نسبية تابعة لثقافة ما فى زمن ما ومتأثرة بتراث المكان والبيئة .

الكنيسة فى الغرب

لمحة تاريخية واتجاهات معاصرة

تدخل الكاتبة إلى الحديث عن دور وتاريخ الكنيسة النصرانية من خلال تهمة ورد . فالمبشرون والمستشرقون يلقون التهم المتكررة ضد الإسلام بوصفه دينًا جامدًا ومتخلفا أشاع بين أتباعه الجهل والجمود والتعصب . وترى مريم أن هذه التهمة قد ذاعت وشاعت من جراء الإلحاح عليها إلى حد أن الطبقات الحاكمة والمثقفة فى بلاد المسلمين صارت تؤمن ببديهية تقول : إن الإسلام هو سبب التخلف العملى والاقتصادى للمسلمين . وهى لا تلجأ إلى التفاصيل المطولة التى ألفناها فى الكتابات الدفاعية لتضرب الأمثلة على قيام حضارة إسلامية علمية واقتصادية زاهرة . لكنها تعمد إلى ذكر بعض الأمثلة التى تلقى بتهم معاداة العلم والتقدم على الغير وتترك لهم عبء الرد عليها إن استطاعوا . تقول : إن المسيحية حكمت وسادت أثيوبيا لما يقارب الألفى عام فما هو حال ذلك البلد اليوم ؟ وتكشف لنا جانبا من مذابح وأفعال وحشية ارتكبها مسيحيون فى هذا البلد ضد مسيحيين آخرين خلال بعض حروب الصراع على العرش فى فترة العشرينيات من القرن الحالى . وتعود بنا إلى القرن الرابع الميلادى لنرى كيف أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس أوامره عام ٣٨٩ (أو ٣٩١) بتدمير السيرابيوم أو المجمع العلمى الشهير بالأسكندرية . وقاد الأسقف ثيوفيلوس هذه العملية

بحماس وشارك فيها المسيحيون حارقين للتراث الوثنى وحارقين معه لأعمال الفئات المسيحية التى وصفت بالهرطقة بحيث أن ما نعرفه اليوم عن أفكار هذه الفئات منقول عن كتابات خصومهم ضدهم .

وتستشهد مريم جميلة فى هذا المجال بآراء لباحث أمريكى هو ر . و . سوثيرن نشرها فى كتابه آراء غربية **عن الإسلام فى العصور الوسطى** يقابل فيها بين شخصيتين عاصرتا بعضهما فى أواخر القرن العاشر الميلادى وأوائل الحادى عشر وهما البابا جربرت وابن سينا . كان تحت تصرف ابن سينا مكتبة سلطان بخارى وتضم عشرين غرفة خصص لكل فرع علمى أو أدبى غرفة مليئة بصناديق الكتب ويسهل الوصول إليها جميعًا كشاف دقيق . أما جربرت فلم يكن أمامه فى كل المكتبات التى عرفها فى الأديرة والقصور إلا عدد محدود من المراجع لا تكاد تذكر أمام ماكان متاحًا لابن سينا . وينعكس هذا التفاوت العلمى على الأعمال التى كتبها كل من الرجلان فنجد أن أعمال جربرت المحدودة والبدائية تتضاءل أمام بحور العلم التى خلفها ابن سينا وقد طواها النسيان بعد وقت قصير من وفاته . وتتساءل الكاتبة إزاء هذه الوقائع وغيرها : هل الإسلام حقًا هو المسئول عن تدهور المسلمين فى النواحى العلمية ومعها الجوانب الاقتصادية أم أن البعد عن الإسلام هو السبب ؟ وهل المسيحية التى ينهال مبشروها الغربيون بالتهم على الإسلام فى حالة أفضل سواء فى الماضى والحاضر ؟ وماذا عن مظاهر

الفقر والتخلف البشع فى بلدان مسيحية عريقة بجنوب أوروبا وأمريكا الجنوبية ؟ وهل يسوغ القول أمام هذه المظاهر بأن المسيحية هى السبب وبأنه على المبشرين أن ينشغلوا بإصلاح دينهم ؟ وتجيب على هذا السؤال الأخير بالإيجاب . إن ما دفع الغرب إلى الثورة العلمية والاجتماعية والاقتصادية التى رفعته إلى مكانة السيطرة على العالم لم تكن المسيحية بل ظهور ونمو النزعة الإنسانية لليونان والرومان بما امتزج بها من عناصر وثنية وملحدة ودنيوية فيما عرف بعصر النهضة بجانب إحياء الأذهان واستنارتها بفضل نشاط العلماء والفلاسفة المسلمين . وكانت هذه النهضة بطابعها الثورى العنيف ضد الكنيسة هى المؤدية إلى تقدم الغرب الراهن .

وبعد أن تقلب مريم الاتهامات رأسًا على عقب وتردها على مطلقيها تأخذ فى استعراض بعض الجوانب المتصلة بالكنيسة فى الغرب مكملة بذلك ما سبق أن تعرضت له عند الحديث عن البابوية والرهبانية . وتختار أن تبدأ بالانقسام الذى تصاعد من القرن الثامن الميلادى حتى القرن الحادى عشر وأنتج أكبر شقين للمسيحية فى العالم وهما الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب والأرثوذكسية اليونانية فى الشرق . ومن الطريف أن كان للاسلام دور غير مباشر فى بدء هذا الصدع حيث أضطر الإمبراطور ليو الثالث البيزنطى فى عام ٧٢٦ إلى تحريم عبادة الصور والتماثيل فى الكنائس تحت تأثير للإمبراطور وأعوانه . لكن الأخير بادر

إلى سحب جنوب إيطاليا وصقلية من سلطة البابا الروحية . فما كان من جريجورى إلا أن استعان بشارل مارتل الذى هزم المسلمين فى جنوب فرنسا . وانتهت الأحداث باستيلاء البابا على مقاطعة رافينا بشمال إيطاليا من إمبراطور بيزنطة وصار يحكمها دنيويًا ويحصل على ريعها تحت اسم أملاك الكنيسة . وزور البابوات وثيقة اشتهرت فى التاريخ باسم هبة قسطنطين تعلن أن الإمبراطور البيزنطى الذى يحمل هذا الإسم قد تخلى لهم عن الأملاك المزعومة . وأخيرًا وفى عام ١٠٥٤ ميلادية وبعد رفض الجناح الشرقى للكنيسة لنشاطات البابا الطموحة وبسط سلطته على سائر الكنائس وقع الانشقاق المذكور .

وعلى الرغم من هذه الطبيعة السياسية الجلية لصراع الكنائس الشرقية والغربية فما زالت تعاليمها تنص على إعطاء دور مقدس وغيبى للكهنوت . فرجال السلك الكنسى عند الكاثوليكية هم خلفاء مباشرون للمسيح وموكلون بأداء الطقوس والأسرار ذات الطابع الإلهى كالعمادة والتثبيت والاعتراف والقربان ، وهم بهذا يختلفون عن سائر المسيحيين الذين يوصفون بالعموم أو المدنيين . ونلمح هنا أصل تلك الدعوة التى ينقلها بعض العلمانيين فى مصر عن الغرب مطالبين بما يسمى حكومة مدنية وليست دينية وهم بهذا يرمون الإسلام والمسلمين بداء عرفته المسيحية هناك وبتقسيم غير معروف فى الإسلام بين ما هو كهنوتى مكلف بأداء وظائف غيبية لا يستقيم الإيمان إلا بها وبين ما هو مدنى أو

مسيحى عادى لا يتمتع بسلطات الكاهن . والقس عند الكاثوليكية كما عند غيرها من المذاهب النصرانية لديه قوة أن يغير النبيذ لخبز فى سر القربان إلى دم وجسد المسيح كما أن لديه سلطة غفر الذنوب والعفو عنها لأنه يعتبر ممثل المسيح ومتولى تصريف بركاته .

والقس مسئول عن صحة العبادات والقربات كما أن الكنيسة لها سلطة إسقاط العقوبات الدنيوية المستحقة على الذنوب التى غفرت من خلال سر الاعتراف . وهذه السلطة هى الغفران أو العفو أو الإسقاط الذى ذاع صيته فى التاريخ بفضل صكوكه التى كانت تباع لطلاب النجاة من الآثام فى العصور الوسطى . والعفو لا يمحو الخطيئة كما لا يمحو العقاب الأخروى عن الكبائر لكنه يمحو أو يقلل العقوبة المستحقة فى الدنيا عن الذنوب ويمنح بعد ترديد أدعية وعبارات وتوسلات موجهة للمسيح وللعذراء أمام صورهما أو أمام الصليب .

وكان لهذا المفهوم وسوء استغلاله أثر كبير فى إحداث الثورة البروتستانتية فى القرن الخامس عشر ضد فساد الكنيسة الكاثوليكية وانغماسها فى المادة والترف وجمع المال وفرض الضرائب والانحلال الخلقى . وكان مارتن لوثر القس الألمانى هو الذى جهر بالمعارضة عام ١٥١٧ لبيع صكوك الغفران واتهم الكنيسة بالخروج عن الدين . وقد سبقه فى الثورة على فساد الكنيسة شخصيات مشهورة مثل جون ويكليف القس الإنجليزى الذى رفض دعوى تحول النبيذ والخبز فى القربان وجون هس

القس التشيكى وسافونارولا الأب الإيطالى . وقد أحرق الأخيران بتهمة الهرطقة .

وقبل أن تواصل الكاتبة رحلتها مع تاريخ الانقسام الثانى الكبير فى المسيحية بين كاثوليكية وبروتستانتية تذكر بخلو الإسلام من الوساطة بين الرب والعبد فى الدعاء أو العبادة أو العلم أو طلب العفو والمغفرة . ثم تمضى لتقص علينا كيف انتشرت دعوة لوثر فى القرن السادس عشر بين شعوب وحكام المقاطعات الألمانية وأيدوه حتى غطت أفكاره منطقة وسط وشمال أوروبا كما كان لترجمته الإنجيل إلى الألمانية أثر خطير فى خلق الوعى والروح القومية هناك . غير أن دعوة لوثر إلى الطاعة العمياء للأمراء والحكام أدت أيضًا إلى إيجاد النزعة الاستبدادية فى الأمة الألمانية .

وتابع رفع لواء البروتستانتية أوروبيون آخرون فى القرن السادس عشر مثل السويسرى أو لريش زفنجلى الذى رفض تعاليم الكاثوليكية كبدع وأصر على العودة إلى الإنجيل وحده والفرنسى جون كالفن الذى وضع أسس البروتستانتية النظرية . وفى نفس القرن انفصلت الكنيسة الأنجيلية فى إنجلترا على يد الملك هنرى الثامن وراجت قراءة الإنجيل المترجم إلى الإنجليزية فى عبادات هذه الكنيسة .

وكان القاسم المشترك الأعظم فى هجوم البروتستانت على الكنيسة الكاثوليكية هو مسألة صكوك الغفران التى استندت إلى رأى يقول :

إن المسيح والعذراء والقديسين تجمع لهم رصيد حسنات ضخم لا يحتاجونه ولذلك فقد وضعوه تحت تصرف الكنيسة لتنفق منه على طلاب العفو من الآثمين . وانتقد البروتستانت أيضًا نظام الكهنوت الهرمى وعبادة القديسين والصور ونظام الأديرة وبعض الطقوس .

غير أن حركة الإصلاح الكنسى والدينى جلبت معها كوارث على المسيحية جعلت منها بعد ذلك لقمة سائغة ضعيفة لتيارات الإلحاد والمادية التى هيمنت على الغرب فى الثلاثة قرون الأخيرة . فمع إسقاط سلطة الكنيسة والدعوة إلى أن يفسر كل إنسان الإنجيل حسب فهمه راجت الأهواء وتضاربت الآراء والأمزجة فى العقيدة وأسسها . ومع ترجمة الإنجيل إلى اللغات المحلية العامية وترك اللاتينية انفتح الباب لمزيد من التحريف فيه . ومع التخلى عن كل من البابوية واللاتينية بطابعها الوحدوى الشامل انفتح الباب للقوميات العلمانية حيث نشأت فى كل بلد أوروبى بروتستانتى كنيسة قومية محلية تابعة للحكومة وتحت سيطرتها مما أخضع الدين للسياسة القومية بتقلباتها .

أما من ناحية العقيدة فقد احتفظت البروتستانتية بالأسس الجوهرية للكاثوليكية كالتثبيت والتجسد والخطيئة الأصلية والغفران من خلال الصلب . ونتيجة لهذا فقد بقيت حركة الإصلاح أسيره لنفس عيوب من انقلبت عليهم من انعدام الأصل الإلهى للعقيدة ووقوفها عقبة فى سبيل التقدم الفكرى والعلمى مما دفع بتيارات الإنسانية والعلم إلى

الانقلاب عليها هى الأخرى والمضى قدمًا فى تأسيس ما أطلق عليه أسس العصر الحديث من فلسفات وتصورات مادية طبيعية بحتة لا تفسح مكانًا لوجود الإله . ومع ترسخ جذور هذه الفلسفات والحضارة القائمة عليها وجدت الكنائس نفسها فى موقف صعب لا سيما وهى ملوثة بدماء حروب الإصلاح ووصمة محاكم التفتيش الكاثوليكية الرهيبة . وكانت فى غمرة انشغالها بهذه الأمور قد أفلست من أى سلاح فكرى يواجه الملحدين والماديين . وضاعف من سوء وضع المسيحية زوال قوتها الدنيوية بعد هزائم الكاثوليكية على يد البروتستانتية ثم بعد ذلك فى عهد الثورة الفرنسية .

وبدأت آثار هذه التراجعات تظهر فى سلسله من التطورات تمتد إلى العصر الحديث وتؤثر كثيرًا على أوضاع الكنيسة عمومًا فى الغرب . وأبرز هذه التطورات انقلاب العديد من مؤيدى الكنيسة ومفكريها وابائها إلى نقاد لها وطاعنين فى عقائدها بل وفى كتابها المقدس ناكرين أنه وحى إلهى معتبرين إياه مؤلف بشرى وضعته أيد عديده بعد قرون من وفاة الأنبياء والآباء . وكانت هذه هى الحركة الفكرية الكبرى التى اشتهرت منذ القرن التاسع عشر باسم « النقد الأسمى » وخلاصتها إثبات الأصل البشرى للإنجيل الموجود لدى الكنيسة . وتسعى حركة التحديث كما أطلقوا عليها إلى إنكار المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس ضمن أشياء أخرى .

وتختار مريم جميلة أحد وجوه هذه الحركة المعاصرين لتعرض بعض أفكاره . وهو قس فرنسى سابق يدعى الأستاذ لوازى . يرى أن المسيح لم يكن سوى أحد الثوار اليهود المتأثرين بفكرة ظهور مخلص وأنه قد صلب عقابًا على الثورة . أما المسيحية التى تشكلت كدين حول قصة هذا الثائر فليست أكثر من تجميع لأساطير وثنية كانت معروفة فى المنطقة كأسطورة أدونيس (التى أشرنا إليها فى فصل سابق) واحتفالات الربيع وقيامة الإله من الموت .. إلخ ثم نسبتها إلى المسيح على سبيل التكريم ويرى لوازى أن قصة قيامة المسيح فى اليوم الثالث بعد الصلب المزعوم تتوافق مع حدث مماثل فى قصة أدونيس . وهو يحمل أبحاثه بالتشكك فى صحة الأناجيل الموجوده واصفًا إياها بالملحمة غير المنظمة التى بدأت فى شكل شذرات حول سيّرة المسيح ثم أضيفت إليها قصص المعجزات والنبوءات ونسقت بحيث تخدم قصة الخلاص على يد المسيح والتجسد الإلهى فيه . وترى الكاتبة أن أمثال هذه الاتجاهات فى المسيحية تذهب إلى أن كم التعاليم والعقائد الذى آلت إليه هذه النحلة الكنسية قد أصبح غير مبرر من الناحية العلمية والتاريخية .

وهى تنتقل لمتابعة تيار ثان من تيارات المسيحية المعاصرة نشأ على يد قسيس بريطانى هذه المرة هو و . ر . إنج . ويتلخص هذا التيار فى محاولة الدفاع عن المسيحية وإيجاد دورله فى عالم اليوم بتفسيرها على أنها عقيدة تمثل عقل وروح الإنسان الغربى والجنس الأبيض وأنها لذلك

أفضل مايجب أن يعتنقه هذا الإنسان من فلسفات . ويكاد هذا الاتجاه يقتل المسيحية ويطعن فى أصولها وهو يدعى أنه يدافع عن وجودها ويبرره . ويذهب القس البريطانى إلى أن الأسيويين رفضوا المسيحية إبان ظهورها مفضلين اليهودية ثم اندفعوا إلى الإسلام . ويؤكد ذلك فى يومنا هذا عدم نجاح التبشير الغربى فى بلدان آسيوية عديدة . أما أوروبا حسب تصوره فقد اعتنقت المسيحية بعد أن احتفظت هذه العقيدة بالتأثيرات اليونانية والرومانية قوية داخلها حتى اصطبغت بها . ويدلل إنج على دعواه بأن القديس بولس كان يهوديًا من المهجر وليس من فلسطين وتنم رسائله عن انغماسها فى المصطلحات والأساليب اليونانية كما لا يمكن فهم الإنجيل الرابع بدون الرجوع إلى فيلو الذى كانت عقيدته يونانية أكثر منها يهودية . ويرى القس إنج أن المسيحيين الأول كانوا يقولون بتشابه أفكارهم مع الفلسفة اليونانية بل يذهب القديس أغسطين إلى القول بأن كلمات قليلة فقط هى التى تفرق بين المسيحية وبين فلسفة أفلاطون .

ويقول الباحث البريطانى : إن المسيحية المتأثرة باليهودية لم تعش طويلاً وكانت ذات انتشار محلى محدود . وعنده أن حركة الإصلاح الدينى كانت تمردًا على الجانب اللاتينى أو الرومانى فى المسيحية وعودة فى نفس الوقت إلى أصولها الهيلينية أى اليونانية . وتعبر مريم جميلة عن استغرابها من هذه المحاولة العصرية التى تنتهى إلى تحويل المسيحية إلى

عقيدة باردة محدودة لا تصلح إلا للأقلية كما يقول القس .

ونصل إلى الاتجاه الثالث الذى أفرزته حركة التجديد أو التحديث فى الكنيسة الغربية عموماً وهو النتيجة المنطقية لضعف البضاعة الفكرية والانكسار أمام موجات المادية والإلحاد والتشكك فى الإنجيل والعقائد . وهنا نرى التسيب الكامل فى العبادة وإدارة الكنائس والتفكير والسلوك . وتطوف بنا مريم جميلة فى جولة صحفية داخل التيارات المجددة أو المطورة .

نبدأ فى أمريكا فى أواسط الستينات حيث نجد جماعة من الكهنة تسمى جماعة «موت الإله» ترى كما ذهب الفيلسوف الألمانى نيتشه أن الإنسان العصرى قد قتل الإله (!) باستغنائه عنه وأنه يجب على الدين وضع هذا الموقف فى الاعتبار وبناء فكر يتمشى مع مجتمع ما بعد الإله . ثم نعرج على تيارات مسيحية أمريكية أخرى فى نفس الفترة تحظى بانتشار لأنها جددت فى أشكال العبادة بعد أن ضاقت بموسيقى الأرغن الرتيبة التى تصاحب القداسات فأدخلت فرق الجاز والموسيقى الصاخبة إلى الكنيسة لجذب الشباب والمراهقين . وتعلق الكاتبة على ثبات أشكال العبادة فى الإسلام وأخذها عن الرسول عليه الصلاة والسلام بحيث أنه لو زار المسلمين اليوم لوجدهم على نفس ما علمهم من المناسك والعبادات . وترى أن هذا الأمر عامل يقين ووحدة بين المسلمين .

ونقرأ عن أسقف بنيويورك يعلن أن عقيدة التلثيث أصبحت عبئاً يجب التخلص منه وأستاذ للاهوت بمدينة أمريكية أخرى يدعو إلى عدم استخدام كلمة «الرب» وثالث يقول : إن المسيحية يجب أن تخضع لناموس التطور والتغيير . وعن حفلات راقصة داخل كنيسة بواشنطون وعن كاهن فى مدينة نيويورك يعين مستشار لبعض الفرق الموسيقية ويطوف معها فى الملاهى الليلية وعن مجموعة من القسس الشبان تقيم خدمة استشارية للشواذ جنسياً فى سان فرانسيسكو ونسمع لرأى استرالى اعتنق الإسلام بعد رفضه للمسيحية : إن أغلبية الاستراليين لم تعد تؤمن بالدين ونتيجة لخلو الكنائس يلجأ الكهنة إلى حيل متنوعة كى يجلبوا الناس كإقامة قداسات خاصة للراقصين وما أشبه .

وتحدثنا مريم جميلة عن جماعات من العصريين تحاول يائسة التمسك بالدين وتقديمه للناس وسط سيطرة الفكر المادى فتلجأ إلى حذف ما لا تراه يتمشى مع العلم من العقيدة المسيحية مما يؤدى بالتدريج إلى إنكار الدين كله . بينما يعمد آخرون إلى تحويل الطقوس الكنسية إلى مهرجانات لاجتذاب الناس كما تجتذبهم المحال التجارية ويلجئون فى ذلك إلى استخدام أساليب العلاقات العامة والإعلام والإقناع النفسى التى برع الأمريكيون فى توظيفها . ومن ذلك قيام أحد القسس الأمريكيين . بإيقاف مجموعة من الفتيات الجميلات داخل

أطر من الزهور أمام الكنيسة ليعلن بذلك عن خطبة له بعنوان « الفتاة التى أريد أن أتزوجها . » وكان قسيس آخر أبرع فى التفكير حيث ابتدع فكره يوم الأحد السعيد الذى تعرض فيه أفلام على مجموعات مختلطة من المراهقين والمراهقات على أن يعقب ذلك مباشرة عظة . ويقول هذا القس : إنه لابد من الإسراع بالعظة بعد انتهاء الفيلم مباشرة وإلا سارعوا بالخروج من الكنيسة . ويضيف أن الأضواء تخفت فى صالة العرض حتى يتمكن الفتيان والفتيات بالصورة الطبيعية الملائمة لسنهم شريطة ألا يتعدى ذلك الحدود ! وينصح القس الفتيات اللواتى لا يجدن رفقاء بارتداء ملابس أفضل كى يجتذبن الرجال .

وتمتد هذه الموجة إلى مجال العلاقات الجنسية تحت اسم الأخلاقيات الجديدة . فمجالس الكنائس فى أمريكا وأوروبا لا تجد مانعًا فى ممارسة الجنس قبل الزواج بينما ذهب إعلان كنسى إلى القول بأن الشذوذ قد يكون أكثر تحقيقًا للذات من الزواج . وفى اجتماع عقد عام ١٩٦٥ فى كلية اللاهوت التابعة لجامعة هارفارد اتفق أكثر من تسعمائه قس وطالب على أن الأخلاقيات الجديدة هى أمر صحى كمحاولة لتحقيق مقولة القديس بولس « بأننا خلال المسيح تحررنا من الشريعة » وقال كاهن بارز : إن قوائم الممنوعات والمباحات لا معنى لها بينما أكد آخر أنه لا يجب على الكنيسة أن تدين تمامًا أى علاقة جنسية . وترى النزعة الأخلاقة الجديدة أن المقياس النهائى لما هو صواب وخطأ

ليس هو الأمر الإلهى بل رؤية الفرد لما هو خير له ولجيرانه فى موقف معين .

ولا تمر هذه التيارات الكنسية المعاصرة دون أن تثير ردود أفعال مضادة . فترى مراهقة أمريكية أن عيب الكنيسة هو أنها تخلت عن قيادة المجتمع لتستسلم للإباحية السائدة . كما يقول قس كبير إن التنازل والتسويف فى العقيدة يعنى إنكار أصلها الإلهى . وتؤيده الكاتبة فى ذلك الرأى إلا أنها تذكره بأن المسيحية التى وضعها القديس بولس كانت بشرية المنشأ ولا يوجد مجال فيها للنص المقدس الثابت الأصل والشريعة الراسخة الشاملة . وكم للمسلمين من دروس فيما آل إليه حال العصريين والمجددين الكنسيين .

ومع هذا الإفلاس المضاعف للكنيسة فى الغرب والانهيار فى جبهات مختلفة والارتباط بالحضارة الغربية كان من الطبيعى أن ترى هذه المؤسسة فى الإسلام عدوها الأكبر الذى يمتلك كل ما تفتقر إليه من مقومات الأصل الإلهى والشريعة والثبات واليقين . كان يمكنها أن تتقاضى بل وتتعامل مع البوذية والهندوكية كعقائد صوفية غير مؤثرة . لكنها أمام القوة الحضارية التى يمثلها الإسلام تم عليها الصدام معه . وكانت عملية التبشير هى نقطة اللقاء فى هذا الصراع .

التبشير والصراع بين الإسلام والغرب

ترى مريم جميلة أن المدخل الوحيد لفهم ظاهرة هجمة وكالات التبشير ومؤسساته على العالم الإسلامى هو عداء الغرب المسيحى للإسلام والمسلمين . وتسعى لبحث جذور وأسباب العداء مستندة إلى كتابات باحثين غربيين . وتنقل عن أحدهم قوله إن وجودُ الإسلام فى حد ذاته يثير عميق الانزعاج عند الغرب . فالإسلام فى نظر الغربيين خطر يزيد من حدته غموضه وعدم قابليته للوضع تحت منظار التنبؤ والقياس . والغرب لم يكن فى البداية يستطيع فهم الإسلام ولم يجد العون على ذلك من أى مصدر جديد أو قديم . وعلى الرغم من وجه الشبه الذى لاحظه الغربيون بين الإسلام واليهودية ـ حسب رأى الباحث الغربى ـ إلا أن اليهودية بتخلفها وخضوعها للمسيحيين لا سيما فى العصور الوسطى لم تكن مستعصية على الفهم والإسقاط من الاعتبار كقوة مهزومة ضعيفة . أما الإسلام فكان حتى العهود الحديثة قوة ناهضة ناجحة متجددة مهما ضربتها المحن . وبالتالى لم يكن الغرب ليستطيع أن يتهكم على دين اعتنقه رجال يكبرهم الغرب نفسه ولا يشك فى حكمتهم كصلاح الدين الأيوبى والفارابى وابن سينا .

ويذهب كاتب غربى آخر إلى أن سبب عداء الغرب المسيحى للإسلام يكمن فى توسع هذا الدين ومجابهته للنشاط التنصيرى وقيامه بالدعوة لجلب الأتباع والمؤمنين . ويقول هذا الباحث وهو عضو فى

لجنة التبشير بكنيسة سكتلندا ان الأديان الأخرى كاليهودية والهندوكية لا تنشر نفسها بينما يطرح الإسلام نفسه كدين عالمى وينافس المسيحية فى هذه الدعوة . ويضيف : أن المسلمين الذين أسقطوا الصلبان فى الشام وغيرها يتطلعون الآن إلى بناء مساجدهم فى قلب إنجلترا وإسقاط الصلبان حتى فى الكنائس الريفية النائية بذلك البلد . والإسلام كما يقول الباحث المبشر آخر دين كبير جاء بعد المسيحية وعقيدته نسخ هذا الدين وإنكار حقيقته . والإسلام هو الدين الوحيد الذى هزم المسيحية فى فترات الصراع بينهما وهو الوحيد الذى يتصدى لها فى أجزاء كثيرة من العالم . وهو الذى يتحدى المسيحية بإنكار كل مبدأ من مبادئها الكبرى ويجعل من هذا الإنكار عقيدة راسخة عنده سواء تعلق الأمر بأبوة الرب أو بنوة المسيح للرب وتجسده وصلبه أو قيامته . والقرآن جاء ليصحح هذه المفاهيم . ولا يوجد دين آخر يتخذ هذا الموقف من المسيحية والإسلام فوق هذا وذاك يحير المسيحية برفضه الاستسلام بعد هزائمه السياسية فى العصر الحديث وببساطة عقيدته فى التوحيد وخلوها من مظاهر التعقد والأسرار الكهنوتية . والمسلمون هم وحدهم الذين يجابهون المسيحية بدين موثوق فى أصله التاريخى وبكتاب يؤمنون بأنه وحى ولا يستطيع خصومهم أن يشككوا فى نسبته إلى الرسول أو فى دخول التحريف عليه .

وهكذا نجد أن جذور العداء ضاربة . وهى لا ترجع إلى طمع

إقتصادى أو توسع استعمارى بقدر ما تفسر بالخوف أمام تحدى الإسلام الدينى والحضارى والسياسى ونرى أن الأطماع الإقتصادية الاستعمارية هى التى تفسر بالعداء للإسلام ولا تقره . فالغرب يطمع فيما عند المسلمين من موارد لأنه يكرههم ويبغض أن تكون بين أيديهم ويريد أن ينتزعها منهم لعلهم يتكسون ويضيع معهم دينهم . والغرب يتوسع فى أراضيهم ليستأصلهم ويضيع عقيدتهم وهنا تربط الكاتبة بين حركة الاستعمار فى العصر الحديث وبين العداء للإسلام والتمكين للنصرانية فى بلاد المسلمين . وتقتبس مريم جميلة فى هذا الصدد فقرات مطولة من كتاب **الطفولة فى العالم الإسلامى** الذى ألفه المستشرق صمويل زويمر عام ١٩١٥ . ويهلل زويمر لظواهر الاحتلال الإنجليزى للعراق والإيطالى لليبيا التى كانت تحدث فى ذلك الوقت ويتنبأ بأنه مع امتداد السيطرة الاستعمارية على العالم الإسلامى من الهند وما وراءها إلى المغرب فإن العادات والتقاليد والقيم والقوانين المسيحية الأوروبية ستنتقل إلى بلاد المسلمين وتهيئهم بعد ذلك لتقبل المسيحية نفسها بعد ضياع الإسلام . ونستغرب عندما نجد هذا الكاتب الذى يقول عنه الكثير من تلاميذ المستشرقين عندنا انه باحث جاء يصفق بيديه فرحًا لانتشار الملابس الغربية بين المسلمين لأن ارتداء الأحذية والجوارب كما يقول بالحرف ستزيد من صعوبة الوضوء ! .

ويزيد الاستغراب والتساؤل عندما يقول زويمر إن ضياع الاستقلال

السياسى للبلدان الإسلامية يتواكب مع ما يسميه بحركة عصرية تدعو إلى تقليد الغرب ونقل نماذجه ومثله الفكرية والاجتماعية . ويركز على أهمية النظام التعليمى الحديث بالنسبة لجهود المبشرين حيث يرى أنه يعرف الناشئة وهم فى سن الانطباع على حضارة الدين المسيحى وتمتدح الحكومات المقامة فى البلاد الإسلامية والتى نشرت مثل هذا النظام على حساب التعليم الإسلامى . ويلمح فى هذا الوضع الجديد فرصة لم تتح من قبل منحها الرب حسب قوله لتنصير الطفولة المسلمة . ونتركه يتحدث : لقد فقد الإسلام قوته فى كل مكان . وبينما كانت غيرة الحكام المسلمين فى السابق تمنع جهود التبشير بين المسلمين أو تعرقلها فإن سيف الإسلام الآن قد انكسر وذلت قلوب المسلمين وخضعت فى كل الأرجاء بسبب الكوارث التى قامت بهؤلاء الحكام . ولا ريب أن وقوع البلدان الإسلامية تحت الحكم الأوروبى بما يعنيه من استقرار الإدارة والتعليم يعنى حتمية انهيار المعارضة الإسلامية . وقد عقد ممثلو الجمعيات التبشيرية مؤتمرًا لهم فى القاهرة منذ وقت قريب أكدوا فيه أن العناية الإلهية فتحت الأبواب أمام تنصير المسلمين» .

وتستخلص الكاتبة من هذه الأقوال وما يشابهها سنة لا تتغير من سنن الهجوم الغربى على الإسلام . فهناك التوسع العسكرى والاقتصادى والثقافى للغرب ويتواكب مع تغريب البلاد الإسلامية بالكامل وضياع

أراضيها واستقلالها فى هذه المجالات ثم إضاعة الإسلام بعقيدته ومظاهره وإحلال العقائد الغربية وعلى رأسها النصرانية محله . وهى تؤكد أن النجاح الذى حققته جهود التبشير فى السنوات الأخيرة فى إندونيسيا وباكستان لم يكن ليحدث إلا فى ظل سيطرة غربية كاملة على حكومات هذا البلاد التى شجعت بالفعل النشاط التنصيرى ودعمته لإرضاء مسانديها الغربيين محتجة بشعارات التسامح والليبرالية والعلمانية . وهى تضرب لنا المثل على ذلك الاتجاه بما وقع فى إندونيسيا عقب الانقلاب العسكرى الموالى للغرب الذى حدث هناك عام ١٩٦٦ . وتختار لنا شهادة مجلة تايم الأمريكية فى ١٦ يونيو ١٩٦٧ :

إن هذه الأمة الإسلامية اليوم مسرح لنشاط تنصيرى متصاعد أطلقت عليه جريدة مسيحية أمريكية وصف أكبر حركة باتجاه المسيحية فى الفترات الحديثة . إذا يقدر أن الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية قد اكتسبت حوالى ربع مليون متنصر خلال الأشهر العشرين التى أعقبت الثورة المضادة للشيوعية . وقد اعتنق المسيحية فى جاوة الشرقية والوسطى فى تلك الفترة خمسة وستون ألف شخص بينما انضم ستة عشر ألفا إلى الكنائس فى سومطرة الشمالية . وأقيمت ثلاثون كنيسة جديدة فى إقليم واحد بغرب بورنيو تضم خمسة آلاف شخص . ونظمت فى العاصمة خمسون حلقة لدراسة الأناجيل التى نفذت طبعاتها لاشتداد الطلب عليها . وقد خصص مجلس الكنائس الأمريكى حوالى ثلث

مليون دولار لمساعدة الكنائس البروتستانتية بإندونيسيا على استيعاب الأعضاء الجدد .

وعلى الرغم من أن معظم المتنصرين إن لم يكن كلهم من القطاعات الوثنية أو المسلمة بالنسبة فقط إلا أن مجرد قيام هذا النشاط الوقح المدعم بالأموال الأمريكية فى بلد تصفه المجلة الأمريكية ذاتها بأنه مسلم بنسبة تزيد على ٩٠ ٪ يدل على أمور خطيرة .

وبعد أن أرست مريم جميلة الخلفية الحقيقية للنشاط التبشيرى وارتباطه بالاستعمار والتغريب تمضى فى استعراض بعض أساليب المبشرين . وتنتقي مثلاً من مخطط وضعه أحدهم لمنطقة غرب أفريقيا ونيجيريا فى مواجهة الإسلام ومده .

ومن الغريب أن نجد المبشر يضع خطة ويعنونها باسم الجهد المنظم لمكافحة تقدم الإسلام فى غرب أفريقيا . ونتساءل مع الكاتبة هل المطلوب نشر النصرانية أم ضرب الإسلام أم أن الاثنين لا ينفصلان ؟ ونتساءل نحن عمن يمكن لهؤلاء . أن يضعوا خططهم وينفذوها هل هى الحكومات الاستعمارية التى زالت رسميًا أم خلفاؤها الذين يتربعون على رءوس السلطة تحت اسم الحكام الوطنين المستقلين ؟ ونسير مع خطة المبشر لنجده يوصى بإصدار كتب باللغات العامية تتناول دحض ما يسميه الافتراءات المحمدية القائمة على الجهل . ويقول : إن هناك موادًّ كافية متاحة حول هذا الموضوع فى مصر والهند والمطلوب نقلها إلى

غرب أفريقيا حتى تستخدم الأسلحة المصاغة على الحرب ضد الإسلام فى كل مكان .

والخطوة الثانية فى مشروع المبشر أخطر من الأولى : يجب أن تدرس فى مدارس البعثات التبشيرية كل أخطاء الإسلام وأن يحذر التلاميذ منها . ومَدارس البعثات التبشرية هذه هى القائمة بيننا بأسماء أجنبية معروفة والتى تتقاضى أعلى المصروفات . أما الخطوة الرابعة فتنادى بعقد اجتماعات خاصة للمحمديين كما يسميهم المبشر والبحث فى الوسائل التى يمكن بها النفاذ إليهم والتأثير عليهم لترك دينهم والإقبال على النصرانية . والخطوة الخامسة لا فتة للنظر : يجب احتلال المراكز (المدن) المحمدية الهامة حيث أن الدعوة الإسلامية تنتشر منها إلى المناطق الوثنية المجاورة . ونتساءل عمن سيحتل هذه المراكز وكيف سيكون الاحتلال ؟ والخطوة السادسة خطيرة وذكية : يجب تعيين مبشرين أو دعاة متجولين للنصرانية على غرار الدعاة المسلمين المتنقلين . وعلى كل منهم أن يمكث فى القرية الواقعة ضمن نطاق عمله مدة تكفي للتأثير على الناس وإقامة مكان للعبادة . ويجب الاعتناء باختيار هذه العناصر إذا كانت هناك قرى مسلمة فى المنطقة . والخطوة السابعة ليست غريبة : يجب إقامة كلية مسيحية تضم الخبراء فى الشئون الإسلامية فى كل مكان يكون فيه المسلمون أغلبية .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود يقف الإسلام الأعزل يتحدى

المخططات . ويحاول الكاتب الأمريكى ألان مور هيد فى كتابه **النيل الأبيض** (الصادر عام ١٩٦٠) تحليل التحدى الإسلامى تمهيدًا للتغلب عليه . ويحدد التحدى الإسلامى فى بساطة العقيدة فكرًا وممارسة وغياب الكهنوت وسهولة العبادة دون وساطة . ويرى مورهيد أن هذه السمات تلائم العقل الأفريقي الساذج والمتخلف الذى لا يستطيع أن يفهم أسرار وفلسفات المسيحية . وياله من اتجاه عنصرى يسم الأفارقة بالبلاهة وهو يخطط لتنصيرهم ! غير أن الكاتب نفسه يعود ليكشف عن حقيقة غربة النصرانية عن أفريقيا وتناسب الإسلام معها ورسوخه فى ترتبها . فيرى أن المسيحية جاءت إلى القارة السوداء بطراز معمارى أوروبى للكنائس وبثياب أوروبية ضيقة لا تتفق والمناخ الحار . أما عماره المسجد لمساحاته الممتده تحت القباب المستديرة فيتواءم مع البيئة ونوعية الأرض كما يناسبها الجلباب العربى الفضفاض .

وتنصب جهود المبشرين الأجانب حتى وقتنا الراهن فى محاولة استنباط شكل من الممارسة الكنسية يكون ملائمًا لأفريقيا وآسيا ويمكن عقيدتهم من الوقوف فى وجه الإسلام إلا أن مريم جميلة تلاحظ بوعى أن المؤسسة الكنسية الضخمة للمسيحية هى نبت أوروبى سار مع مسار التاريخ الغربى وتطور مع تطورات الحضارة الأوروبية فى وقت ضعفت فيه الكنائس الشرقية وذبلت . ولا ريب أن أى محاولة لتغطية الوجه الغربى الأوروبى للمسيحية العالمية هى محاولة مصطنعة فاشلة .

وتمر مريم جميلة على قضية يثيرها المبشرون فى أفريقيا لتشويه صورة الإسلام بربط التجار المسلمين بالرق والوصول من ذلك إلى أن الإسلام يناصر الاستعباد . وهنا نقف مرة أخرى لنسأل هل هم ينشرون المسيحية أم يحاربون الإسلام ؟ وتذكر الكاتبة بأن الكتب المقدسة للمسيحيين لا تقول شيئًا عن الرق إلا فى رسائل القديس بولس حيث تأمر العبد بالطاعة والاستسلام لسيده إلا أنها لا تتعرض لحاله على الأرض بينما يحث الإسلام على عتق الرقاب ويجعل ذلك كفارة عن بعض الذنوب ويسد ينابيع الاسترقاق ويفتح باب التحرير . وتلاحظ مريم أن النصارى والمسلمين كان لهم دور فى تجاره الرقيق بأفريقيا فى القرن التاسع عشر غير أن قيام بعض المسلمين بذلك كان مخالفا لتعاليم الإسلام . ثم تذكر بأن نظام العبوديةظل قائما فى أمريكا المتحضرة حتى عام ١٩٦٥ بينما ما زالت آثار التفرقة العنصرية والتعصب ضد السود قائمة حتى الآن فى الكنائس المنفصلة . ولا يغير تغرب الأسود وتقبله للنصرانية من الأمر فى شيء . فمهما فعل يظل أقل فى المكانة عن الأبيض .

وتتحدد نظرة كل من المسيحية والإسلام إلى المسألة العنصرية أو الطبقية فى قضية وحدة العبادة . فمازالت كنائس البيض منفصلة عن كنائس السود حتى الآن فى مناطق واسعة من أمريكا وفى كل أنحاء جنوب أفريقيا . وعندما عقد مؤتمر كنسى فى هذا البلد الأخير أواخر

عام ١٩٥٤ قسمت القائمة إلى نصفين خصص أحدهما للكهنة البيض والآخر للسود جلسوا ليبحثوا فى مشكلة التفرقة العنصرية . وقد خطب فى الجمع قس أسود فقال لهم : إنهم قسموا المسيح كما قسموا القاعة وسخروا منه وهم يقولون إنه ابن للأب . فإلى أى فريق ينحاز الأب وإلى أى جماعة يذهب المسيح إذا عاد إلى الأرض . وأدان قس آخر دفاع الكنيسة البروتستانتية فى جنوب أفريقيا عن مبدأ التفرقة العنصرية مذكرا قادتها بأن الحب الذى يقولون إنه جوهر المسيحية لا يتحقق عندما يحرم طفل أفريقي من التمتع بجمال حديقة مقصورة على البيض أو يمنع عامل أسود من الجلوس مع مخدوميه البيض فى كنيسه واحدة .

وتنتقي مريم جميلة صورة مناقضة تعبر عن المساواة فى العبادة عند المسلمين . وهى صورة رسمها قلم كاتب إنجليزى زار القاهرة فى مطلع القرن الحالى ودخل أحد المساجد خلسة ليفاجئ فى صفوف المصلين بنماذج لكل طبقات ومستويات المجتمع المصرى تقف متراصة متوحدة خاشعة لله فى الصلاة بدون تفرقة أو تمييز . ويحدثنا الكاتب عن الفلاح الواقف بجانب التاجر الغنى والعامل المكدود والطالب لا بس الثياب الأفرنجية والشيخ بعباءته . وتتعدد أشكال وألوان الملابس داخل المسجد ولكن تتوحد القلوب وأركان الفريضة لتدل على أعظم إنجازات الإسلام كما وصفها المؤرخ البريطانى المشهور توينبى وهى إلغاء المشاعر العنصرية .

وتعود الكاتبة لتلقي الأضواء على بعض أساليب المستشرقين لافتة النظر إلى التفاصيل بعد أن تعرضت للخطوط العامة . وننظر معها لنجد الاستغلال البشع ممثلاً فى تلك الجماعة التبشيرية التى استقرت بالمغرب فى أوائل القرن الحالى واحتمت بالاستعمار الفرنسى والأسبانى لتأخذ أيتام المسلمين فى مدينة طنجة وتنصرهم لقاء الخبز والمأوى ثم ترسل لهم ليكونوا مرتزقة فى خدمة الجيش الفرنسى الاستعمارى فى حروبه ضد الشعوب المسلمة وغير المسلمة . ونلمح معها التدنى والحقارة فى قصة ذلك المبشر الذى أقنع أحد الأطفال الهنود المسلمين بأنه إذا صلى للمسيح ورسم علامة الصليب على صدره فإن فريقًا لكرة الكريكيت سينتصر على الخصوم بفضل الرب . ثم نرى كيف يضع المبشرون أساطيرهم حول مهاراتهم فى التنصير لنقرأ ما كتبه أحدهم عن شاب دمشقي من عائلة مسلمة كفر بالدين بعد اطلاعه على العلم الحديث لكنه عاد وآمن بالمسيحية عندما أخبره صديق نصرانى أن المسيحية لا تحرم الموسيقي والرسم كما يفعل الإسلام المتعصب .

وتقف مريم عند نشاط المبشرين فى مجال العلاقات الاجتماعية فى البلاد الإسلامية. لتلاحظ أنهم يهتمون كثيرًا بما يسمونه تحرير المرأة أو تنفيرها من الإسلام وتعويدها على العادات الغربية لهز الإيمان فى نفسها وزعزعته أو وأده فى أطفال المستقبل . ويركز المبشرون فى العديد من المناطق على ضرورة تخلى المرأة المسلمة عن الزى المحتشم وتمردها على

الأسره وخروجها إلى المراقص والملاهى حتى وإن لم يؤد ذلك فى النهاية إلى اعتناق المسيحية . ويتضح من هذا الاتجاه أن للتغريب والتشكيك فى الإسلام أهدافا أصيلة فى عمل المبشرين تفوق بالفعل اهتمامهم بالدعوة إلى النصرانية . ويبرز هنا كمثال قيام مبشرة هولندية بإنشاء مدرسة للبنات فى مدينة البصرة عام ١٩٠٩ لتربيتهن تربية أوروبية صرفة وتجهيزهن لإكمال التعليم فى الغرب حين يبعدن عن الإسلام تمامًا . وكانت هذه المبشرة تهتم بمتابعة أخبار طالباتها وتفرح عندما تسمع أنهن تخلين عن الزى العراقى التقليدى واتبعن العادات الغربية . فى بيوتهن ومع أطفالهن . وقد سجلت تجربتها هذه فى كتاب صدر فى أمريكا عام ١٩٦١ وتتحدث بابتهاج عن التغير الاجتماعى المواتى للغرب الذى يمكن للمعاهد العلمية التبشيرية والغربية أن تحدثه . وتعلق مريم جميلة على هذا النمط فى التفكير بالإشارة إلى دور الجامعة الأمريكية فى بيروت والقاهرة وكلية روبرتس فى أسطنبول .

لكن الجانب الأخطر فى كل هذه النشاطات التنصرية كما تلاحظ الكاتبة يكمن فى جهل المسلمين بها وسلبيتهم إزاءها وتواطؤ الحكومات فى البلاد الإسلامية معها . فالدعوة الإسلامية غائبة عن الأقليات غير المسلمة المقيمة فى بلاد المسلمين . والحكام العلمانيون تخلوا عن واجب الحاكم فى الإسلام الذى يحتم عليه رعاية القيم الدينية لمواطنيه وتشجيع الدعوة لنشر الإسلام . ويقف المسلمون فى حالة من الغفوة المشينة إزاء

المبشرين المسلحين بالأموال الطائلة والنفوذ السياسى والذين يسخرون المؤسسات الاجتماعية الضرورية كالمكتبات والمدارس والملاجىء والمستشفيات ودور الرعاية ومراكز الشباب لنشر دعوتهم حتى فى داخل بلاد المسلمين أنفسهم . والمبشرون ينوعون أساليبهم ما بين الإقناع والإرهاب والإغراء واستغلال الجهل والحاجة . وهم يجتذبون الفقراء بالمال أو تزويد المسكن أو الإرشاد الزراعى أو الخبز أو فرص التعليم أو مناصرة قضايا المظلومين بالاستناد إلى الحماية الخارجية . وهكذا يتحول المبشرون إلى تيار اجتماعى سياسى قوى ينافس الدولة ويخيفها إن لم يسيطر عليها . وبهذه الطريقة ضاعت الأغلبية المسلمة فى كثير من الدول الأفريقية واهتزت فى بلاد إسلامية كبيرة كأندونيسيا والباكستان .

وعندما قام حاكم مسلم مستنير كأحمد وبيلو وأبو بكر تيفاوا باليوا فى نيجيريا أسقط فورًا فى انقلاب عسكرى دموى دبرته الصليبية الدولية بالتحالف مع الصهيونية وكانت جريرته التى قتل بها فى يناير عام ١٩٦٦ أنه شجع الدعوة الإسلامية مما أدى إلى اعتناق الألوف المؤلفة من النصارى والوثنيين للإسلام . وقبلها بعامين تحالفت الصليبية مع الوجه الشيوعى السابق جوليوس نيريرى وبعض الاتجاهات العسكرية الماركسية لقلب حكومة زنزبار المسلمة وتنحية الحاكم العربى الشرعى السلطان جمشيد وإحلال حكم مسيحى محله بعد ذبح أعداد لا حصر لها من المسلمين فى هذه الجزيرة وتصفية سكانه من العرب .

وببساطة شديدة انتهت زنزبار كمعقل إسلامى كبير وقديم فى شرق أفريقيا .

ويمتد الأخطبوط التبشيرى بتحالفاته السياسية الواسعة إلى قلب بلد كان يظن أنه بمنجى من مخططات التنصير والتغريب وهو باكستان التى قامت على الإسلام لجمع شمل المسلمين . فما هى الصورة فى ذلك البلد ؟ ولنترك الأرقام التى تذكرها مريم جميلة تتحدث . ففي عام ١٩٥٨ ذكر المسيحيون أن أعدادهم هناك تبلغ حوالى ثلاثمائة ألف وقالوا إن نسبة زيادة المسيحيين خلال عشر سنوات من عام ١٩٤١ إلى ١٩٥١ بلغت حوالى ٣٠ ٪ وكانت الزيادة فى منطقة البنغال الشرقية وحدها (بنجلاديش الآن) تصل إلى ٤٥ ٪ ووصلت فى منطقة لاهور بالجزء الغربى من البلاد إلى ٥٠ ٪ بينما ارتفعت فى مدينة كراتشى إلى مائة بالمائة . أما فى الفترة من عام ١٩٥١ ـ ١٩٥٨ فقد زادت الأعداد بنسب أعلى لا سيما فيما يتصل بالمنضمين إلى المذهب الكاثوليكى . وترجع نشاطات التنصير إلى أواخر الأربعينات حيث أستغلت الهيئات التبشيرية حالة الفوضى السائدة عقب التقسيم وما تبعه من متاعب ونشوء تجمع لاجئين كبير فى الانتشار بين الأوساط الإسلامية والتركيز عليها . وقد ذكرت جريدة **العالم الإسلامى** التى تتبع إحدى جهات التبشير الأمريكية أن المجتمع الإسلامى قد ساده الاضطراب عام ١٩٤٧ مما أدى إلى أن يصبح المسلمون أكثر تقبلاً لصداقة المسيحين

المبشرين الذين قدموا المعونات والهداية والإرشاد من خلال تنظيمات مثل اللجنة المسيحية لإغاثة باكستان الغربية ومقرها لا هور . وقد دعمت حكومة باكستان هذه الأعمال التبشيرية وسهلت لها نشاطاتها من النواحى المادية والمعنوية فضلاً عن تدفق الأموال من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والسويد على أكثر من أربعين منظمة تبشيرية تنشط فى باكستان من خلال المؤسسات التعليمية وغيرها .

وتركز جهات التنصير فى باكستان على النواحى التعليمية بعد أن استقرت هناك باستغلال الاضطراب والعوز الناجمين عن التقسيم . ومن المؤسسات التعليمية كلية فورمان المسيحية للشباب وكلية كينيرد للشابات ودير عيسى ومريم للأطفال . وكلها تدرس بالإنجليزية ومقرها لا هور . وتعتمد الحكومة الباكستانية أساليب وأنظمة ومناهج وفلسفات التعليم فى المدارس والمعاهد التبشيرية كنماذج وقدوة ومثل عليا تصاغ على أسسها سياسات التعليم فى المدارس الحكومية باللغتين الأردية والبنغالية . ولهذا السبب تتضاءل أهمية تدريس اللغة العربية والفارسية فى التعليم الحكومى وتهيمن الإنجليزية ليس كلغة فحسب بل وثقافة أيضًا حيث يدرس الأطفال تاريخ إنجلترا على حساب تراثهم الوطنى . ولا يتعلمون أى شىء عن الإسلام أو تاريخه سواء فى الخارج أو فى بلدهم الإسلامى نفسه . وتحاط دراسة المواضيع الإنجليزية بمغريات شتى تحبب التلاميذ فيها بينما تقدم مادة الإسلاميات فى صورة

منفرة غير متصلة بالواقع سواء فى مراحل التعليم الأولية أو الجامعية . أضف إلى ذلك أن الدراسات الإسلامية فى الجامعات تقدم من وجهة نظر غربية استشراقية مما يعنى أن الطلاب المسلمين يدرسون دينهم على يد اعدائه . ومما لا ينبغى إغفاله أن المدارس التبشرية الخاصة فى باكستان تعمد إل صياغة سلوكيات الطلبة على الأنماط الغربية فتفرض عليهم الزى الأوروبى الكامل بما فيه رباط العنق الذى لا يتناسب مع حرارة الطقس كما تقدم لهم أصناف الطعام الإنجليزى .

وترى مريم جميلة أن مواجهة النشاط التبشيرى فى البلاد الإسلامية يجب أن تبدأ بمنع هذه التحركات المستغلة للعوز والحاجة كما لا بد أن يقترن ذلك بدعوة إسلامية إيجابية وذكية متحررة من قيود السلطة أو روتينية الوظيفة يقوم بها الأفراد والجماعات . وتؤكد فى عمق وذكاء أن الدعوة الإسلامية بين غير المسلمين لن يكتب لها النجاح على نطاق واسع إلا إذا قام مجتمع أو دولة إسلامية تكون بمثابة القدوة للطبيعة العملية والممكنة للمنهج الإسلامى وتقدم البديل العملى الناجح والقائم فى وجه المنهج الغربى الفاشل على تعدد أساليبه . وهى ترى أن مثل هذه الدولة الإسلامية الحقيقية هى الكفيلة بإنجاح جهود الدعوة كما كانت المدينة المنورة فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وإذا كان المبشرون يعتمدون على مجال الخدمات الاجتماعية والاقتصادية للوصول إلى الجماهير المحرومة فلابد من دعم جهود التنمية

والوفاء بحاجات الناس الصحية والتعليمية من خلال مؤسسات إسلامية تابعة للحكومات أو الأفراد أو الهيئات. ولابد كذلك من التعرف بتعمق على الفكر والعقيدة المسيحية وأوجه الضعف فيها . وهنا تحاول الكاتبة أن تطرح بعض الملاحظات العامة على المسيحية الغربية تعتقد أنها مناطق عيب تقابلها أوجه قوة فى الإسلام .

أولى هذه الملاحظات تتعلق بغياب مفهوم الأمة الواحدة العامة فى الممارسة المسيحية وغلبة المفاهيم العنصرية والقومية . فالعنصرية تحكم المسيحية الغربية مع الشعوب الأخرى حتى لو اعتنقت المسيحية والقومية تهيمن على العالم المسيحى الغربى الذى يفصل بين الدين والدولة مما أدى إلى ظهور شرور النازية والفاشية والشيوعية . وفى كل الأحوال فإن غياب مركزية التوجه ووحدته قد أصاب المسيحية الغربية بضعف شديد تحاول الآن التغلب عليه من خلال تحركات البابوية الرومية ومجلس الكنائس العالمى فى ميدان السياسة .

والعيب الثانى الرئيسى فى المسيحية هو تعقد عقائدها وغموضها المضطرب كعقيدة التثليث مثلاً . ونجم عن ذلك أن تحولت المسيحية إلى مجرد محاولة غير ناجحة لتحويل بعض الأفكار الفلسفية إلى دين لا تتقبله الفطرة الذهنية . كما نجم عنه أيضاً حركات الإصلاح المتتابعة منذ البروتستانتية والتى سعت كلها إلى جلاء غموض الفلسفات والمذهبيات المتداخلة فى العقيدة المسيحية . لكن هذه الحركات بدورها

حولت الدين إلى كتلة باردة فاقدة لحرارة الإيمان والإخلاص . وانتهى الأمر إلى ضيق المفكرين والعامة من الأمر برمته ورواج الدعوة إلى فصل المسيحية عن تسيير الشئون السياسية والاجتماعية إذا كانت عقائدها الأساسية على هذه الدرجة من التخبط . ومع ذلك بقى دعاتها يؤكدون أن صعوبة عقائدها تعنى أنها موجهة بالأساس للعقول المتحضرة وليس للسذج فى بلدان آسيا وأفريقيا ممن يقبلون على الإسلام لبساطته .

والعيب الثالث القاتل هو خلو المسيحية من فلسفة اجتماعية شاملة وفعالة . فهى منذ بدايتها لا تعلق على شئون الحياة والبشر وليس لديها رأى فى مسائل الدولة والقانون والإنتاج . ولا بديل أمامها إلا أن تعيش منفصلة عن الدولة أو أن تسعى إلى مناقضة نفسها بالعمل على السيطرة على الدولة التى توجد الكنيسة فى دائرتها . وتعود نظريتها فى هذا المجال إلى القرنين الأول والثانى من تاريخها حيث ترعرعت إلى جانب الدولة الرومانية وتركت قضايا الحياة للقياصرة الأقوياء مكتفية بالحديث عن ملكوت الرب . وكان من شأن هذه الثنائية والبعد عن الحياة أن تثور ردود فعل قوية ضد المسيحية فى تاريخها الطويل فى أوروبا لعل أشهرها كان تفشى المذهب الشيوعى فى بلدان الغرب ليحاول ملء الفراغ الدنيوى الخالى من أى توجيه دينى . ولا ريب أن محاولة فصل الدين عن الحياة تفشل لأن الحياة لا تقبل أن تنقسم

وتحصر فى أطر ضيقة .

ومن العيوب الأخرى التى أصابت المسيحية اقتصارها على الشعوب الغربية وتطبعها بأفكارها ومذاهبها وعاداتها . ولم تنتشر المسيحية خارج أوروبا إلا فى بلدان العالم الجديد فى أمريكا الشمالية والجنوبية حيث واجهت وثنيات متخلفة . لكنها حينما حاولت أن تتوسع فى البلدان ذات الأديان المنظمة حتى وإن كانت وثنية كالهندوكية والبوذية فشلت ولم تحرز أى تقدم إلا فى ظل سيطرة الاستعمار الغربى وبمساعدته والتحالف معه واستغلال أوضاع محلية معنية من الأزمات والحروب والفقر والجهل والتفكك الاجتماعى والتدهور الثقافى وضرب الحضارات الأصلية .

وتختتم الكاتبة جولتها المطولة عبر أفكار وممارسات المسيحية بتساؤل : ترى لو عاد المسيح عليه السلام فهل سيتعرف على أتباعه فى الفاتيكان أم فى مسلمى فلسطين والبلاد المجاورة الذين سيعرفون قدره كنبى ويرحبون به حتى وهم فى حالة الاستضعاف ؟ إن عيسى عليه السلام لن يسعى إلى مقابلة البابا لكنه سيحاول تحرير القدس كما حررها من قبل من الفارسيين والكتبة والمنافقين . وسيقود جيش المسلمين من فلاحى مصر والشام وفلسطين . وليست هذه كلماتنا لكنها كلمات مريم جميلة الأمريكية ذات الأصل اليهودى التى أسلمت وتقيم فى باكستان .

كلام فى الإسلام

تحدثت مريم جميلة بإيجاز عن اعتناقها للإسلام وإيمانها به . وطافت بنا حول اليهودية والمسيحية تسلط الضوء وتنبه وتحذر وتعلم مؤدية واجب النصيحة ومبدية الغيرة على دينها الجديد فى وقت نام فيه الكثير من أتباع هذا الدين المولودين فى نعمته عن هذا الواجب وغيره . وربما جاء الدور الآن على الإسلام كى تحدثنا مريم عنه ونعرف بعض ما فهمته من هذا الدين وشدها إليه بعد أن عرفنا ما نفرها فى العقائد الأخرى . ولنستمع إليها كما سرنا معها من قبل .

إن اليهودية تنتسب إلى قبيلة يهوذا والمسيحية إلى النبى عيسى عليه السلام أما الإسلام فهو الانقياد المطلق لإرادة الله كما أوحى بها فى القرآن وبينتها السنة النبوية . وفى هذا بيان لعالمية الدعوة الإسلامية فى مواجهة اقتصار اليهودية على قوم بعينهم أو رضوخ المسيحية لمبدأ العلمانية الذى ينحيها عن جل الحياة البشرية . ولا يمكن أن تكون اليهودية الموجودة وحياً حقاً أو ديناً إلهيا بينما يعلن أحد رؤسائها الأمريكيين أن تعاليمها وصلاحيتها تنطبق على اليهود وحدهم ولا شأن لها بغيرهم . فليس من المعقول أن يرسل الإله وحيه لقوم بعينهم من بين البشر الذين خلقهم ويذر الباقين بلا هداية .

والإسلام هو الدين الوحيد الذى يفاخر بكتاب سماوى خال من التحريف نزل بلغة ما زالت مقروءة ومفهومة . أما الآخرين فليس

عندهم كما يعترفون إلا ترجمات محرفة ومتغيرة عن نصوص أصلية كانت بدورها سيرا عن حياة الأنبياء وضعت بعد وفاتهم بقرون ولم يكن لهم فيها من نصيب إلا اقتباس بعض الأقوال والأفعال عنهم . ولو أعيدت هذه النصوص إلى لغاتها الأصلية لما فهمها أحد ممن يقولون انهم يؤمنون بها الآن .

ونعرف الآن عن فلاسفة اليونان أكثر مما نعرف عن حياة موسى وعيسى . أما محمد عليه الصلاة والسلام فقد خضع لأدق مراقبة ومتابعة تعرض لها بشر وما كان يطيقها لولا أنه نبي مكلف بالتبليغ والهداية والتبيين . لقد سجلت السيرة كل تفاصيل حياته حتى أدقها وأخصها . فعرفنا مشيته وجلوسه وطعامه وملبسه وملامح وجهه وأعضاء جسده وحديثه وخطابته وابتسامته ونومه وأكله وعطره وركوبه وعبادته وتحيته وتعبيرات وجهه وفعله عند السرور والحزن وكيفية صلاته وحربه وصومه وحجه وتقواه وخشيته لربه ومعاملاته وأمانته وصبره وحسن ضيافته وبره وأحواله مع قرابته ومع الغرباء والأعداء وكراهيته للنميمة والغرور وتواضعه وشجاعته وعزمه ومعاملته للكبار والصغار والرجال والنساء واكتسابه لرزقه وشفقته على الحيوان . ولا تكاد السيرة تترك جانبا من حياة الرسول إلا وتحدثنا عنه حتى تدخل عليه بيته وحياته الخاصة مع زوجاته . تتبع الجميع حياته ومنهم أعداؤه فلم يجدوا إلا الخير والقدوة . فهل هذا إلا نبي ؟ وقد كان عليه السلام يحض على

اتباع سنته لأنها من الهداية والوحى الإلهى .

وبالقرآن والسنة يتكامل الإسلام ديناً شاملاً وأسلوب حياة متكاملا يتوازن فيه الفرد والمجتمع والمادة والروح فى تناسق بديع . وتهدى الشريعة السمحاء الحياة الفردية والاجتماعية فتتحدث عن العبادات والأخلاق والعادات والروابط الأسرية والشئون الاجتماعية والاقتصادية والإدارة والحكم وحقوق وواجبات المواطن والنظام القضائى وقواعد الحرب والسلم والعلاقات الدولية . وتوضح الحق والباطل والحلال والحرام والنافع والضار والمندوب والمنهى عنه . وترسم نطاق الحريات الفردية وحدودها وكيفية إقامة المجتمع المسلم . والشريعة لازمة لأن العقل البشرى قاصر عن أن يكتشف وحده مراد الله ومبادئ الأخلاق الخالدة . وهدف الالتزام بتعاليم الشرع هو مرضاة الله كما أن هذه التعاليم والمبادئ والأخلاق ثابتة غير متغيرة لأنها من وضع الله وليس البشر . ولا يتغير المسلم الحق مع تغير الزمان بل يغير الأوضاع لتتمشى مع مقاييسه .

والإسلام يرفض العلمانية ولا يسعد المسلم أو يقوم له كيان إلا فى بيئة إسلامية يكون واجبه إقامتها وإيجادها . ويرى الشهيد سيد قطب عليه رحمة الله أن لا غنى لحياة المسلم عن مجتمع إسلامى محكوم بالإسلام . وبدون ذلك وفى المجتمع الجاهلى تتحول تعاليم الإسلام إلى قيود ثقيلة لا يستطيع المسلم أن يمارسها . وقد اقتضت واقعية الإسلام أن يعيش

المؤمنون به فى بيئة يهيمن عليها الدين . وتؤكد مريم جميلة أن الإسلام هو الدين الوحيد فى العالم الذى أوجد أمة تحكمها الدوافع الأخلاقية والدينية مثبتاً بذلك ضرورة خضوع السلطة السياسية للقيم الأخلاقية .

ويعلمنا الإسلام أن السمو الروحى لا يكتسب إلا من خلال المشاركة النشطة فى الحياة اليومية وهو لذلك يرفض الرهبانية والعزوف عن الدنيا والعزوبية . وعقائده بسيطة واضحة وهو واقعى عملى فى معالجته للمشاكل البشرية ويأمر بالاعتدال والتوسط فى كل الأمور . ولا ينوء بعبء لاهوت معقد أو طقوس متعبة . وإذا كانت الأديان الأخرى تعانى من عنصرية وانغلاق على قوم زعموا أنهم مختارون أو من إلغاء للتبعية بكفارة للذنوب على يد ابن الاله المثلث الأقانيم فإن رسالة الإسلام جلية لا لبس فيها . وتستعير مريم جميلة كلمات جامعة فى وصف الإسلام لأبى الأعلى المودودى :

إن طريق الحياة الصحيحة للإنسان هو تمام الطاعة لله . والإنسان لا يحدد كيفية الطاعة والعبادة بل يرسمها الله . وهو بصفته رباً قد بعث بالأنبياء من وقت لآخر لهداية البشر وأنزل عليهم الكتب . وواجب الإنسان أن يأخذ منهاج حياته من ينابيع الهداية الإلهية هذه . وهو مسئول أمام الله عن أفعاله فى الحياة . وزمن المساءلة هو القيامة . أما فترة الحياة القصيرة ففرصة للتحضير لهذا الامتحان العسير . ويجب أن تتركز كل جهود الإنسان فى هذه الحياة الدنيا على ابتغاء مرضاة الله فى

الآخرة . والإنسان بكل قواه ومواهبه فى حالة امتحان وسوف توزن أعماله وسلوكه وزناً عادلاً من قبل رب لديه السجل الكامل والصحيح لكل حركات وتصرفات الإنسان بل وخطراته ومشاعره ونواياه .

ويقول الإسلام إن الله قد جعل الإنسان خليفته فى الأرض . والهدف الوحيد لخلق الجسد هو أن تتخذ منه الروح أداة لممارسة مسئولياتها وأداء واجباتها . ولهذا فالجسد ليس سجناً للروح بل أداتها ومصنعها ومعملها ولا إمكانية لنمو وتطور الروح إلا من خلال القوى والآلات والأدوات التى يمنحها إياها هذا المصنع والمعمل . ومن هنا فإن هذه الدنيا حقل أرسلنا الله لنعمل فيه وننفذ واجبنا نحوه . ولا ينبغى أن تكون وجهة التطور الروحى للإنسان مضادة للجسد ومعادية له . بل يجب أن يسخر الإنسان هذه الأداة للخير ويعمل بها ومعها . فالحياة بكل مجالاتها بمثابة ورقة الاختبار للإنسان . والبيت والأسرة والجيرة والمصنع والمدرسة والمحاكم وأقسام الشرطة والبرلمان ومفاوضات السلام وميدان الحرب كلها أسئلة فى الامتحان مطلوب من الإنسان الإجابة عليها . وإذا تركها بدون إجابة فانه راسب لا محالة . وطريق النجاح الوحيد هو أن يبذل الهمة فى معالجة هذه الأسئلة والإجابة عليها بأفضل ما يستطيع .

وتتحدث مريم جميلة بعد ذلك عن عقيدة التوحيد الصافية النقية فى الإسلام التى ترفض كل أشكال القومية والعنصرية والتثليث وعبادة

القديسين وتقديس الصور والكهنوت . والتوحيد يجعل المؤمن يتعاطف مع كل المخلوقات التى أوجدها نفس الإله ويقيه الخوف من غير الله ويدفعه إلى التقوى وعدم اليأس ويبث فيه العزاء بأن الله القوى القادر خالق كل شئ يستطيع نجدته برحمته . وفى ظل الإيمان بعقيدة التوحيد فالانتحار والتشاؤم والقنوط أمور لا محل لها فى نفس المؤمن . فالمؤمن الحق يصبر ويثابر ويثق فى الله ويتوكل عليه ويمتلىء قلبه بالشجاعة وهو مستعد دوماً للتضحية بكل شئ فى سبيل الله لأنه يعلم أن لله كل شئ . والله فى عقيدة المؤمن هو مالك كل شئ ومسبب الأسباب وهو الذى يعطى ويمنع . أما الملحدون والمشركون فيضيعون بين عبادة الأسباب وتقديس ذواتهم ولا يجدون الراحة النفسية .

والإسلام هو الوحيد من بين أديان العالم الذى أوجد أخوة عالمية تقوم على وحدة النظرة إلى الحياة ووحدة الشعائر والسلوك والمثل . وهو مثلما يوحد بين البشر يوحد بين مختلف نشاطات الحياة ولا يقبع فى المساجد . فالمسلم ليس مسلماً فى المسجد وحده وقومياً أو اشتراكياً فى السياسة . كذلك فإن الإسلام دين مفتوح للجميع بدون تمييز يقوم على القومية أو المستوى الثقافى والفكرى أو الوضع الاجتماعى أو السن أو الجنس . والمسلم يعتبر أن غير المسلم يمكن أن يصبح مسلماً لأن الهداية من عند الله . وهو مأمور بالعدل والإحسان معهم ليكون قدوة فى سلوكه . والمسلم وهو يؤمن بأن دينه هو الحق وأن غيره هو الباطل ليس

متعصباً أو مغروراً . ولا يجبر أحدًا من غير المسلمين فى ظل حكم الإسلام على اعتناق هذا الدين .

والإسلام حين يعارض الأديان والفلسفات الباطلة لا تحركه كراهية أفراد معينين بل رفض الأنظمة الشيطانية التى أفرزت هذا الباطل . وكراهية الشر ومحاربته فضيلة وليست تعصباً أو تطرفاً . والكره هنا هو الوجه الآخر للحب ـ حب الخير والفضيلة والرغبة فى التمكين لها بإزاحة الشر عن طريقها . وهنا وفى إطار المفهوم الإسلامى تصبح الحرب فى سبيل إقرار الحق والعدل والفضيلة خيراً وعملاً إيجابياً .

ويقول الإسلام أن الإيمان المشترك هو الرابطة الوحيدة التى يمكن أن تجمع الجنس البشرى . والمعيار الوحيد الذى يجب أن يحكم به على المرء هو الإيمان والكفر ودرجة تطبيقه لإيمانه على سلوكيات الحياة اليومية . أما معايير العنصر والقومية والحالة الاجتماعية فهى صدف نشأت بالمولد ولا سيطرة للفرد عليها ومن ثم فإن التمييز على أساسها يعد ظلماً فادحاً . فالفرد مسئول فقط عما يعتقده ، ويفعله وهو دوما حر فى تحديد عقيدته والسيطرة على سلوكه .

ولن تحقق الأيديولوجيات المتصارعة السلام فى العالم إلا إذا انتصرت إحداها على الأخرى تماماً . ولذلك لن يعرف العالم السلام إلا إذا سادت فيه المثل والقيم المشتركة لدين واحد . وفى الأوضاع الراهنة فإن تحالف اليهودية والمسيحية العالمية ضد الإسلام أمر يثير القلق ويمنع

حلول السلام . لقد اتحدت قوى الصهيونية والتبشير والماسونية للقضاء على المسلمين مادياً وليس فقط دينياً وثقافياً . وعلى هذا فلا يمكن أن تتحقق العلاقات السلمية بين المسلمين وغيرهم على أساس القوة . ويخطىء المسلمون إذا ظنوا أن الاعتذار عن عقيدتهم ومحاولة تطويعها لمفاهيم الغرب سينقذهم أو يضمن لها الانتشار بل إن الدعوة الصادقة الأمينة وبث الإيمان فى نفوس المسلمين بالاسم هى الخطوات الأولى والضرورية نحو تقوية هذا الدين . ولابد أن يقترن ذلك بإقامة دولة إسلامية حقيقية تكون قدوة ونموذجًا يشجع جهود الدعوة ويثبت نجاح الإسلام . لكن المطلوب قبل هذا وذاك تحطيم مؤامرات الصهيونية والماسونية والاستشراق والتبشير ومقاومتها بالقلم وبالسيف . ومن هنا فقط ينفتح باب السلام مع أهل الكتاب .

وتتركنا هنا مريم جميلة بعد هذه الوصايا الأخيرة التى تستند إلى ما عرضته طوال كتابها من الأفكار وعبر التاريخ .

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٠/ ١٩٨٥

دار نـافع للطباعة والنشر
تليفون ٩٠٠١١٨

- مريم جميلة والإسلام
- الإسلام فى مواجهة اليهودية والصهيونية
- عقائد وكتب اليهودية
- عبادات وأخلاق فى اليهودية
- مفهوم الحرب عند اليهود
- من الشريعة اليهودية
- التعليم الدينى
- لمحة عن المرأة
- اليهود فى أوربا الحديثة
- الحركة الصهيونية
- مأزق فى أرض الميعاد
- نحو موقف إسلامى

- الإسلام فى مواجهة المسيـ
ونشاطاتها التبشيرية فى البلـ
الإسلامية
- التأثير الوثنى
- الكنيسة والدولة
- تفريط وإفراط
- الألوهية فى العقيدة المسـ
- مفهوم الخطيئة فى المسيـ
والإسلام
- عن المرأة
- الكنيسة فى الغرب
- التبشير والصراع بين الإسـ
والغرب
- كلام فى الإسلام

